جائزة البوكر البريطانية 2005

رواية

جون بانفيل

مكتبة

ترجمة عواطف بركات

بحر

رواية كُتبت بأسلوب «مَن يتكلّم من جوفه»

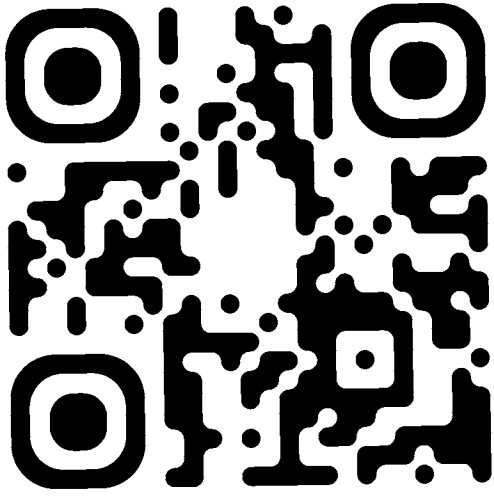

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

البَحـــر

عنوان الكتـاب: البَحر
اسـم المؤلـف: جون بانفيل
اسـم المترجـم: عواطف بركات
الموضـوع: روايـة
عدد الصفحات: 208 ص
القيـاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 /كانون الثاني 2024 م - 1445 هـ
ISBN: 978-9933-38-575-0

رقم الإصدار	روايـة
1383	316

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

Copyright © 2005, John Banville All rights reserved

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: 2314511 11 963+
هاتـف: 2326985 11 963+

الإمارات العربية المتحدة - الشارقة
- المنطقة الحرة - مدينة الإعلام للنشر
هاتـف: 506844076 971+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
web: www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
@House Ninawa
Ninawa house
ninawa_publishing_house

العمليات الفنية:
التحـريـر والمـراجعـة: دار نينـوى
التصميم الداخلي والإخراج: مازن جندلي
تصـميـم الغـلاف: دار نينـوى

مكتبة
t.me/soramnqraa

جون بانفيل

البَحـــر

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة:
عواطف بركات الجاروف

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

John Banville

The Sea

وليام جون بانفيل

John Banville

(8 ديسمبر 1945)

- روائي وكاتب قصة قصيرة وسيناريوهات روائية درامية وسينمائية أيرلندي. على الرغم من وصفه بأنه «وريث بروست، من خلال نابوكوف»، يصر بانفيل بنفسه على أن ويليام بتلر ييتس وهنري جيمس هما الشخصان اللذان أحدثا التأثير الأكبر على أعماله.
- منح بانفيل عام 1976 جائزة جيمس تيت بلاك التذكارية، وجائزة بوكر لعام 2005 وجائزة فرانتس كافكا عام 2011 وجائزة الدولة النمساوية للأدب الأوروبي عام 2013 وجائزة أمير النمسا للأدب عام 2014، كما اختير كزميل في الجمعية الملكية للأدب عام 2007، كما كرمته إيطاليا بمنحه لقب فارس عام 2017. وهو عضو سابق في جمعية أوسدانا (أهل الفن)، فقد تخلى عن راتبه طواعية عام 2001 لصالح كاتب آخر أشد حاجة مادية إليه.
- ولد بانفيل في ويكسفورد جنوب شرق أيرلندا، ونشر روايته الأولى بعنوان مخلوق الليل في عام 1971. تلاه الكتاب الثاني بعنوان بيرشوود بعد عامين. تتألف «ثلاثية الثورات» التي نُشرت بين عامي 1976 و1982 من ثلاثة أعمال، جميعها تشير إلى علماء مشهورين في عناوينها: الدكتور كوبرنيكوس وكيبلر ورسالة نيوتن. كان عمله التالي، ميفيستو ذا طابع متعلق بالرياضيات. مثلت روايته المنشورة عام 1989 باسم كتاب الأدلة -والتي دخلت في القائمة المختصرة لجائزة بوكر وربحت جائزة غينيس بيت أفييشن- بداية ثلاثية جديدة، وهي ثلاثة أعمال تتعامل عمومًا مع العمل الفني. اكتملت «ثلاثية الأُطر» بكتابي الأشباح وآثينا، الذين نُشرا خلال تسعينيات القرن العشرين. ربحت رواية بانفيل الثالثة عشر بعنوان البحر جائزة بوكر عام 2005. إضافة إلى ذلك، فهو ينشر روايات جريمة تحت اسم بجامين بلاك، تتضمن معظم هذه الروايات شخصية كويرك، وهو عالم أمراض أيرلندي مقيم في دبلن.
- يعتبر بانفيل مرشحاً لجائزة نوبل للأدب، وهو يعيش في مدينة دبلن الأيرلندية.

إلى كولم.. ودوغلاس

إيلين..... وآليس

تقديم

وصفه الناقد بيتر جي كونرادي بـ(كاتب الكتّاب)، فيما يعده آخرون: خليطٌ من فلاديمير نابكوف وصموئيل بكت وجيمس جويس.

هو الكاتب الإيرلندي المثير للجدل جون بانفيل الذي توج في الاحتفال، الذي أقيم في لندن في 10 أكتوبر من العام 2005 بجائز البوكر البريطانية لذلك العام، حيث حسم رئيس لجنة الجائزة آنذاك البروفيسور جون سثرلاند الموقف لصالح دار بيكاردو لتفوز مرة ثانية في عامين متتالين، مما جعل فوز جون بانفيل بجائزة البوكر 2005 عن روايته (البحر) الصادرة عن دار بيكاردو فوزاً استثنائياً، قال سثرلاند: «إنها رواية متقنة للحزن والذاكرة والحب المستعاد». أما بانفيل نفسه فقد عدّ فوزه انتصاراً للأسلوب على المضمون.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقولات كثيرة قيلت عن أسلوبه:

«أسلوب من يتكلم من جوفه».

«كتبه حافلة بالعمران والتفاصيل والتفرعات التي يصعب على السائح العادي استيعابها»...

الأمر الذي يجعله جاذباً ومُقلقاً ومحفزاً لشحذ مهارة القراءة. لم يمنعه اقتناعه بعدم امتلاكه للموهبة الكافية ليصبح رسامًا، من الانغماس في تاريخ الفن والفنانين، والاستمرار في تجسيد رؤيته للرواية بوصفها عملاً فنياً لا يستهدف الحاضر فقط، بل كل مراحل الحياة.

مادام أنه كان طموحاً لكتابة رواية تمنحُ القارئ إدراكا لمعنى أن يكون المرءُ واعياً، وإنسانياً، وزاخراً بالمشاعر. جاءت (البحر) على ثلاثة

محاور سردية، ليكتب بانفيل نثره الرثائي في فقرات طويلة وغنية بالمفردات والوصف، ويحوك منها نسيجاً متداخلاً من الذكريات الأقرب والأبعد. في مكان ما، يمكن لأي قارئ عدها حكايته، لكن ثمة مفاجآت في ذلك المألوف والعادي اللذين قال عنهما: «للمألوف دائمًا وجهٌ لا مألوف، وللعاديّ جانبٌ لا عادي».

يبدأ بانفيل أو ماكس موردن، الراوي، روايته باستحضار أول فقد شهده في حياته، يجلبه من مشهد راسخ في ذاكرته عن الولدين اللذين ابتلعهما البحر في ذلك اليوم الهائج، كلوي وميلز، وهما توآمان لعائلة التقى بأفرادها على الساحل، أثناء إقامته مع والديه في قرية ساحلية. كانت عائلة من آلهة، هكذا رآهم ماكس موردن، اكتشف بوساطتهم جانباً ثرياً ومثيراً للحياة، الحياة الغنية التي كانت بطبيعة الحال عصية على فتى فقير مثله.

كانت ثمة مراحل من الحب والشهوة والخطيئة والطموح بين دفتي (البحر) بالنسبة لماكس موردن الناقد الفني، الذي عاد ليحيي ذاكرته في منزل اصطياف كانت تشغله عائلة آل غريس قبل خمسين عامًا، وذلك بعد رحيل زوجته بمرض عضال، خسارته الأكبر التي تداعت عندها كل خساراته القديمة والموتى الذين ذكرهم في قصته، مما فرض على الرواية ذلك الجو العام الجنائزي، بين ماض يقول عنه إنه: «ينبض في داخله كقلب ثان»، وحاضر حافل بالذاكرة والذكريات.

في مشاهد كثيرة، رأيناه يعترف ويؤنب نفسه كأنه في قفص اتهام أو على كرسي اعتراف، بانفيل أو ماكس موردن، قضيته هنا، قضيةٌ تتعلق بالبشر كافة، قضية الخطيئة والغفران، والشعور باستحقاق العيش رغم خطايا المرء الكثيرة في هذا العالم المتغير. عالم يتيحُ للجميع كل صنوف إثبات الذات بوساطة الفن والكتابة والإبداع والعمل المجد والمثابرة.

لكن يحدث أن تخوننا تلك الطموحات في مكان ما مع هشاشة الفرح والفقد المتربص بنا وخشية أن ننسلخ عن بداياتنا البريئة نعود إليها، كما عاد ماكس موردن إلى سيدارز في القرية الساحلية باليليس لينعش تلك الذكريات.

تكشف روايات بانفيل عن اقتناعه العلني بالفنون البصرية، وبالمبدأ الجمالي للأدب بوصفه فنّاً، وهكذا يمكن النظر إلى روايات بانفيل بكونها استجواباً موسعاً لمعنى الفن ومكانته، وشكلاً جديداً متطوراً يواكب الفن بأشكاله الأخرى.

من الجدير بالذكر، فقد أنتج فيلم (البحر) في العام 2013 من إخراج ستيفن براون، المقتبس عن الرواية، بمشاركة من بانفيل في كتابة السيناريو. عُرِض الفيلم أول مرة للمنافسة في مهرجان إدنبرة السينمائي في 23 يونيو 2013.

المترجمة

الجزء الأول

رحلتِ الآلهةُ في النهار الذي ارتفع فيه المدُّ البحريُّ الغريب. طوال الصباح وتحت سماء غائمة، هاجت وماجت مياه الخليج لتبلغ ارتفاعاً غير مسبوق. وتسللت الموجات الصغيرة فوق الرمال العطشى التي لم يمسسها البلل لسنوات لولا المطر، حتى لامست السفوحَ القاعديةَ للكثبان الساحلية. لابدَّ أن هيكل السفينة الصدئ لسفينة الشحن قد أوحى لنا بعودة سفينة، كانت قد جنحت في الطرف البعيد من الخليج منذ زمن بعيد لا يتذكره أحد منا. لم أكن لأسبح مرة أخرى، بعد ما حدث في ذلك النهار. كانت الطيور البحرية تنعق وتنقض، مستاءة على ما يبدو من مشهد ذلك الوعاء المائي المنتفخ كفقاعة نفط رصاصية زرقاء متوهجة على نحو مزعج. في ذلك النهار، بدت تلك الطيور شاحبة على غير العادة. كانت الأمواجُ ترسّبُ هامشاً من الرغوة الصفراء المتسخة على طول خط التماس مع المياه. لم يكن هناك أشرعة ترفرف في الأفق البعيد. لم أكن لأسبح أبداً، ولا حتى لمرة واحدة بعد ذلك.

مشى أحدهم للتو فوق قبري. شخص ما قد فعلها.[1]

يدعى المنزل سيدارز (اسمه سيدرز) هنا يجب وضع هامش عن معنى الاسم منذ القدم. وهو كتلةٌ مقببةٌ من تلك الأشجار، لونها ضارب إلى الحمرة الداكنة مع رائحة قطران كريهة، وجذوعها مرعبة في تشابكها، لاتزال تنمو إلى الجهة اليسرى، قبالة مرج مهمل يمتد حتى النافذة الكبيرة المقوسة عندما كان في السابق غرفة المعيشة؛ لكن

1- عبارة يراد بها التعبير عن الشعور بقشعريرة مفاجئة.

الآنسة فافسور تفضّلُ أن تشير إليها، على طريقة السيدات صاحبات الأملاك، بالردهة. يفتحُ البابُ الأماميّ في الجهة المقابلة على ساحة من الحصى المتبقع بالزيت خلف البوابة الحديدية، التي ماتزال محتفظة بطلائها الأخضر، رغم الصدأ الذي أوهن دعائمها وحوّلها إلى هيكل مهتز. يدهشني أن القليل قد تغيّر على مدار الخمسين عاماً التي مرّتْ منذُ كنتُ هنا آخر مرة. أدهشني وخيّبَ ظنّي، وسأذهبُ إلى حدّ القول إنه صدمني، لتلك لأسباب الغامضة المتعلقة بي. ثم ما الذي يدفعني لأرى ما طرأ من تغيير، وأنا الذي عدتُ لأعيش على أنقاض الماضي؟ أتعجب لِمَ بُني المنزلُ على تلك الشاكلة، بواجهة على طريق جانبي، وتحويلِ جدارٍ طرفي لا نوافذ فيه من الجبس الأبيض الممزوج بالحصى ليطلّ على الطريق الرئيسي؛ ربّما في أوقاتٍ سابقة، قبلَ بناء سكة الحديد، كان الطريقُ يسلكُ اتجاهاً مختلفاً تماماً، ويمرُّ مباشرة أمام البوابة الرئيسة، كلُّ شيءٍ وارد.

لم تحددِ الآنسةُ فافسور التوقيت الذي بنيت فيه الأكواخ هنا، لكنها تعتقد أنّ أوّلَ كوخٍ بُنِيَ هنا كان في مطلع القرن الماضي، أعني القرنَ قبلَ الماضي، فأنا أتوه في تتبع ألفيات من السنين، ومن ثم أُضِيفَتْ تلك الأكواخُ عشوائياً مع مرور السنين. ذاك من شأنه أن يُفسّرَ المظهرَ غير المتناغم للمكان، حيث توجد غرفٍ صغيرةٍ تؤدي إلى غرفٍ أكبر، ونوافذ قبالة جدرانٍ فارغةٍ، وسقوفٍ واطئةٍ في كلّ مكان. أما الأرضيات المصنوعة من خشب الصنوبر فتصدرُ صريراً بحريّاً، كما يفعل الكرسيّ الدوارُ المغزلي الخاص بي. أتخيلُ بحاراً عجوزاً غافياً بجوار النار، استراحَ أخيراً، والعاصفة الشتوية تهز ألواح النوافذ. ليتني مكانه. ليتني كنتُ مكانه.

عندما كنتُ هنا في أثناء تلك السنوات، في زمن الآلهة، كان سيدارز منزلاً صيفياً مخصصاً للإيجار لمدد تتراوحُ بين أسبوعين إلى شهر. طوال

شهر يونيو من كل عام يسكنه طبيب ثريٌ مع عائلته الكبيرة الصاخبة- لم يرق لنا أولاده ذوي الأصوات المرتفعة، كانوا يسخرون منا ويرشقون الحجارة من وراء حاجز البوابة الذي لا يمكننا اجتيازه- وبعد مغادرتهم- أتى زوجان غامضان في منتصف العمر، واللذان لم يكلما أحد، وبتجهم كانا ينزهان كلبهما الألماني صامتين في التوقيت ذاته من كل صباح أسفل ستيشن رود (طريق المحطة) وحتّى الشاطئ. كان أغسطس بالنسبة لنا، أكثر الشهور متعة في سيدارز. كان نزلاؤه آنذاك مختلفين في كل عام، أناسٌ من إنجلترا أو محيطها، وأزواجٌ غريبو الأطوار من العرسان الجدد الذين كنا نحاول التجسس عليهم، وذات مرة قدمت فرقةُ مسرح جوال مع تجهيزاتهم، عرضاً مسائياً في السينما القروية المصنوعة من الصفيح المجلفن. ومن ثم في ذلك العام، جاءت عائلة غريس.

كان أوّل شيء رأيته عند قدومهم سيارتهم الخاصة، مركونة على الحصى داخل البوابة. كانت سوداءَ رياضية منخفضةَ السقف بندوب وآثارٍ لصدمات متكررة ومقاعد جلدية بلون البيج وعجلة قيادة خشبية لامعة كبيرة بقضبان قطرية. كتبٌ بأغلفةٍ باهتة وسماعات أذن للكلاب رميت بإهمال على الرف تحت نافذة الظهر الرياضي المائل، وكانت هناك خريطة سياحية لفرنسا، مهترئة لكثرة الاستخدام. كانت البوابة الأمامية للمنزل مفتوحة على مصراعيها، وكان بمقدوري سماع أصوات من الداخل، ومن الطابق السفلي، ومن الطابق العلوي صوت أقدام عارية تطارد على الأرضية وفتاة تضحك. توقفتُ قليلاً بجوار البوابة، للإنصات بحريّة، وفجأةً في ذات اللحظة خرج رجلٌ من المنزل وشرابٌ يحمله بيده. كان قصير القامة وضخم الرأس، كتفاه وصدره ورأسه الكبير المستدير، بلفائف قصيرة من الشعر الأسود اللامع مع بقع شيب مبكرة فيه ولحية مدببة سوداء يتخللها الشيب بالمثل.

كان يرتدي قميصاً أخضر فضفاضاً طليقَ الأزرار، وسروالاً قصيراً بلون الكاكي وكان عاري القدمين. كانت بشرته مدبوغة بعمق من الشمس التي منحتها لمعاناً أرجوانياً. حتى قدميه، كما لاحظت، كانتا مسفوعتين فوق المشطين؛ وفقاً لخبرتي كان لمعظم الآباء بطون بيضاء كبطن السمكة تحت خط الياقة. وضع قدح النبيذ الأزرق المثلج، ومكعبات الثلج وشريحة الليمون فوق زاوية ضيقة من سقف السيارة، وفتح باب الراكب ثم انحنى نحو الداخل للبحث عن شيء ما تحت لوحة القيادة. في الطابق العلوي غير المرئي من المنزل ضحكت الفتاة مرة أخرى وأطلقت صرخة وهمية جامحة من الذعر الزائف، ومرة أخرى عاد صوتُ الأقدام المهرولة. كانا يلعبان لعبة المطاردة، الفتاةُ والآخرُ الذي لا صوت له. استقام الرجل وتناول قدح النبيذ من السقف وأغلق باب السيارة بعنف. أيّما كان فقد كان يبحث عن شيء لم يعثر عليه. عندما استدار عائداً إلى البيت لمحتني عيناه وغمز لي. لم يفعل ذلك بالطريقة التي يفعلها الكبارُ عادة، بالانحناءِ والتملقِ في آن واحد. لا كانت هذه غمزة ودية ومتواطئة، ماسونيةً[2]، في معظم الأحيان، كأن هذه اللحظة التي جمعتنا كغريبين، الرجل البالغ والصبي، رغم لا أهميتها ظاهرياً، وخلوها من المحتوى أيضاً، لكنها كانت ذات معنى. كانت عيناه زرقاوين بشفافية لا مألوفة. عاد إلى الداخل بعد ذلك، وقد تمتم بشيء ما قبل أن يجتاز البوابة. «شيءٌ عجيب»، قال: «على ما يبدو...» ثم ذهب. انتظرتُ لحظةً، أتفحص نوافذ الطابق العلوي. لا وجوه ظاهرة هناك.

تلك إذاً، كانت أوّل مواجهةٍ لي مع آل غريس: حيث صوت الفتاة القادم من الأعلى، وهرولة الأقدام، والرجل هنا في الأسفل بعينيه الزرقاوين يبادرني بتلك الغمزة المرحة، والودية، والخبيثة بعض الشيء.

2- الماسونية جماعة سرية تنادي للخير في العلن، وتهدف لغير ذلك سراً.

للتو وجدتُ نفسي أفعله مرة أخرى (ما معنى أفعله: تقول أصفّر فوراً) ذلك الصفير الرفيع والحاد، بوساطة أسناني الأمامية الذي بدأتُ بفعلهِ أخيراً. صفيرٌ صفيرٌ صفيرٌ، ويستمر، كمثقابِ طبيب الأسنان. لقد اعتاد والدي على الصفير هكذا، أتراني سأصبح مثله؟ في الغرفة على جانب الممر يلهو الكولونيل بلوندن بجهاز الراديو. يستهويه الاستماعُ إلى البرامج الحوارية في مدة ما بعد الظهيرة، البرامج التي تستضيف أفراداً من عامة الشعب الساخطين كي يعبّروا عن احتجاجهم على السياسيين الأنذال وعلى أسعار المشروبات ومنغصات العيش الدائمة الأخرى. «إنهم شرذمة»، يقولُ باختصار، ويتنحنح مُتظاهراً بالحرج بعض الشيء، وعيناه الجاحظتان المتقدتان تتجنبان النظر نحوي، مع أني لم أصدر أي اعتراض على تعليقه. هل كان مستلقٍ على سريره وهو ينصتُ لبرنامجه المفضل؟ بالكاد أتخيله هناك بجوربيه الصوفيين الرماديين السميكين، يطقطق أصابع قدميه، وربطة عنقه مفكوكة وياقة قميصه مفتوحة، ويداه متشابكتان خلف رقبته الطاعنة في السن ومفتولة العضلات تلك. أمّا خارج غرفته فهو رجل ذو قامة شامخة، من حذائه البروغ[3] البني اللامع المرمم لمرات عديدة وحتى قمة جمجمته المخروطية. كان يقص شعره صباح كل سبت لدى حلاق القرية، قصيراً من الخلف والجوانب، دون بقايا، فقط قمةٌ من الشعر الرمادي الخشن والقاسي في أعلى رأسه. تبرز أذناه الطويلتان بتغضناتهما الجلدية، وتبدوان كأنه قد جُفِفتا وشويتا، لبياض عينيه أيضاً مسحةٌ صفراءُ قاتمة. أستطيع سماع صخب الأصوات على مذياعه لكن لا أستطيع استيضاح ما تقول. لعلي سأفقد صوابي هنا. صفير صفير.

3- أحذية البروغ: أحذية أنيقة بكعب منخفض مصنوعة من الجلد الأصلي، وفي معظم الأحيان تأتي بمظهر زخرفي.

لاحقاً بعد ذلك اليوم، اليوم الذي جاءت به عائلة غريس، أو اليوم الذي تلاه، أو الذي تلاه، رأيتُ السيارةَ السوداء مرة أخرى، ميزتها في الحال بينما كانت تصعدُ الجسر المحدب الصغير الممتد فوق خط السكة الحديدية. ذلك الجسر لا يزال هناك، خلف المحطة مباشرة. نعم، تصمد الأشياء، عندما يتهاوى الأحياء ويندثرون. كانت السيارة تمضي خارج القرية باتجاه البلدة، سأدعوها (باليمور)، تبعد مسافة عشرة أميال. البلدة (باليمور)، وهذه القرية (باليليس)، مثيرة للسخرية، ربما، لكن لا يعنيني. الرجلُ ذو اللحية الذي غمزني من قبل كان خلف عجلة القيادة، يتحدث بشيء ما ويضحك، ورأسه يميل للخلف. إلى جواره جلست امرأة بكوع ظاهر من النافذة المفتوحة ورأسها يميل للخلف أيضاً، وشعرها الأصفر يتطاير مع هبات الهواء القادمة من النافذة، لكنها لم تكن تضحك بل تبتسم فقط تلك الابتسامة التي كانت تجامله بها، بريبة ورحابة صدر واستمتاع هادئ. ارتدت قميصاً أبيض ونظارة شمسية بحواف بلاستيكية بيضاء، وكانت تدخن سيجارة تبغ. أين أنا؟ أتربص في مكان ما فرصة مواتية؟ لم أدرك أين كنت. كانوا قد اختفوا في لحظات، ومؤخرة السيارة المتبخترة تجتاز منعطفاً في الطريق مع تدفق لدخان العادم. ارتجفت أعشاب طويلة في المصرف، صهباء كشعر المرأة، ثم عادت لسكونها الحالم السابق.

سلكتُ ستيشن رود (طريق المحطة) (ماهو هذا الستيشن رود؟) في الخلاء المضاء من مدة ما بعد الظهيرة (ماذا تعني الجملة وبالتحديد «من» هنا؟ ربما القصد بسبب/ناتج عن!!!!). تألق الشاطئ الرملي عند سفح التل بهدوء تحت طيف الأزرق الداكن. عند شاطئ البحر كلُّ الأشياءِ لها أفقٍ ضيق، والعالمُ مختزل إلى بضعة خطوط مستقيمة طويلة متزاحمة بين الأرض والسماء. اقتربتُ من سيدارز بحذر. كيف

يتحولُ لطيفٍ، كلُّ شيء جديد أثار اهتمامي في الطفولة وتمتع بهالة من الغرابة، حيث ووفقاً لجميع النظريات فإن الغريب ليس شيئاً جديداً بل شيئاً مألوفاً عاد على نحوٍ مختلف؟ الكثير لا تفسير له، وهذا أبسطها. عندما اقتربتُ، سمعتُ صريراً متواتراً لجسم معدني صدئ. كان فتى في مثل عمري يتأرجح على البوابة الخضراء، ذراعاه تتدليان برخاوة أسفل الحافة العلوية، دافعاً جسده بقدم واحدة ذهاباً وإياباً في قوس ربع دائري فوق الحصى. شعره أصهب اللون خشن كشعر المرأة في السيارة والرجل ذو العينين اللازورديتين اللتين لا لبس فيهما. فيما تجاوزته متمهلاً، وربما كنت قد توقفتُ فعلاً، أو بالأحرى تعثرت، كان يدفعُ مقدمة حذائه البليمسول[4] داخل الحصى ليوقف البوابة المتأرجحة، وينظر نحوي بتعبير عن تقصٍّ عدائي. كانت تلك الطريقة التي تبادلنا بها النظرات، نحن الصبيين، في أول لقاء لنا. ومن خلفه، كان بمقدوري رؤية الطريق كله بمحاذاة الحديقة الضيقة عند مؤخرة المنزل وحتى الصف المائل من الأشجار المحاذية لسكة القطار- لقد اختفتِ الآن، تلك الأشجار، وقُطعت لإفساحِ المجال لصف من الأكواخ المطلية بألوان مختلفة كمنازل الدمى- وإلى الخلف، حتى العمق إلى حيث الحقول المزهرة وحظائر الأبقار، والحزم المشرقة الصغيرة الصفراء التي كانت شجيرات من نبات الجولق، والبرج المنعزل البعيد، ومن ثم السماء، بسحبها البيضاء العالية. فجأة، وبطريقة مفزعة، نظر الصبي نحوي بملامح غريبة، احوّل بعينيه ومدَّ لسانه ليتدلى فوق شفته السفلى. تابعتُ السير، متنبهاً لنظرته الساخرة تلاحقني.

بليمسول. في الوقت الحالي، من الكلمات التي لم يعد أحدٌ يسمعُ المزيد عنها، إلّا نادراً، أو نادراً جدّاً. هي أحذية بحّارة في الأصل، وقد

4- أحذية البليسمول أحذية قطنية خفيفة.

أتت من اسم شخص ما، كما أذكر، أو من شيء ما يتعلق بالسفن. خرج الكولونيل لدورة المياه مرة أخرى. أراهنُ بأنه يعاني من مشكلة في البروستات. متجاوزاً باب غرفتي خفّفَ من مشيته، متنقّلاً على رؤوس أصابعه، بدافع احترامه للرجل الثكل. شديد التمسك بمراعاة الآخرين، عزيزنا الكولونيل النبيل.

ها أنا أمشي على طريق ستيشن رود (طريق المحطة).

كانت كثير من تفاصيل الحياة هادئة آنذاك، عندما كنا صغاراً، أو كما تبدو الآن؛ بهدوء مُترقب؛ ومتيقظ. كنا نترقب في عالمنا البسيط، نتفحص المستقبل كما تفحص الصبيّ وأنا أحدنا الآخر، أشبه بجنود في ساحة المعركة، يستطلعون ما سيأتي. عند أسفل التل، توقفتُ عن السير ونظرت في الاتجاهات الثلاث، على طول ستراند رود (طريق الساحل)، وخلف طريق المحطة (ستيشن رود)، وفي الطريق الآخر، باتجاه السينما وملعب التنس العمومي. لا أحد هناك. كان الطريق خلف ملعب التنس يدعى «كليف ووك» ممشى الجروف، حيث إن الجروف التي ربما كانت يوماً في البحر قد تآكلت منذ زمن بعيد. قيل إن ثمة كنيسة مغمورة في القاع الرملي للبحر هناك سليمة الأجزاء، مع برج الجرس والجرس نفسه، والتي كانت يوماً ما تقف على الرأس البحري الذي طُمر أيضاً، أطاحت بها الأمواج العاتية في ليلة سحيقة من العواصف والفيضانات الرهيبة. كانت هذه واحدة من القصص التي رواها السكان المحليون، من أمثال دويجنان صانع الألبان والأصم كولفر الذي كان يكسب رزقه من بيع كرات الجولف المنتشلة، لدفعنا على الاعتقاد، نحن المارة، أن قريتهم الساحلية الصغيرة الوادعة، كانت في القديم، مترعاً للقصص المرعبة. اللافتةُ المنتصبة فوق مقهى ستراند، المعلنة عن سجائر، Navy Cut، مع صورة لبحار ملتح داخل إطار

إنقاذ، أو داخل طوق من حبل مرساة، أياً كان؟ أصدرت صريراً مع هبوب نسائم البحر فوق مفصلاتها الصدئة، وتردد صدى البوابة في سيدارز الذي أدركت بوساطته أن الصبي لما يزل يتأرجح بعد. كلاهما، هذه البوابة الحاضرة وتلك اللافتة من الماضي، حتى هذا اليوم، وهذه الليلة، يصدران صريراً في أحلامي. انطلقتُ على طول الساحل (ستراند رود). المنازل، والحوانيت، وفندقان- الجولف، والشاطئ- وكنيسة الجرانيت، وبقالية ميلر- مكتب البريد- الحانة، بعد ذلك كله يأتي المجمع السكني، فيلد، وهو تجمعٌ لأكواخ خشبية إحداها كان نُزُلَ الاصطياف الخاص بنا، أبي، وأمي، وأنا.

في حال كان الشخصان في السيارة هما والديّ الصبي فهل تركاه بمفرده في المنزل؟ ثم أين كانت الفتاة التي قهقهت عالياً؟

هو الماضي ينبضُ في داخلي كقلب ثان.

يدعى الطبيب الاختصاصي بالسيد تود. يمكن عد هذا مجرد مزحة قليلة الذوق في الجانب المتعلق بمصير في لغات مختلفة[5]. وقد يكون الأمر على نحو أسوأ. ها هو اسم (De'Ath)[6]، بذلك الحرف الكبير الفخم في الوسط والفاصلة العليا التي لا تخدع أحد. (تود) هذا خاطب (آنّا) بالسيدة موردن لكنه دعاني بـ(ماكس). لم أكن واثقاً على الإطلاق أنه قد راق لي ذلك، إضافة لتلك الحميمية الفظة في نبرته. عيادته، بل شقته، يقول أحدهم شقة، كما يدعوه آخر بالسيد وليس الطبيب، بدت من الوهلة الأولى منزلاً فوق مكان مرتفع، رغم وجودها في الطابق الثالث فحسب. كان المبنى حديثَ العهد، مُصممَاً بالكامل من الزجاج والفولاذ، حتى عمود المصعد الأنبوبي كان من الزجاج والفولاذ،

5- تعني كلمة Todd في الانجليزية الثعلب الماكر، بينما تعني في الألمانية الموت.

6- يعني هنا الاسم الحرفي DeAth الذي قد يكون اسماً لشخص ما.

مستوحى من شكل أسطوانة الحقنة الطبية، حيث ارتفع المصعدُ بوساطته وهبط بأزيز عالٍ كغطاس عملاق يُسحَب ويُضغَط بالتناوب- كانت الجداران في غرفة الفحص الرئيسة من ألواح الزجاج المسطح الممتد من الأرضية حتى السقف. عندما ظهرت صورتي وصورة آنا في عينيّ كانتا مغمورتين ببريق أشعة الشمس الخريفية الباكرة الساطعة بوساطة تلك الألواح الشاسعة. وضعت السكرتيرة وهي امرأة شقراء ترتدي ثوب ممرضة وحذاء يزقزق، في مناسبة كهذه من سيلاحظ وجود السكرتيرة؟ ملف آنا على مكتب السيد تود وبزقزقة عادت أدراجها. دعانا السيد تود للجلوس. لم أستسغ فكرة حشر نفسي في كرسي وذهبتُ عوضاً عن ذلك ووقفت عند الجدار الزجاجي، أنظر نحو الخارج. مباشرة أسفل مني كانت شجرة سنديان، أو لعلها كانت شجرة زان، لستُ متيقناً أبداً من أصناف تلك الأشجار الموسمية الكبيرة، بالتأكيد ليست الدردار؛ لأنها فقدت حيويتها بالكامل، لكن الشيء النبيل، على أيّة حال، الاخضرار الصيفي لظلالها الواسعة التي بالكاد شحبت رغم قدوم الخريف. توهجت سقوف السيارات. كانت امرأة شابة ترتدي ملابس داكنة تجتاز مسرعة موقف السيارات، حتى من تلك المسافة خُيّل لي أني قد سمعت صوت كعب حذائها العالي ينقر بقوة على طريق الإسفلت. انعكس شحوب آنّا على الزجاج أمامي، وهي جالسةً باستقامة شديدة، فوق الكرسي المعدني ثلاثي الأبعاد، كونها المريضة النموذجية، وهي تضع ركبة فوق الأخرى ويداها المضمومتان مستريحتان على فخذيها. جلس السيد تود جانبياً على مكتبه يتصفح الوثائق الموجودة في ملفها، جعلني الورق المقوى الوردي الباهت أفكر في الرجفة تلك في صباحات العودة إلى المدرسة بعد عطلة الصيف، والشعور بالكتب المدرسية الجديدة، ورائحة الحبر وأقلام الرصاص المبرية. يا إلهي، كيف يشرد الذهن، حتى في أكثر المناسبات خصوصية.

ابتعدت عن الجدار الزجاجي، فقد أصبح الخارج لا يطاق حينها. كان السيد تود قويَّ البنية، ليس طويل القامة أو ثقيل الوزن لكنه كان عريض المنكبين، يمنحُ المرء انطباعاً بامتلائه. كان ينتهجُ أسلوباً قديماً مطمئناً. ارتدى بدلة تويدية مع صدرية وساعة مع سلسلة، وحذاءً بروغ بني اللون، يوافق ذلك ذوق الكولونيل بلوندن. كان شعره دهنياً مُصففاً على طراز قديم، مشدوداً عن جبهته نحو الخلف، وكان لديه شارب قصير وخشن، الأمر الذي منحه سحنة رجل عنيد. أدركتُ بنظرة منصفة أنه رغم تلك العلامات الدالة على الوقار، لم يكن قد تجاوز الخمسين كثيراً. ثم منذ متى بدأ الأطباء بالظهور أصغر سناً مني؟ كان يكتبُ، ليهدر الوقت، لم ألُمه، كنتُ سأفعل ذات الشيء، لو كنتُ في مكانه. أخيراً وضع قلمه الحبر لكنه مازال متردداً في الكلام، مخلِّفاً انطباعاً صريحاً عن جهله متى وكيف يبدأ بالكلام. ثمة مناهج أكاديمية تُدرّس حول هذا التردد، المسرحي. مجدداً، تفهمتُ الأمر. يجب على الطبيب أن يكون ممثلاً جيداً كما هو طبيب جيد. تنحنحت آنا على كرسيها بضجر.

«حسناً، يا دكتور» قالتْ بصوت مرتفع بعض الشيء، تقلّدُ فيه نبرةً صارمة لإحدى نجمات السينما في الأربعينيات، «هل هو حكم بالموت، أو سأعيش؟».

ساد الصمتُ في الغرفةُ. وقد تلاشتْ خفةُ دمها، التي تدربتْ عليها مراراً. كان لدي رغبة في التقدم إلى الأمام وانتزاعها بذراعيّ، على طريقة رجال الإطفاء، وحَمْلِ جسدها من ذلك المكان. لكني لم أتحرك. نظر إليها السيد تود في حالة من ذعر متساهل، وحاجباه يحومان في منتصف جبهته:

«لن ندعك ترحلين في النهاية، سيدة موردن». قال مظهراً أسنانه الكبيرة الرمادية في ابتسامته العريضة: «أبداً، حقاً لن نفعل».

أعقب ذلك صمتٍ آخر. كانت يدا آنا في حجرها، نظرتْ إليهما بتجهم، كأنها لم تلحظهما من قبل. بدأت ركبتي اليمنى بالارتجاف هلعاً. انطلق السيد تود في خطابه القوي، والمنمق نتيجة لاستخدامه المتكرر له، عن العلاجات الواعدة والأدوية الجديدة ومجموعة من الأسلحة الكيماوية القوية الجاهزة تحت وصايته، ربما كان يتحدث عن جرعات سحرية وعن طب العلاج الكيميائي. واصلت آنا التحديق بيديها؛ فهي لم تكن منصتة. أخيراً توقف وجلس يحدق بها بنفس النظرة اليائسة الدقيقة السابقة، بأنفاس مسموعة، وقد تراجعت شفتاه في حالة من الازدراء وأسنانه تلك ظهرت من جديد.

«شكراً لك». قالتْ بأدب وبصوت بدا وكأنه آت من مكان بعيد. وأومأت لنفسها: «لا بأس» ومع هدوء مسيطر عليه، قالت: «شكرا لك».

عند ذلك، وكمن نال حريته، صفع السيد تود ركبتيه صفعةً سريعة براحتيه المنبسطتين وانتصب على قدميه وعلى نحو لائق استعجَلَنا نحو الباب. عندما خرجت آنا استدار نحوي وبادرني بابتسامة خشنة صريحة، ومصافحة جافة، بحزم، وبلا تردد، والتي كنتُ جازماً أنه يحتفظ بها من أجل الأزواج في لحظات كهذه.

ابتلع الممرُ المغطى بالسجاد خطواتنا.

و اندفع المصعد، منهك القوى، سريعاً.

خرجنا إلى الضوء كما لو كنا نخطو على كوكب جديد، كوكب لا يعيش عليه أحدٌ سوانا.

وصلنا المنزل، لكننا آثرنا البقاء في السيارة خارج المنزل لوقت طويل، دونما رغبة للخوض في ما هو معروف، دونما كلام يقوله الغريبان لأنفسهما ولبعضهما البعض، بتلك الهيئة التي أصبحنا عليها فجأة. نظرت آنا بعيداً إلى الخليج حيث كانت اليخوت تتعرج تحت أشعة الشمس المتلألئة.

كانت بطنها منتفخة، كتلة مستديرة صلبة ضاغطة تحت حزام تنورتها. قالت إن الناس سيعتقدون بأنها حامل «في هذا العمر»، وضحكنا، دون أن يلتفت أحدنا نحو الآخر. كانت قد عادت طيور النوارس التي عشعشت في مداخننا إلى البحر في ذلك الحين، أو ربما هاجرت، أو أنها فعلتْ شيئاً آخر. طوال النهار في ذلك الصيف الكئيب كانت تحوم فوق سطح المنزل، ساخرة من محاولاتنا للتظاهر أن الأمور تمضي على ما يرام، وأن العالم مستمر دونما خلل. لكنه كان هناك، جاثماً في حجرها، الانتفاخ الذي كان موتاً جنينياً كبيراً، يترعرع في داخلها ويتأهب لموعده.

أخيراً توجهنا إلى الداخل، حيث لا مكان آخر نذهب إليه. كان قد تدفقَ ضوءُ منتصف النهار الساطع من نافذة المطبخ مانحاً الأشياء كلها بريقاً حاداً مصقولاً، كما لو كنتُ أمسح الغرفة بعدسة آلة تصوير. كان ثمة انطباع عن شعور بالحرج المطبق السائد بين كل تلك الأدوات المنزلية- الآنية على الرفوف والقدور على الموقد ولوح تقطيع الخبز ذاك مع سكينه الخشنة- وهم يبعدون أنظارهم عن وجودنا المنكوب اللا مألوف في وسطهم. أدركتُ بتعاسة شديدة، أن هذا ما سيكون عليه الأمر من الآن فصاعداً، ففي أي مكان ستذهب إليه، ستسبقها قرقعة بلا صوت لناقوس الجذام. سيهتفون لها: «كم تبدين بخير! لم نرك بحال أفضل من قبل!» ثم ستصطنعُ السيدةُ النحيلةُ البائسةُ ذات العظام ابتسامة ذكية، متظاهرة بالشجاعة.

وقفتْ في الوسط بمعطفها ووشاحها، يداها على وركيها، تطوق نفسها كتعبير عن السخط. كانت لاتزال وسيمة آنذاك، بعظام وجنتها المرتفعة وبشرتها الشفافة الرقيقة. ما دمت قد أعجبت بالجزء العلوي من قامتها خاصة، وبالأنف الذي كان عبارة عن خط من العاج المنحوت المنطلق من حاجبيها.

قالت بصرامة حادة: «هل تدرك حقيقة الأمر؟» «إنه مؤسف، تلك هي حقيقة الأمر».

انحرفتُ بنظراتي جانباً على وجه السرعة كي لا يفضحني الخوف الظاهر في عينيّ؛ في حين كانت عينا المرء عينين لشخص آخر، وضيع ويائس وأرعن يسكن داخله. كنتُ أعي ما كانت تقصده. ما كان يفترضُ أن يوقعها ذلك الأمر ولا أن يوقع بنا معاً، فنحن لم نكن من ذلك النوع من البشر، فسوء الحظ والمرض والموت المفاجئ، تلك الأشياء تحدث مع الأشخاص الطيبين، المتواضعين، والأخيار منهم، وليس لآنا وليس لي. في منتصف الموكب الفخم الذي يمثل حياتنا معاً قفز شخص تافه مبتسم من الحشد المبتهج، ورسم محاكاة ساخرة عن انحناءة، سلّم فيها مليكتي البائسة مذكرةَ العزل.

وضعتْ آنّا إبريق الماء ليغلي ثم فتشت في جيب معطفها وأخرجت نظارتها لترتديها واضعة خيطها خلف رقبها. بدأتْ بالنحيب شاردةَ الذهن، ربما حدث ذلك بلا صوت. تحركتُ نحوها بتلقائية لأحتضنها لكنها تراجعت بسرعة.

«بحق السماء لا تقلق» صرخت: «أنا سأموت فحسب، في نهاية الأمر»

وصلَ الإبريقُ إلى درجة الغليان، وفصلَ عن العمل من تلقاء نفسه، في حين استقر الماء الغاضب في داخله عكراً. تعجبتُ، ولم تكن المرة الأولى من حالة الرضا القاسية والقسرية عن الذات في كل ما هو معتاد. لكنه لم يكن قسرياً ولا يعبر عن الرضا عن الذات، هي حالة لامبالاة فحسب، وإلا ماذا يمكن أن تكون خلاف ذلك؟ من الآن فصاعداً سأضطر إلى معالجة الأمور كما هو الحال عليها، وليس كما أتخيلها؛ لأن حالها هذا هو النسخة الجديدة من الواقع. تناولتُ إبريق الشاي والشاي، وجعلتهما يقرقعان، كانت يداي ترتعشان، لكنها قالت إنها لا

ترغب، لقد غيّرتْ رأيها، كان البراندي مع سيجارة هو ما طلبته، لكنها لم تدخن التبغ أبدًا، ونادرًا ما احتست شرابًا. رمقتني بنظرة ساخطة من طفلة شجاعة، كانت واقفة هناك بجوار الطاولة في معطفها. توقفْ سيل دموعها. نزعتْ نظارتها وأخفضتها لتتدلى بخطيها أسفل ذقنها ومسحت عينيها بظاهر يديها. وجدتْ زجاجة البراندي وبيدٍ مرتعشة سكبتْ القليلَ داخل القدح، لتصطك عنق الزجاجة بحافته كما الأسنان. لم يكن ثمة سجائر في المنزل، من أين يتوجب عليّ الحصول على السجائر؟. قالت إن لا مشكلة في ذلك، فهي لم تكن ترغب بالتدخين حقاً. اشتعل ضوء تشغيل الإبريق مجدداً، مع تدفق كثيف للبخار عند صنبوره، الأمر الذي أوحى لي بعض الشيء عن وجود مارد ومصباح هنا. إذاً، أيها المارد حققْ لي أمنيةً، أمنيةً واحدةً فقط.

قلتُ: «اخلعي معطفك على الأقل». لكن لماذا على الأقل؟ يا لها من معضلة، قضية الحوار البشري.

ناولتها كأس البراندي ووقفتْ ممسكة به لكنها لم تشربه. سطع ضوءٌ من النافذة خلفي فوق نظارتها التي تدلت عند عظم ترقوتها؛ لتعطي انعكاسًا مخيفًا آخر، صورة مصغرة قريبة أمام وتحت ذقنها وهي تقف بعينين مغتمتين. فجأة تراجعتْ وجلستْ بتثاقل، مدّتْ ذراعيها أمامها على طول الطاولة بالتفاتة غريبة تدلُّ على نحوٍ واضح على شعورها باليأس، كما لو كانت في حالة استعطاف لأحد ما يجلس أمامها في محاكمة. ضربت بالكأس الذي كان في يدها على طاولة الخشب ونثرت نصف محتوياته. تأملتُها بلا حولٍ ولا قوة. في لحظة دوار، خطرت في ذهني فكرة أنني لن أفكر أبداً في التحدث إليها مرة أخرى، حيث سنمضي على هذا النحو من العجز عن التعبير حتى النهاية. انحنيتُ وقبلتُ البقعة الشاحبة في قمة رأسها والتي كانت

بمساحة ستة بنسات من شعرها الأسود المتشابك. رفعتْ وجهها نحوي بعض الشيء مع نظرة ازدراء.

قائلةً: «إنك تفوح برائحة المشافي، ولابد أني كذلك».

أخذتُ الكأس من يدها ووضعته على شفتي ورشفت برشفة واحدة ما تبقى من البراندي ذي الطعم اللاذع. أدركتُ ماهية الشعور الذي حاصرني منذ خطوت ذلك الصباح داخل الوهج الزجاجي في غرفة معاينة السيد تود. كان الأمر مُربِكاً. وقد شعرتْ به آنّا جيداً، كنتُ واثقاً من ذلك. مربكٌ هو الشعور بالهلع الناتج عن جهلك بما يجب قوله، وأين عليك أن تبحث؟ وكيف تتصرف؟ وشيء آخر، أيضاً، لم يكن شعوراً بالغضب تماماً، إنما نوع من الشعور بالكدر والاستياء العميقين في المصاب الجلل الذي وجدنا أنفسنا في خضمه. كان كما لو أنّه سر ألحق بنا الكثير من القذارة والقرف، بالكاد استطعنا تحمل البقاء في شراكة سرية واحدة لم نستطع فك قيودها، فكلٌّ منا على اطلاع بالأمر الشنيع الذي عرفه الآخر وكنّا ملتزمين معاً بذلك الاطلاع المشترك الواسع والعميق. من اليوم فصاعداً كلُّ شيءٍ سيكون متصنعاً. فليس ثمة طريقة أخرى للتعايش مع الموت.

كانت آنا ماتزال جالسة بثبات هناك عند الطاولة، تغرب بوجهها عني وذراعاها ممتدان وباطنا يديها الجامدتين مقلوبتين نحو الأعلى كما لو أن شيئاً ما سيسقط فيهما.

قالتْ دونما التفات: «حسناً، ما العمل الآن؟».

ها هو الكولونيل ينسلُّ عائداً إلى غرفته. كان وقتاً طويلاً أمضاهُ في المرحاض. إنّ عسرَ التبوّلِ تفسيرٌ مناسبٌ لتلك الحالة. كانت غرفتي غرفةَ النومِ الوحيدةَ في المنزلِ المزودةَ بحمّامٍ داخليّ، والتي اختارتْها الآنسةُ فافسور مع القليل من التحفظ. أيضاً، كان لغرفتي إطلالةٍ

جميلة، كنتُ سأتمتعُ بتلك الإطلالةِ، لولا تلكَ الأكواخِ القديمة في المنطقةِ الواطئةِ من الحديقة. كانَ سريري رهيباً وفخماً ومُصمّمَاً ليكون مرتفعاً، بطرازٍ إيطاليّ يناسبُ رئيس قضاة البندقية أو جنوة، فيما نُحِتَتْ العارضةُ الرأسيةُ للسريرِ، وصُقِلتْ كما صُقِلَ كمان ستراديفاريوس[7]. لابدَّ لي من سؤالِ الآنسةِ فافسور عن بلد صنعه. كانت هذه الغرفةُ غرفةَ النومِ الرئيسةَ عندما كانت عائلة غريس هنا. حيث لم أصل، في تلك الأيام، لأبعدَ من الطابقِ السفليّ، إلاّ في أحلامي.

للتو لاحظتُ تاريخَ هذا اليوم، لقد مر عامٌ بالضبط منذُ زيارتِنا الأولى تلك، آنّا وأنا، حيث اضطررنا لدفع حساب السيد تود في شقته. يا لها من مصادفة، أو ربما ليست كذلك، فهل ثمة مصادفات في مملكة بلوتو[8]، وسط صحاري بلا دروب، تجولت فيها تائهاً، كأورفيوس[9] بلا قيثارة؟ مرّ اثنا عشرَ شهراً، كان ينبغي مني الاحتفاظ بيومياتي. ومذكراتي من عام الطاعون. مكتبة سُر مَن قرأ

كان الحلمُ من جرّني إلى هنا. كنتُ أسيرُ في أثنائه على طول الطريق الريفي، هذا كل شيء. كان شتاءً عند الأصيل، أو بالأحرى كان أنموذجاً غريباً عن ليلة متوهجة بأنوار خافتة، نموذجاً لليلٍ نراه فقط هناك في الأحلام، والثلج الهش يتهاطل. كنت أمضي في طريقي بكل عزم في مكان ما، متجهاً إلى المنزل، كما اتضح مع أني لم أكن على معرفة ماذا وأين قد يكون المنزل بالضبط. كانت أرضاً شاسعة على يميني، أرضاً منبسطة لا يميزها شيء، لا منازل ولا زرائب في الأفق، وعلى يساري كان خطٌّ عميق

7- أنطونيو ستراديفاريوس: 1644صانع آلات موسيقية إيطالي، متخصص في صناعة الآلات الوترية كالكمان والقيثارة.

8- بلوتو إله العالم السفلي في الأساطير اليونانية.

9- أورفيوس شاعر وموسيقي حسب الأساطير اليونانية، نزل إلى عالم بلوتو لاستعادة زوجته المفقودة.

من الأشجار الشاحبة على نحو يثير الحزن، تتاخم الطريق. لم تكن الأغصان قد تعرت رغم حلول الشتاء، وقد تدلت الأوراق السميكة، القاتمة نوعاً ما، كرقاقات مثقلة بالثلج الذي تحوّل إلى جليد ناعم وشفاف. شيءٌ ما قد ارتطم على الأرض، لعلها سيارة، لا، دراجة، بل دراجةٌ فتى، وكما كنتُ يوماً فتى، في ذلك العمر، كنتُ أيضاً فتى راشداً صعب المراس، وفي طريقي إلى المنزل، الذي لابد أن يكون منزلي، أو أي مكان آخر كان يوماً منزلي، سأتمكن من التعرف إليه مرة ثانية، عندما أصل إليه. استغرقتُ ساعاتٍ من السير للوصول لكني لم أشعر بها؛ لأنها كانت رحلة لامثيل لها، بأهميتها البالغة، التي يتعذر شرحها، الرحلة التي يجب أن أقوم بها وكنت عازماً على إتمامها. كنتُ هادئاً في قرارة نفسي، هادئاً تماماً، وأشعر بالكثير من الثقة بالنفس، أيضاً، رغم عدم معرفتي الحقة للمكان الذي أتجه إليه باستثناء أني كنت ذاهباً إلى المنزل. كنتُ وحيداً على الطريق. الثلج الذي هطل رويداً طوال اليوم لم يحمل أي أثرمن أي نوع، لا إطارات ولا أحذية ولا حوافر، حيث لم يعبرْ أحدٌ هذه الطريق ولا أحد سيعبر. كان شيئاً من إصابة في قدمي اليسرى، لابدّ وأني أصبتُ بها منذ مدة طويلة؛ لأنها لم تكن مؤلمة، رغم أني كلما خطوتُ خطوة كنتُ مضطراً لدفعها أمامي بصعوبة على شكل قوس نصف دائري، وهذا ما أعاقني، ليس على نحو خطير لكنه ملموسٌ كفاية. ثم شعرتُ بالشفقة على نفسي، أعني بالقول إنّ الحالم الذي كنته شعر بالشفقة على نفسه التي كانت في الحلم، هذا الشخص الأخرق المسكين يمضي قدمًا بلا تهيب في الثلج عند الغروب والطريق أمامه بلا أمل بالعودة إلى الديار.

كان هذا كل ما في الحلم. الرحلة لم تنته، ولم أصل لأي مكان، ولم يحدثْ شيء. فقط كنتُ أسير هناك، ثَكِلاً وقوي البنية، أسير بلا نهاية في الثلج والشفق الكئيب. غير أني نهضتُ في عتمة الفجر ليس كعادتي

هذه الأيام، مع إحساس بتسلخ طبقة أخرى من الجلد السطحي أثناء الليل، مع اقتناع أن شيء ما قد حدث، أو أنه على وشك الحدوث على الأقل. حالاً آنذاك، فجأة وللمرة الأولى التي لم أعرف، كم المدة التي استغرقت التفكير فيها؟ فكرتُ بـ(باليليس) وبالمنزل هناك عند طريق المحطة (ستيشن روود)، وبعائلة غريس، وبكلوي غريس، ليس بوسعي تخمين السبب، كان ذلك كما لو أني خطوتُ فجأةً خارج الظلمة نحو دفقة من ضوء الشمس الباهت المغسول برذاذ الملح. استمر ذلك النور البهيج دقيقة فقط، أو أقل من دقيقة، لكنه أخبرني بما عليّ فعله وإلى أي مكان يجب عليّ الذهاب.

أولَ مرة رأيتُ فيها كلوي غريس كانت عند الشاطئ. كان نهاراً ساطعاً تكدره الرياح، وكانت عائلة غريس قد استقرت في تجويف سطحي حفرته الريح وحركة المد والجزر في الكثبان الرملية، الذي أضاف له وجودهم الفخم بعض الشيء مقترح ليكون خشبة مسرح قديم. كانوا مجهّزين على نحو يثير الإعجاب، بمساحة باهتة من قماش مقلم عُلّقَ بين الأعمدة للاتقاء من هبوب النسيم، ومقاعد وطاولة صغيرة قابلة للطي، وسلة من القش بحجم حقيبة صغيرة تحتوي على زجاجات وقوارير فارغة وعلب من السندويشات والبسكويت، وأكواب الشاي، حتى مع صحونها. كان هذا الجزء من الشاطئ محجوزاً تلقائياً لنزلاء فندق ملعب الجولف، المساحة العشبية من الفسحة المنتهية خلف الكثبان الرملية مباشرة، وقد توجهت النظرات الساخطة نحو سكان الفيلا المتطفلين دون أي اكتراث منهم، احتلوا المكان مع أشيائهم الأنيقة الخاصة بالشاطئ وزجاجات النبيذ، لكن أسرة غريس تجاهلت تلك النظرات. السيد غريس، هو كارلو غريس الأب، كان يرتدي سروالاً قصيراً مجدداً، وسترة فضفاضة مخططة بأقلام عريضة فوق صدره الذي كان عاريًا باستثناء خصلتين كبيرتين من تجعيدات لشعر متشابك اتخذتا

شكلاً منمنماً لزوج من الأجنحة الممتدة بشكل واسع. لم يسبق لي أن التقيت منذ ذلك الحين بشخص كثيف الشعر على ذلك النحو المذهل. وعلى رأسه ارتدى قبعةً قماشيةً من الكتان تشبه دلو رمل مقلوب للأطفال. كان يجلس على إحدى المقاعد القابلة للطي، حاملاً جريدةً مفتوحة أمامه في الوقت الذي يحاول فيه تدخين سيجارة، رغم هبوب نسائم عاصفة قادمة من البحر. كان هناك صبي أشقر، يتأرجح على البوابة- يدعى ميلز، لعلي أيضاً خمّنتُ اسمه- كان جاثماً عند قدميّ والده، بمزاج متجهم وهو يغوص في الرمال بقطعة خشبية جرفتها الأمواج. على هيئة ما خلفهما، في ظلّ الكثيب الرملي، كانت فتاةٌ يافعة، تنحني فوق الرمال، محاطة بمنشفة حمراء كبيرة، تحاول بعصبية تحت الغطاء تحرير نفسها من شيء سيتحول ليصبح بدلة سباحة مبللة. كانت شاحبة وانفعالية على نحو ملحوظ، بوجه طويل ونحيل، وشعر أسود غزير. لاحظتُ أنها واصلت التحديق، باستياء، كما يبدو، نحو مؤخرة رأس كارلو غريس. ولاحظتُ أيضاً أن الصبي ميلز قد استمر باختلاس النظر، بأمنيةٍ تواقةٍ واضحة، شاركتهُ بها، أن تنزلقَ المنشفةُ التي تضعها الفتاة عليها. بالكاد كان ثمة احتمال أن تكون شقيقته، في تلك اللحظة.

صعدتِ السيدةُ غريس إلى الشاطئ. كانت قد أمضتْ وقتاً في البحر وهي ترتدي بدلةَ سباحةٍ سوداء، مشدودةً ولامعةً كجلدِ الفقمة، وفوقها تنورة ملتفة مصنوعة من قماش شفاف بعض الشيء، معقودةٍ عند الخصرِ بزرٍ واحدٍ تتطايرُ فتفتحُ عندَ كلّ خطوةٍ تخطوها لتكشفَ عن سيقانٍ عاريةٍ برونزيةِ اللونِ وسمينةٍ إلى حدٍّ ما لكنها متناسقة. توقفتْ قبالةَ زوجها ودفعتْ نظارتَها الشمسيةَ ذاتَ الإطارِ الأبيضِ داخلَ شعرها وانتظرتْ الوقت الذي سمحَ لها بالمرورِ، قبلَ أنْ يُخفِضَ الجريدةَ وينظرَ نحوها، رافعاً يدَه التي أمسك بها السيجارة وغطى بها عينيه اتقاءَ الضوء الحاد اللاذع. تمتمتْ بشيء ما فأمال برأسِه على

جانب واحد، باستهجان، وابتسم مُسْتَعرِضاً عديداً من الأسنان البيضاء المستوية الصغيرة. كانت خلفه، الفتاة التي مازالت تحتَ المنشفةِ، وقد خلعتْ بدلة السباحة التي حررت نفسها منها أخيراً، وأدارت ظهرها، تجلسُ على الرمل بساقين مثنيتين جاعلة من المنشفة خيمة تحيط بها، وتستند بجبهتِها على ركبتيها، وكان ميلز يدفع عصاه بقوة غير مجدية.

إذاً كانوا هؤلاء عائلة غريس: كارلو غريس وزوجته وابنهما ميلز والفتاة أو الشابة اليانعة التي كنتُ جازمًا أنها ليست الفتاة التي سمعت ضحكاتها في المنزل في اليوم الأول ذاك، كانت كل الأشياء من حولهم تعكس هويتهم، مقاعدهم القابلة للطي وكؤوس الشاي وأقداح من النبيذ الأبيض، وتنورة كوني جريس الملتفة وقبعة زوجها المضحكة والجريدة وعلبة السجائر، وعصا ميلز وملابس سباحة الفتاة مرمية حيث خلعتها وثبتتها لتنساب ملتصقة من إحدى حوافها المبللة بهامش من رمال الشاطئ، أشبه بشيء ما لفظه البحر بعد غرقه.

لا أعرف إلى متى استمرت كلوي بالوقوف على الكثيب قبل أن تقفز. لعلها كانت هناك طوال ذلك الوقت، تراقبني بينما أراقبُ الآخرين. في البداية كانت طيفاً، والشمسُ خلفها تصنعُ خوذةً لامعةً من شعرها القصير. بعد ذلك رفعتْ ذراعيها وثنت ركبتيها في آن واحد ملقيةً بنفسها عن الكثيب الرملي. لقد صنع الهواء من ساقي سروالها القصير بالونين على نحو عابر. كانت عارية القدمين وقد هبطت على كعبيها، لتنثر رذاذاً من الرمال. الفتاة تحت المنشفة المدعوة روز، والتي منحتُها أيضاً، اسم روزي المسكينة، صاحتْ خائفة. تمايلت كلوي، وذراعاه ما يزالان مرفوعان وكاحلاها في التراب، وبدا أنها ستقع أو تربض على الأرض على نحو عنيف على الأقل، لكن عوضاً عن ذلك حافظت على توازنها وابتسمت ابتسامة ملتوية حاقدة نحو روز التي دخل الرمل عينيها وكانت تصنعُ وجه سمكة وتنفضُ رأسها وترمش بعينيها.

«ما هذا يا كلوي!» قالت السيدة غريس بنبرة توبيخ، لكن كلوي تجاهلتها ومضت قدماً حتى ركعت في الرمال إلى جوار أخيها وحاولت انتزاع العصا منه. كنتُ مستلقياً على بطني على منشفة وخداي يستندان على يدي متظاهراً بقراءة كتاب.

أدركتْ كلوي بأنني كنتُ أنظرُ نحوها وتظاهرتْ باللامبالاة. في أي عمر كنّا، في العاشرة أو الحادية عشرة؟ لنقل في الحادية عشرة، ذلك معقول. كان صدرها مستو كما صدر ميلز، ووركها لم يكن أعرض من وركي، كانت ترتدي قميصها الداخلي الأبيض فوق سروالها القصير. وقد شحب لون شعرها المؤكسد. كان ميلز يعاركها للاحتفاظ بعصاه، التي حررها من قبضتها أخيراً وسدد بها ضربةً على مفاصل أصابعها فصاحت من الألم ولكمتْهُ بدورها على صدره بقبضة صغيرة عنيفة.

«استمعوا إلى هذا الإعلان». قالَ والدُها ليسَ لأحدٍ بعينِه، وقرأَ من الجريدة بصوت عالٍ وهو يضحك:

«مطلوب عمال نشيطين للعمل كمندوبي مبيعات ستائر فينيسية. على أن يكونوا سائقي سيارات. لتقديم الطلب املأ الخانة *23*».

ضحكَ الرجلُ مجدداً، وسعل، ثم ضحك وهو يسعل. «عمال نشيطون!» صاح: «أوه، يا إلهي».

كم كانتِ الأصواتُ متناغمةً بالقرب من شاطئ البحر، متناغمة وواضحة، كصوتِ طلقٍ ناري مسموع من بعيد. لابد أنه تأثير الرمال الكثيرة المخمدة للصوت. مع هذا ليس بوسعي التذكر متى صدف أن سمعتُ صوت بندقية أو صوت إطلاق أسلحة نارية.

سكبتِ السيدةُ غريس النبيذَ لنفسها، تذوقتْهُ وغمغمت ثم جلست على مقعد قابل للطي ووضعت ساقاً على ساق، وحذاء الشاطئ يتأرجح في قدميها. كانت روز ترتدي ثيابها بارتباك تحت منشفتها. حالاً

جاء دور كلوي لرفع ركبتيها إلى صدرها- هل هذا شيء تفعله، أو اعتادت على فعله كلُّ الفتيات، بأقل تقدير، بجلوسهن هكذا بشكل حرف زد (Z) مقلوب على حافته الأمامية؟- وأمسكت قدميها بقبضتي يديها. طعنها ميلز في خاصرتها بالعصا. قالت بسخط بارد: «أبي، أخبره أن يتوقف». لكن والدها واصل القراءة. كان حذاء كوني غريس المتدلي يتأرجح بالتزامن مع شيء ما يدور في رأسها. فاحت الرمال حولي وأشعة الشمس القوية فوقها برائحتها الشاذة الغامضة. بعيداً في الخليج اهتز شراعٌ أبيض وانقلب مع هبوب الريح وفي لحظة تغيرت كل الأمور.

كان أحدهم بمحاذاة الشاطئ يتحدث مع شخص آخر. وكان هناك أطفالٌ، وسباحون، وكلبُ زنجبيل ذو شعر أصهب خشن. استقام الشراعُ مرة أخرى باتجاه الريح وسمعت بوضوح عبر المياه انتفاضة وفرقعة قماشه. بعد ذلك هبت النسائم وللحظات من الزمن غرقت الأشياءُ كلها في السكون.

كانوا يلعبون لعبة، كلوي وميلز والسيدة غريس، الطفلان يرميان الكرة فيما بينهما فوق رأس أمهما وهي تجري وتقفز لتحاول التقاطها، وفي معظم الأحيان بلا جدوى. تركضُ فتنتفخ تنورتها خلفها وأنا لم يكن بوسعي تحويل ناظري بعيداً عن الانتفاخ الأسود المحشور والمقلوب عند قمة حجرها. كانت تقفز وتستنشق الهواء وتطلق صرخات لاهثة وتضحك. وكان نهداها يقفزان. مشهدها ينذر بالخطر. امرأةٌ لتحمل العديد من تكتلات وتجاويف لحمية ينبغي ألا تقفز هكذا، فهي سوف تؤذي شيئا ما في داخلها، شيئاً من التناسق اللطيف لدهون جسدها وغضاريفها اللؤلؤية. لقد أخفض زوجها جريدته وهو يراقبها أيضاً، حاشراً أصابعه باللحية تحت ذقنه، وابتسم بكل برود، لتنفرج شفتاه بعض الشيء عن تلك الأسنان الدقيقة الصغيرة، وتوردُ رأس أنفه كأنه

ذئب، يحاول التقاط رائحتها. كانت نظرته إليها، نظرة إثارة، وتسلية، وقليل من الازدراء، يبدو أنه يتمنى رؤيتها تقع في الرمال وتؤذي نفسها، أتخيل نفسي وأنا أنهالُ ضرباً ولكماً في منتصف صدره الكثيف بالشعر، تماماً كما لكمت كلوي شقيقها. لقد أصبحتُ على دراية بهؤلاء الناس، كأنني فرد منهم. وقد وقعت بالحب، حب السيدة غريس.

تخرج روز من المنشفة، بقميص أحمر وسروال أسود، أشبه بمساعدة ساحر يظهر من تحت عباءة الساحر المبطنة باللون القرمزي، وتشغل نفسها بعدم النظر إلى أي شيء، ولاسيما المرأة وولديها في اللعبة.

فجأة تفقد كلوي اهتمامها باللعب وتتحول جانباً وتتخبط بالرمال. على نحو جيد، سنعلمكم بتقلباتها المزاجية هذه وبحالات النكد المفاجئة تلك. نادتها أمها للعودة واللعب ولكنها لم تستجب. كانت مستلقية على كوعها بشكل جانبي وكاحلاها فوق بعضهما البعض، تنظر خلفي بعيون ضيقة باتجاه البحر. كان ميلز يرقص رقصة الشمبانزي أمامها، يرفرف بيديه تحت كتفيه ويبربر. تظاهرتْ بالقدرة على النظر رغما عنها.

«مزعجة» قالت الأم بتبرم واضح عن ابنتها التي أفسدت تمتعهم، ثم عادت لتجلس على كرسيها. كانت تلهث، وينتفخ منحدر صدرها الناعم ترابي اللون. رفعت يدها عالياً لتمشط خصلة من الشعر اللاصق بجبينها الرطب، فيما أمعنتُ النظر بالمسحة الداكنة السرية تحت إبطها، من الأزرق الأرجواني الذي اصطبغت به تخيلاتي اللزجة في الليالي القادمة.

كلوي متجهمة. ميلز يعود للحفر بعنف في الرمال بوساطة عصاه. والدهما يطوى جريدته ويحدق في السماء. روز تتفحص زراً مرتخياً على قميصها. الأمواج الصغيرة ترتفع وتتناثر، وكلب الزنجبيل ينبح. وحياتي تتغير إلى الأبد.

لكن بعد ذلك في أي لحظة بين لحظاتنا كلها، لم تتغير الحياة تماماً حتى التغيير الأخير والأكثر أهمية على الإطلاق؟

قضينا العطلة هنا كلَّ صيف، أبي وأمي وأنا. لم نكن لنطرح الأمر على ذلك النحو.

جئنا إلى هنا لقضاء إجازتنا، ذاك ما كنا نقوله. كم هو صعب التحدث عنه الآن كما تحدثنا عنه حينها. لقد جئنا إلى هنا لقضاء عطلتنا كل صيف ولسنوات عديدة، حتى هرب والدي إلى إنجلترا، كما فعل الآباء أحياناً في تلك الأيام، ومازالوا يفعلونه، في ذلك الشأن. كان الكوخ الخشبي الذي استأجرناه، بمساحة أصغر قليلاً من المساحة المثالية للكوخ الخشبي النموذجي. فيه ثلاث غرف، غرفة المعيشة التي في المقدمة وكانت أيضاً غرفة مطبخ مع غرفتي نوم صغيرتين في الخلف. لم تكن هناك سقوف فقط جوانب منحدرة لسقف من الورق المقطرن. كانت الجدران مكسوة دونما قصد، بألواح أنيقة وضيقة ومصقولة، والتي فاحت منها رائحة الطلاء وعصارة الصنوبر في الأيام المشمسة. كانت والدتي تطهو على موقد البارافين، وهي حفرة الوقود الصغيرة التي منحتني متعة خفية غامضة كلما دعيت لتنظيفها، مستخدماً من أجل المهمة الدقيقة أداة مصنوعة من شريط من القصدير الطيع مع سلك بارز بشعيرة قاسية مثبتة بزاوية قائمة من طرفه. أتساءل أين هو الآن، موقد بريموس الصغير ذاك القوي والفعال جدًا؟ لم يكن الكوخ مزودًا بالكهرباء وفي الليل كنا نقضي على ضوء مصباح زيتي. كان والدي يعمل في (باليمور) وفي كل مساءٍ يعود في القطار، بغضبٍ صامتٍ، حاملاً إحباطات يومه كالكثير من الأمتعة التي يحملها بقبضتيه المشدودتين. ماذا فعلت أمي في ذلك الوقت، عندما رحل ولم أكن هناك؟ أتخيلُها جالسةً على طاولةٍ مغطاةٍ بمفرش قماشِ زيتي في ذلك المنزل الخشبي

الصغير، يدها تحت رأسها تهدهد استيائها بينما يتلاشى نهارها الطويل. كانت ماتزال شابة في ذلك الوقت، كلاهما أبي وأمي، كانا أكثر شباباً عما أنا عليه الآن بكل تأكيد. يا لغرابةِ ما أفكر به. يبدو أن الجميعَ أكثرُ شباباً مني، حتى الموتى. أتخيلهما هناك، والديّ البائسين، في المنزل وبعداوة مضمرة، يعبثان بطفولة الكائنات. كانت تعاستهما واحدة من ثوابت حياتي المبكرة، شِجارٌ عالٍ ومستمر يخترق الأسماع فحسب.

لم أبغضهما كنت مولعاً بهما على الأرجح. هما الوحيدان اللذان كانا في طريقي، يحجبان رؤيتي للمستقبل. في وقت ما سأكون قادرًا على رؤية الحقيقة من خلالهما، والدي البسيطين.

كانت والدتي تستحم بمفردها بعيداً عن الشاطئ، وبعيداً عن عيون ساكني الفندق وضجيج مخيمات المصطافين يومياً. قبل أن أبدأ بالتدريب على لعبة الجولف، كان ثمة رصيف رملي صلب يبعد قليلاً عن الشاطئ حيث ينطوي على بحيرة ضحلة من مخلفات المد. في تلك المياه ثخينة القوام، لم تكن أمي تجيد السباحة، بل كانت تمد جسدها بالكامل على سطح الماء وتمشي بيديها فوق قاع البحر، جاهدة لإبقاء فمها أعلى من المويجات المتلاطمة. كانت ترتدي بدلة سباحة من قماش الكريم، لونها جرذوني مائل للوردي، مع قطعة صغيرة من القماش باحتشام امتدت حتى المساحة الضيقة بين ساقيها. بدا وجهها واضحاً ومسالماً وشاحباً في الطوق المطاطي المحكم لسترة السباحة. كان والدي سبّاحاً نوعاً ما، ينطلق بنوع من الاندفاع الأفقي المتعثر بضربات ميكانيكية وفم يلهث على نحو جانبي وعين واحدة جاحظة. وفي نهاية المسافة كان ينهض، يلهث ويبصق، وينساب شعره نحو الأسفل وتبرز أذناه وينتفخ سروال سباحته الأسود، ثم يقف ويداه على وركيه يراقب الجهود الخرقاء لوالدتي بابتسامة ساخرة خفية وعضلة فكه ترتعش. يرش الماء على

وجهها ثم يخوض في الماء ليطوق معصميها ويسحبها إلى الوراء. كانت تغلق عينيها بإحكام وتصرخ عليه بغضب ليتوقف. كنت أراقب هذا المزاح العصبي في قمة الاشمئزاز. في النهاية كان يتركها تذهب ويلتفت نحوي، يقلبني ويمسكني من كاحلي ويدفعني إلى الأمام على غرار العربة اليدوية خارج حافة الرصيف الرملي، ويضحك. كم كانت يداه قويتين، كأغلال من الحديد البارد المرن، حتى أني ما زلت أشعر بقبضته الشرسة. كان رجلاً عنيفاً في تصرفاته ومزاحه، لكنه كان جباناً، أيضاً، فلا عجب أنه تركنا، أو اضطر لتركنا. كنت أبتلع الماء وأتخلص من قبضته في ذعر وأقفز على قدمي لأقف وسط الأمواج، محاولاً التقيؤ.

كانت كلوي غريس وشقيقها يقفان على الرمال الصلبة بمحاذاة الماء، يراقبان.

كانا يرتديان سروالين قصيرين كالمعتاد وكانا حافيي القدمين. رأيتُ كم كانا متشابهين إلى حد لافت للنظر. كانا قد جمعا الأصداف البحرية، حيث حملتها كلوي في منديل عقدته من طرفيه ليصبح جِراباً. وقفا قريباً منا دونما انفعال، كما لوكنا في عرضٍ مسرحي وقد أُسنِدَ لهما دورٌ كوميدي فيه، دورٌ لم يحقق المتعة لهما، ولم يكن مسلياً، غير أنه دورٌ متكلّفٌ فحسب.

توردتُ خجلاً بكل تأكيد، وكنت كالحاً ومقشعراً مع ذلك، ومتنبهاً للدفق الرفيع للمياه وهي تصب على هيئة قوس خارج المقدمة المنتفخة لسروال سباحتي. لو كان بمقدوري لمسحتُ والديّ المخزيين من المكان، ولفجرتهما كما تتفجر الفقاعات في رذاذ البحر، والدتي القصيرة السمينة بوجهها البارز ووالدي الذي لربما اكتنز جسده بشحم الخنزير. هب النسيم قوياً بمحاذاة الشاطئ واندفع ليقطعه في اتجاه مائل تحت قشرة من الرمال الجافة، ثم عاد فوق الماء، ليبعثر سطحه

إلى رذاذ رشيق ورنان. ارتجفت، ليس من الشعور بالبرد لكن كما لو أن شيئاً ما قد اخترقني، شيئاً صامتاً ومباغتاً، لا يمكن مقاومته. استدار التوأمان على الشاطئ وذهبا باتجاه سفينة الشحن المحطمة. تراني في ذلك اليوم لاحظت أن أصابع قدم ميلز وتراء؟

في الطابق السفلي تعزف الآنسة فافسور على البيانو بلمسات ناعمة على مفاتيحه، في محاولة ألا يكون مسموعاً. يقلقها أن ذلك سوف يزعجني، بينما أنا منغمس في مهمة ضخمة لحد يصعب تخيله. إنها تعزف لشوبان[10] عزفاً رائعاً. أتمنى ألا تبدأ العزف لجون فيلد[11]، فليس بوسعي تحمل ذلك. في الأيام الأولى حاولتُ لفت انتباهها لفوريه[12]، ولاسيما معزوفاته الأخيرة، التي تعجبني كثيراً. لدرجة أني اشتريتُ النوتاتِ من أجلها، وطلبتُ إحضارهم من لندن، بتكلفة كبيرة. كنت متحمساً للغاية. لكنها تقول إنها لا تستطيع الإلمام بالنوتات الموسيقية. وتبدو طريقتك في التفكير لا تناسبني. أتعجب أنها لم تتزوج قط. فقد كانت جميلة، ذات يوم، بأسلوبها المفعم بالعاطفة. في هذه الأيام تصفف شعرها الرمادي الطويل، والذي كان فيما سبق شديد السواد، وقد جمعته في حلقة ضيقة خلف رأسها وثبتته بدبوسين متصالبين بحجم إبر الحياكة، بأسلوبها ذاك الذي أعاد لذهني، بعض الشيء، عازفات الجيشا اليابانيات[13]. تواصل العازفة اليابانية في عباءة من الحرير تشبه الكيمونو الذي ترتديه في الصباح، من الحرير المطبوع بزخارف لطيور بألوان زاهية وبأوراق البامبو. في أوقات أخرى من

10- فيريدريك فرانسوا شوبان مؤلف وملحن موسيقي عاش بين (1810- 1849)

11- جون فيلد مؤلف موسيقس إيرلندي وعازف بيانو عاش بين (1782- 1837)

12- غابرييل يوربان فوريه: ملحن فرنسي وعازف أرغن وبيانو (1845- 1924)

13- فتيات الجيشا مضيفات يابانيات بدأ ظهورهن في عصر الايدو، حيث بدأت الفتيات العاملات في محلات الشاي بتأدية عروض رقص وعزف.

اليوم كانت تفضلُ ارتداء قماش توید العملي، لكن عند الغداء قد تفاجئنا، الكولونيل وأنا، بقدومها إلى الطاولة بصمت، بفستان أنيق يصل لمنتصف الساق بلون الليمون الأخضر مع وشاح، أو بسترة بوليرو قرمزية على الطراز الإسباني، وسروال أسود مدبب ونعال أنيقة سوداء اللون صغيرة ولامعة. إنها حقًا سيدة ذات ذوق رفيع وأنيقة، وتسجل ببراعة نظرات إعجابي صامتة تجاهها.

بالكاد احتفظ سيدارز بشيء من الماضي، ومن الحقبة التي عشتها هنا. كنت قد تمنيت العثور على شيء خاص بعائلة غريس، حتى لوكان صغيراً أو تافهاً، مثل صورة مهملة منسية في درج، أو خصلة شعر، أو حتى دبوس شعر سقط واستقر بين ألواح الأرضية الخشبية، لكن لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. وليس هناك أجواء تستدعي أيضاً، للتحدث عنهم. أعتقد أن قدوم الكثير من النزلاء الأحياء ممن تعاقبوا عليه، كونه منزلٌ للضيافة- قد محا كل آثار الموتى.

كم تهب الرياح بقوة هذا اليوم، مرتطمة بقبضاتها الكبيرة المتراخية غير المجدية فوق زجاج النوافذ. هذا مجرد أنموذج عن أجواء الخريف الهائج والصافي، الذي ما دمت أحببته. أرى أن الخريف مملوء بالحماس، كما يفترض أن يكون الربيع بالنسبة لآخرين. الخريف هو وقت للعمل، فأنا متفق بذلك مع بوشكين[14]. نعم، بالمناسبة، ألكسندر وأنا، أوكتوبرست[15]. لقد أصابتني حالة من التراخي العام، على أية حال، معظم الذين لا يتفقون مع بوشكين وأنا، لا نستطيع العمل. لكني ألتزم بطاولتي، أنثر الأوراق حولي كمن يرمي النرد في لعبة لم أعد أعرف كيف ألعبها. الطاولةُ هي شيء صغير هش الهيكل مع رف لا

14- ألكسندر بوشكين شاعر روسي وكاتب مسرحي وروائي (1799- 1837)
15- أوكتوبرست ليبرالي محافظ.

يمكن اعتماده، حملتْها الآنسةُ فافسور إلى هنا بنفسها وقدمتها لي بخجل واضح متعمد. فلتزقزق، أيها الشيء الخشبي الصغير، فلتزقزق. وهناك كرسي الدوار المغزلي الخاص بي، يشبه الكرسي الذي اعتدت الاستحواذ عليه في بعض الأماكن المستأجرة التي كنت أسكن فيها أنا وآنا في سنوات عديدة، إنه يئن أيضاً بنفس الطريقة عندما أميل به إلى الوراء. العمل الذي يفترض أن أنغمس فيه وأنجزه كان دراسةً عن بونارد[16]، وهو مشروع بسيط استغرقت فيه مزيداً من السنوات أكثر مما يعنيني عدها. هو رسامٌ عظيمٌ جداً، بتقديري، استنتجتُ منذ وقت طويل أني لا أملك شيئاً من البراعة للتحدث عنه. اعتادت آنّا على مناداته بـ(عرائس في المغطس)[17] مع لكنة (بونارد، بونارت، بونارجو). لا،لا يمكنني العمل على الإطلاق، فقط أكتبُ خربشة كهذه.

على كل حال، العمل ليس هو التعبير الذي سأطلقه على ما أقوم به. العمل مفهوم واسع جداً، وجدي للغاية. الكادحون يعملون. العظماء يعملون. أما بالنسبة لنا، نحن الرجال من البيئات المتوسطة، فليس هناك تعبير بسيط كفاية ويفي بالغرض أيضاً، لوصف ما نقوم به وكيف نقوم به. كما لا أوافق أن يقال عنه هواية. فأولئك الذين يمارسون الهواية يفتقرون للحرفية، بينما نحن، الطبقة أو الصنف الذي أتحدث عنه، لا نعني شيئاً، إذا لم نكن احترافيين. كان صناع اللوحات الجدارية أمثال (فولارد)[18] و(موريس دينيس)[19] مثابرين في كل شيء،

16- بيير بونارد فنان ورسام فرنسي (1867-1947).

17- عرائس في المغطس مستوحى من عنوان لوحة بونارد «عارية في المغطس» والتي رسم فيها زوجته مارثا دي ميليني، والذي كان الحمام ملاذاً لها ؛لأنها لم تكن محبوبة بين الأصدقاء.

18- إدوارد فولارد فنان فرنسي وصانع طباعة (1891- 1900).

19- موريس دينيس رسام وكاتب فرنسي ومصمم غرافيك.

كمثابرة صديقهما بونارد- (المثابرة) هذا تعبير آخر، لكنه لا يكفي، لا يكفي أبداً. لسنا مراوغين، ولسنا كسالى. في الحقيقة، نحن مفعمون بالنشاط والقوة، ونعمل بجدٍ وشغف لكننا أحرار، أحرار حتى الموت مما قد يسمى لعنة الأبدية. نحن ننهي الأشياء، أما بالنسبة للعمال المجدين، كالشاعر فاليري[20]، فأنا أعتقد أنه، وعلى نحو جلي، ليس ثمة نهاية لعمل ما بالنسبة له، سوى بالتخلي عنه. هناك مقالة صغيرة لطيفة عن بونارد في متحف لوكسمبورج مع صديق له، إنّه فولارد، كما أعتقد، وإذا لم أكن مخطئاً، هو الذي أجلسه بونارد لإلهاء حارس المتحف بينما كان يُخرج صندوق ألوانه ويعيد ترميم رقعة من لوحة خاصة به كانت معلقة هناك لسنوات من الزمن. يموت العمال المجدون الحقيقيون جميعهم قلقاً من الفشل. فدائماً هناك الكثير لتنجزه، والكثير لتتركه بلا إنجاز!

يا للألم. ها هو ذلك الشعور بالوخز مجدداً. لا يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كان ذلك ينذر بشيء خطير. المؤشرات الأولى المتعلقة بآنّا كانت دقيقة. لقد أصبحتُ إلى حد بعيد خبيراً في المسائل الطبية في العام السابق ذاك، وهذا لا يثير الاستغراب. على سبيل المثال، أعرف أن ذلك الشعور بالوخز في الأطراف هو أحد المؤشرات المبكرة عن التصلب اللويحي. شعوري هذا كالشعور بوخز الدبابيس والإبر ولا شيء أكثر. إنه شعور بوخز حارق، أو سلسلة من الوخزات في ذراعي، أو في مؤخرة عنقي، أو كما في تلك المرة، التي لا تنسى، عندما شعرت به على الجانب العلوي من مفصل الإصبع الكبير في قدمي اليمنى، مما دفعني للقفز على ساق واحدة حول الغرفة بنوبة من التأوه المثير للشفقة بسبب المعاناة. في معظم الأحيان يكون الألم، أو الوخز، رغم مدته القصيرة،

20- امبروز بول فاليري شاعر فرنسي وكاتب مقالات وفيلسوف (1871 1945).

حاداً. كان كما لو كنت أخضع لاختبار من أجل التقصي عن المؤشرات الحيوية، والمؤشرات الحسية، ومؤشرات عن وجود حياة.

اعتادت آنا على الاستهزاء مني بسبب أساليبي الوسواسية. تناديني دكتور ماكس.

كيف حال الدكتور ماكس اليوم، هل يشعر بالتوعك؟ كانت محقة، في حين كنتُ متذمراً، مهتاجاً من أدنى وخز أو ألم.

ها هو عصفور الحناء ذاك، يحط قادماً من مكان ما، بعد ظهيرة كل يوم، ليجلس على نبات الهولي بجانب خيمة الحديقة. ألاحظ أنه يفضل فعل ثلاثة الأشياء بصورة متكررة، فهو يقفز من قمة غُصين إلى أسفل، ثم يعود إلى الأسفل مرة أخرى، حيث يقف ويغردُّ ثلاث تغريدات حادة ومقززة. لكل مخلوق عاداتٌ خاصةٌ بها. حينها، ومن الجانب الآخر للحديقة تأتي قطة الجيران متسللةً، بخطواتٍ ناعمة. احترس، أيها الطائر الصغير. يحتاج ذلك العشب للقص، مرة أخرى ستفي بالغرض، لهذا العام. ينبغي مني السعي للقيام بذلك. حالما تخطرُ الفكرة في ذهني أكون هناك، ارتدي قميصاً بأكمام وسروالاً متجعداً، أتعرقُ وأتحركُ بصعوبة خلف جزازة العشب، القشُّ في فمي والذباب يحوم حول رأسي. إنه لشيءٌ غريبٌ، كم مرة رأيت نفسي هكذا هذه الأيام. أصبحت شخصاً آخ، أفعل تلك الأشياء التي يفعلها شخصٌ آخر. جز العشب بالتحديد. كان الكوخ، رغم تهلهله، أنيقاً نوعاً ما إذا نظرنا إليه بتعاطف، وخشبه الرمادي المذهب بملمس حريري، أشبه بمقبض أداة عفا عليها الزمن، كمقبض مسحاة أو فأس مازال يُعتمد عليه. لقد لامست صاحبة (عروس المغطس) المسنة[21] ذلك النسيج حرفياً، بسطحه اللامع وبريقه. خربشة ثم صفير.

21- يقصد هنا زوجة بونارد.

كتبت كلير، ابنتي، لتسأل عن حالي. لستُ على ما يرام، يؤسفني القول إني لست على ما يرام، يا كليرندا الجميلة، لستُ على ما يرام أبداً. لم تهاتفني لأني حذرتها بأني لن أجيب على أي مكالمة، حتى منها. لم أكن قد تلقيتُ أية مكالمات، لأني لم أخبر أحداً سواها عن وجهتي. كم عمرها الآن، عشرين ونيف. لستُ متأكداً. هي امرأة جميلة جداً، ومثقفة إلى حد كبير. ليست جميلة، مع ذلك، كما اعترفت بقرارة نفسي منذ زمن طويل. لم أستطع التظاهر أن هذا لم يكن مخيباً للآمال؛ لأنني كنت قد تمنيت أن تصبح آنا أخرى. هي فتاة فارعة الطول للغاية وصارمة، شعرها الأصفر خشن وصعب، يتناثر حول وجهها الغزير بالنمش على نحو عشوائي، وعندما تبتسم تظهر لثتها العلوية، المتلألئة ببياض وردي. بتلك السيقان المفتولة ومؤخرتها الكبيرة، وذلك الشعر، والعنق الطويل خاصة- إنه شيء ورثته عن أمها- في حين جعلتني أفكر، خجلاً، برسومات تينيل[22] في أليس في بلاد العجائب عندما قضمت أليس قضمة من الفطر السحري. مع هذا هي شجاعة وتصنع الأفضل من نفسها ومن العالم. في داخلها حزن وروح دعابة سوداء، الأسلوب المتثاقل هو الأسلوب الشائع لدى كثير من الفتيات ذوات المراس الصعب. إذا أتت إلى هنا تقتحم وترمي نفسها على أريكتي وتدفع يديها بعيداً نحو الأسفل بين ركبتيها حيث تلامس أصابعها الأرض وتزم شفتيها وتنفخ خديها وتقول بوه! وتبدأ بسرد سلسلة من الأحداث الكوميدية التي تعرضت لها منذ آخر مرة رأينا فيها بعضنا البعض. إنها عزيزتي كلير. ابنتي الحلوة.

رافقتني عندما أتيتُ هنا إلى باليليس للمرة الأولى، بعد ذلك الحلم، الحلم الذي كنتُ أتجه فيه إلى المنزل على الثلج. أعتقد أنها كانت تشعر

22- جون تينيل رسام فكاهي وكاريكاتير سياسي إنجليزي.

بالقلق من أنني لربما كنتُ عازماً على إغراق نفسي. لابد أنها لا تدرك كم أنا جبان. الرحلة إلى هناك ذكرتني قليلاً بالأيام الخوالي، التي كنا نستمتع فيها بالنزهات معاً. في طفولتها وعندما كانت لا تستطيع النوم ليلاً- فمنذ ولادتها كانت مصابة بالأرق، تماماً كوالدها- كنت أضعُها في بطانيةٍ في السيارة وأقود بها لأميال على طول الطريق الساحلي بجانب البحر المعتم، وأدندنُ لها أيّما أغنية كنتُ أحفظُ بعض كلماتها. الأمر الذي يسلبها النوم ويجعلها تهلهلُ بيديها وليس ذلك فقط إنما تبكي وتطلب المزيد. ذات مرة، وفي وقت لاحق، ذهبنا معاً بفسحة يوم العطلة في السيارة، فقط نحن الاثنان؛ لكنها كانت فكرة خاطئة، كانت في سن المراهقة حينها وسرعان ما شعرتْ بالملل من مزارع الكروم والعِزَب ومن رفقتي، وذلك ما أرقني طوال المشوار، حتى أني استسلمتُ وأحضرتها إلى المنزل مبكراً. تبين أن الرحلة إلى هنا لم تكن أفضل بكثير.

لقد كان نهاراً رائعاً، نعم، كان نهاراً خريفياً رائعاً بحق، وكأنه قطع نحاسية وذهبية بيزنطية تلمع تحت سماء تيبولو[23] الزرقاء، كان الريف بكل تفاصيله الواضحة والمتألقة، والتي لا تبدو مشابهة لنفسها في انعكاسها على سطح البحيرة الهادئة. كان أنموذجاً عن أُنْهُر، حديثة العهد، كانت الشمس فيه بالنسبة لي، عينَ العالم الخصبة التي تبحث عن لذة مترفة بينما أتقلب في بؤسي. كانت كلير ترتدي معطفاً كبيراً من الجلد المدبوغ الباهت، انبعثت منه وبسبب الحرارة في السيارة رائحةٌ خفيفة لكنها دهنية واضحة وكريهة أزعجتني، غير أني لم أظهر أي تذمر. ما دمت قد عانيتُ مما أعتقد أنّي أحتاج إلى وعي حسي قوي للغاية لفهم الروائح المختلطة التي تنبعث من مستحضرات العناية الشخصيّة. ربما المعاناة هي التعبير الخاطئ هنا. فأنا أحبُّ، على سبيل المثال،

23- جيوفاني باتيستا تيبولو: رسام إيطالي (1696-1770).

الرائحة الزيتية بشعر المرأة عندما يصبح بحاجة إلى الاستحمام. ابنتي الفتاة العانس شديدة الحساسية- للأسف، لديّ قناعة بأنها لن تتزوج أبداً- عادةً ليس لديها أية رائحة يمكن أن تشمها. وهذا شيء آخر من أشياء عديدة تختلف بها عن والدتها، برائحتها الجامحة، التي كانت بالنسبة لي رائحة الحياة نفسها التي لم يستطع أقوى عطر أن يطغى عليها، وهو الشيء الذي جذبني إليها منذ البداية، طوال تلك السنوات. مازال القليل من تلك الرائحة عالقاً على يديّ، على نحو يدعو للرهبة، رائحتها التي لم أستطع إزالتها عن يديّ، وتخليصهما منها رغم محاولتي. في أشهرها الأخيرة كانت تفوح منها في أفضل حالاتها، رائحة الأدوية.

عندما وصلنا، تعجبتُ لرؤية الكثير من القرية كما تذكرته مازال موجوداً هنا، كما لو أن العينين اللتين أدركتا أين تنظران، هما عينيّ وهذا كل ما في الأمر. كان هذا أشبه بلقاء مع ذكرى قديمة، خلف ملامحها التي قست بمرور الزمن، كانت الخطوط الدقيقة السابقة ذاتها التي أحببتها جدّاً، والتي مازال بالإمكان تمييزها بوضوح.

مررنا بمحطة سكة الحديد المهجورة ووصلنا ملعب البولينج عابرين فوق الجسر الصغير- الذي لايزال سليماً وقائماً في مكانه!- استعادت معدتي عند قمة الجسر الشعور بالعوم المفاجئ والغوص، وهناك بدت كلُّ تلك المعالم أمامي: الرابية، والطريق، والشاطئ في الأسفل، ومن ثم البحر.

لم أقف عند المنزل، تباطأتُ فحسب ونحن نمر بجواره. هناك لحظات يملك الماضي فيها قوةً جبارة تبدو مهلكة للمرء.

«هذا هو سيدارز» قلتُ لكلير بابتهاج. في الطريق نزولاً أخبرتها بكل شيء، أو بكل شيء تقريباً عن عائلة غريس. «هذا هو المكان الذي أقاموا فيه».

استدارت في مقعدها لتنظر إليه.

قالتْ: «لماذا لم تقف؟».

ماذا كان علي أن أجيب؟ هل شلّني فجأة ذلك الشعور المحبط بالخجل، هنا في وسط العالم المفقود؟ تابعتُ القيادة باتجاه ستراند رووود (طريق الساحل). أزيل مقهى ستراند، وحلَّ محله وبصورة غير قانونية منزلٌ كبيرٌ لافتٌ للنظر بقبحه. وهنا كان الفندقان، أصغر وأكثر رثاثة طبعاً، مما كانا عليه في ذاكرتي، وكان ملعبُ الجولف والأهم منه العلم الفخم إلى حد ما يرفرف فوق قبته. حتى ونحن داخل السيارة، كان بوسعنا سماع أشجار النخيل على المرج القريب بينما يهذر سعفها الجاف على نحو حالم، بصوت من ليالي الصيف الأرجوانية منذ زمن قديم كان على موعد مع كل قاطني بلاد الجزيرة العربية. آنذاك تحت ضوء الشمس البرونزي من بعد ظهيرة يوم تشريني، كانت الظلال تمتد امتداداً جميلاً- الأشياء اكتسبت مسحةً باهتةً جذابة، كما لو كانت كلها مجموعة صور من بطاقات بريدية قديمة. وُسِعَت حانة ميلر مع مكتب البريد والبقالية؛ لتصبحَ متجراً كبيراً مبهرجاً مع مَصَفٍّ مخصص لوقوف السيارات أمامه. تذكرتُ، كيف حدث ذلك في مدة ما بعد ظهيرة دافئة وساكنة وخالية من المارة منذ نصف قرن مضى، عندما انحرف نحوي كلبٌ صغيرٌ بمظهره البريء على بقعة مرصوفة بالحصى خارج حانة ميلر، والذي عندما مددتُ يدي له كشّرَ عن أنيابه تكشيرة قدّرتُ على سبيل الخطأ أنها ابتسامة عريضة منه، ثم عضّني بفكيه في معصمي على نحو مباغت، وهرولَ، وهو يضحك، أو هكذا بدا لي؛ وكيف أيضاً عندما عدتُ إلى المنزل وبختني أمي بقسوة بسبب حماقتي في مدّ يدي إلى الحيوان وأرسلتني، بمفردي، إلى طبيب القرية الأنيق واللبق، الذي ألصق ضماداً سطحياً فوق التورم الأرجواني على معصمي، ثم أمرني بخلع كل ملابسي، وجلس على ركبتيه بتلك الوضعية، ويعلو وجهه الشحوب الذي يثير التساؤل، ثم ضغط بيده

السمينة والمشذّبة أسفل بطني بكل حرارة، لعله كان يسعى ليوضح لي الطريقة الصحيحة في التنفس.

«دع المعدة تنتفخ بدلاً من شفطها للداخل، ألا ترى؟»، قال بهدوء، وبصوت متهدج، وحرارة وجهه الدمث تلفح أذني.

تبسمت كلير ابتسامة بلا معنى قائلة: «أيٌّ منهما تركت أثراً أكبر، أنيابُ الكلب أم كفُّ الطبيب؟»

أريتها معصمي حيث مازال بالإمكان رؤية الندبات الباهتة المتبقية في الجلد فوق العضلة، الناتجة عن زوج ثقوب أحدثتها أنياب الكلب.

قلتُ: «لم تكن تلك جزيرة كابري، والدكتور فرينش لم يكن تيريبيوس».[24]

في الحقيقة ليس لدي ذكريات مثيرة عن ذلك اليوم. ما زلتُ أتذكرُ رائحةَ قهوةِ ما بعد الغداء في أنفاس الطبيب، ونظراتِ مدبرة المنزل المريبة، وهي تريني الطريق نحو الباب الأمامي.

وصلنا كلير وأنا إلى فيلد المجمع السكني.

في الواقع لم تعد سوى منطقة بائسة مخصصة لقضاء يوم الإجازة، ازدحمتْ على نحو فوضوي بأكواخ قشية غير متينة، التي صممت كما أعتقد بنفس الطراز الذي كان يُعزَى إليه سبب المنظر القبيح في الجزء السفلي من الحديقة هنا. ومع ذلك، كان من دواعي سروري أن ألاحظ (ذا لوبينز) فقد كان عنواناً للمكان، رغم كونه غير مألوف، ولأني خمنت أن المعماري، هو الذي تجنّبَ المساسَ بأيكةٍ ممتدةٍ من تلك الشجيرة البرية القصيرة- لنبات الترمس، المصنف من فصيلة البقوليات،

24- تيبيريوس يوليوس إمبراطور روماني حكم من 14 ق.م وحتى 37م، انتقل في المدة الأخيرة من حكمه للعيش على جزيرة كابري عام 26 م، كان يمارس الشذوذ الجنسي وأشاع فكرة الألعاب الجنسية.

التي عثرت عليها منذ مدة قريبة- بجوار بوابة كبيرة تقلد الطراز القوطي بطريقة ساخرة وكانت تقود الطريق نحو الداخل. حدث ذلك تحت شجيرات الترمس، بين أسبوع وآخر، وفي منتصف الليالي الأشد حلكة، مع مجرفة ومصباحٍ يدوي، وتمتمات باللعن والشتم سرّاً، كان يحفرُ أبي حفرةً عميقة في الأرض الرملية الناعمة ثم يدفن دلو الفضلات من مرحاضنا الكيميائي. لا أستطيع استنشاق الرائحة الباهتة من تلك الأزهار والكونية الغريبة دون أن تجر خلفها نفحة بشرية عالقة من رائحة التربة الليلية.

قالت كلير: «ألا تنوي التوقف على الإطلاق؟ فقد بدأتُ أشعر بالغثيان».

مع مرور السنين، توهمتُ أن ابنتي لحقتني في قطار العمر وبأننا كنا في ذلك الحين من جيل واحد تقريباً. إنها نتيجة محتملة عن وجود ابنة ذكية مثلها، التي لو أصرّتْ لأصبحت باحثةً أرقى بكثير مما كنتُ أتمنى أن أكون عليه. أيضاً هي تفهمني إلى حد الإزعاج ودون الانغماس في نقاط ضعفي وتجاوزاتي، كما يفعل الآخرون ممن يعرفني أقل منها ويخافني أكثر. لكنني ثكل وجريح القلب وأحتاج إلى التعبير عن مشاعري. إذا كان هنالك سردية طويلة للتباكي فهذا ما أحتاج إليه: دعني وشأني، غنيت لها في مخيلتي:

دعني أتسلل عابراً سيدارز القديم،

عابراً مقهى ستراند،

عابراً شجيرات الترمس والحقل الذي كان،

عابرا ذلك الماضي كله؛ لأني إذا ما توقفت سأذوب حتماً في بركة من دموع الندم.

مع ذلك، وبعد أن طاوعتها، أوقفتُ السيارة بجوار الطريق بينما ترجلتُ في صمتٍ مُقلق وطرقتُ البابَ خلفها، كما لو كانت قد وجهت لي لكمةً على الأذن.

ما الذي فعلتُه وسبب لها الإزعاج هكذا؟ في أوقات كثيرة كانت متقلبة المزاج على نحو متعمد كأمها.

ثم فجأة، من دون سابق إنذار، خلف البيوت كبيوت الجن في ساحة ذا لوبينز، هنا كان زقاق دويجنان، متعرجاً كما كان دائماً، يشق الطريق بين السياجات من نبات الزعرور والعليق المتشابك الذي يعلوه الغبار. كيف نجت تلك من اقتحام الشاحنة والرافعة، ومن الحفارات البشرية والميكانيكية على حد سواء؟ في هذه الأرجاء وأنا فتى كنتُ أسير كل صباح حافي القدمين أحمل قدر طهي مبعوج، في طريقي لشراء الحليب اليومي من دويجنان صانع الألبان أو من زوجته المرحة ذات الوركين العريضين. حتى وإن أشرقت الشمس طويلاً فإن برودة الليل الرطبة ستعلق بالفناء المرصوف، حيث تخطو الدجاجات بخطوات دقيقة بين بقاياها البيضاء والخضراء. في حين كان هناك كلبٌ مستلقٍ تحت عربة مائلة والذي كان يراقبني بدقة وأنا أعبر، متأرجحاً على رؤوس أصابعي هكذا لإبعاد كعبي عن روث الدجاج، وكان حصان العربة بلونه الأبيض القاتم يأتي ليضع رأسه فوق الباب النصفي للحظيرة ويرمقني بنظرة جانبية غير مباشرة بعين مستمتعة ومرتابة من تحت ناصيته التي كانت بنفس الظلال القاتمة للأبيض الكريمي لزهرة العسل. لم أكن أرغب بالطرق على باب المزرعة، خوفاً من والدة دويجنان، المرأة العجوز المربوعة صغيرة الحجم التي بدت بأن لها ساقاً قصيرة عند كل ناصية وكانت تلهث أثناء تنفسها ويتدلي التورم الشاحب الرطب للسانها فوق شفتها السفلية، وبدلاً من ذلك كنت

أتسكع في الظل البنفسجي للحظيرة في انتظار ظهور دويجنان أو زوجته لإنقاذي من مواجهة العجوز الشمطاء.

كانَ دويجنان رفيعَ البنية ضيقَ الرأسِ بشعرٍ خفيفٍ رماديّ اللونِ ورموشٍ باهتة. ارتدى قمصان الكاليكو[25] من دون ياقة التي كانت تُعد زيّاً عريقاً حتى في ذلك الحين وسراويلَ عاديةً حَشَرَها داخل جزمات ولينغتون[26] ملطخةٍ بالطين. في المصنعِ أثناء غرفه للحليب كان يحدثني عن الفتيات بصوتٍ لمّاح أجشّ ومتقطع- كان على وشكِ الموت بسبب مرضٍ في حلقه- قائلاً إنه متأكد من استحواذي على صديقة شابة صغيرة في موطني، ويرغب في معرفة إذا ما سمحتْ له بتقبيلها. في أثناء حديثه استمرّ بتثبيت نظره على الخيط الرقيق الطويل من الحليب الذي كان يصبّه في وعائي، متبسّماً في قرارة نفسه وعلى نحو سريع يحرك تلك الرموش الباهتة. كان مُريباً رغم ما تمتعَ من جاذبيةٍ لافتةٍ بالنسبة لي. مادام قد بدا مستفزّاً بتلميحاته، بينما يطلعني ربما على صورة خلاعية، وعلى سرّ كبير، وعلى شيء من الأشياء المعروفة والمقززة الخاصة بالبالغين فقط. كان مصنع الألبان عبارة عن غرفة واطئة مربعة الشكل جدرانها مطلية بالكلس لشدة بياضه كاد أن يتحول إلى اللون الأزرق. بدت أوعية الحليب الفولاذية أشبه بالحراس الرابضين بقبعات مسطحة، لكل منها وردة بيضاء لامعة على كتفها، حيث انعكس عليها الضوء القادم من البوابة. أحواض كبيرة من الحليب المغطاة بالشاش مستغرقة في سكونها الخاص حيث وضعت على الأرض لفصلها، وهناك كانت مخضضة زبدة خشبية يدوية الصنع

25- قمصان الكاليكو: زي غير رسمي مصنوع من القطن.

26- جزمة ولينغتون: نوع من الأحذية المطاطية التي تتميز بساق طويلة... تسمى اختصارًا جزمة ويليز.

كنتُ أرغب في رؤيتها، وهي تعمل لكنه لم يحدث قط. كانت رائحة الحليب السرية القوية والباردة تحضني على التفكير في السيدة غريس، وتثير لدي دافعاً محفّزاً للغاية لأذعن لتملق دوينجان وأخبره عنها، لكنني أتراجع بحكمة، بلا شك.

ها أنا ذا عند بوابة المزرعة مرةً أخرى، كما لو كنت طفلاً في تلك الأيام السابقة مملوء الجسم بشعر رمادي بعض الشيء وطاعن في السن تقريباً. على البوابة رُسمت إشارة تحذيرية للمتسللين تحت طائلة الملاحقة القضائية. كانت كلير الواقفة خلفي تقول شيئاً ما عن المزارعين والبنادق لكنني لم أعرها أي انتباه. تقدّمتُ بدوري فوق الحصى، الذي ما زال هناك!- لا يبدو أنه ممهد للعبور بل كان وعراً، بالأحرى، غير مريح كمنطاد حربي نصف ممتلئ اصطدم بضربات متتالية تحبس الأنفاس من الماضي. هنا كانت الحظيرة وبابها النصفي. وهنا اتكأت مسحاة صدئة حيث اعتادت عادة عربة دويجنان أن تتكئ، هل كانت العربة ذكرى سيئة؟ معمل الألبان كان هناك أيضاً، لكنه مهجور، بابه الواهن موصد بالقفل، كان من الصعب تخيل ما كان يحدث داخله، من ألواح النوافذ المتسخة أو المكسورة والعشب الذي كان ينمو على السقف. وُسِع بيت المزرعة ببناء شرفة أمامه، وهي شرفة مصنوعة من الزجاج والألمنيوم، تبدو لعين بدائية كحشرة عملاقة. في ذلك الحين انفتح الباب في الداخل وظهرت سيدة كبيرة في السن توقفت خلف الزجاج، ونظرت نحوي بحذر. تعثرت أمامها، وأنا أبتسم ابتسامة عريضة وأومئ بحماسة، أشبه بمبشر غريب الأطوار يقترب بلباقة من الملكة الصغيرة لقبيلة لم تعتنق الدين بعد. في البداية ظلت داخل الشرفة محترسة، بينما كنت أخاطبها من وراء الزجاج قائلاً اسمي بصوت عالٍ، وأقوم بإيماءات متحمسة بيدي. كانت ماتزال واقفة وتحدق. مانحة انطباع عن ممثلة شابة تقوم بدور امرأة مسنة، دور

متقن وغير مقنع تماماً. كان شعرُها، المصبوغ بلون بني كلون طلاء الأحذية والمتموج في لفافات صغيرة ولامعة، كان كثيفاً جداً بالنسبة لوجهها الصغير الدائري، والذي أحاط به كهالة من الأشواك الكثيفة، وبدا كأنه شعراً مستعاراً أكثر منه حقيقياً. كانت ترتدي مئزراً باهت اللون فوق قميص قصير بدا أنها حاكته بنفسها، وسروال كودري رجالي الطراز يظهر عليه تلف عند الركبتين، وتلك الأحذية المشدودة بسحاب على الكاحل والمصنوعة من المخمل البروسي الأزرق التي كانت في ذلك الوقت موضة بين السيدات المسنات عندما كنتُ صغيراً والتي تبدو أخيراً محصورة بالنساء المتسولات والمدمنات على الكحول. أخبرتها بصوتٍ عالٍ من وراء الزجاج عن كيفية اعتيادي على البقاء هنا في طفولتي التي قضيتها في كوخ خشبي في الساحة، وعن كيفية قدومي إلى المزرعة صباحاً للحصول على الحليب. كانت تستمع وتومئ برأسها وتظهر تغضن عند جانب فمها ثم تخفيه كما لو كانت تكتم ضحكة. أخيراً فتحت باب الشرفة وخرجت لتخطو فوق الحصى. كنتُ في حالة من الهذيان المفرط- حقاً، كنت متحمساً على نحوٍ سخيف- وكان لدي رغبة في عناقها. كلمتها بسرعة عن عائلة دويجنان، الرجل وزوجته، ووالدته، وعن معمل الألبان وحتى عن الكلب الشرس. كانت ماتزال تومئ برأسها، وحاجبها يرتفعُ تعبيراً عن الاستغراب، وهي تنظرُ خلفي حيث وقفت كلير تنتظر في المدخل وهي تطوي ذراعيها لتحتضن نفسها في معطفها الكبير الثمين المزركش بالفرو.

اسمها أفريل، هكذا قالتِ المرأة الشابة. أفريل. دون أن تذكر اللقب. كان المشهد يكتنفه الغموض وكأن شيئاً ما نهضَ من تلقاء نفسه بعد أن بدا ميتاً لمدة طويلة من الزمن، عندها ذكرتني بطفلة كانت ترتدي ثوباً قذراً تخلّفت عن الآخرين في المدخل المرصوف بألواح حجرية للمنزل الريفي، وهي تمسكُ بعبث ذراعاً سميناً ومثنياً لدمية وردية صلعاء

وعارية وترمقني بنظرة عجيبة بتركيز تام. لكن هذه المرأة أمامي، هل يمكن أن تكون تلك الطفلة التي أصبحت الآن في عقدها الخامس؟ ربما كانت الطفلة التي تذكرتها أختاً لهذه المرأة، ولكنها أكبر منها؛ أي أنها ولدتْ قبلها بكثير؟ هل يمكن ذلك؟ لا يمكن، فدويجنان قد ماتَ صغيراً، في الأربعينات من عمره، لذا فليس من المحتمل، إنما من المؤكد، أن أفريل هذه قد تكون ابنته؛ لأنه كان رجلاً بالغاً عندما كنتُ ولداً صغيراً...لقد تعثر ذهني في حساباته كدابة عجوز متعبة ومضطربة من حمل الأثقال. لكن ماذا عن أفريل الآن؟ في هذه الأرجاء من كان ليمنحَ طفله اسما لطيفاً لهذا الحد؟ سألتُ مجدداً عن دويجنان وأكّدتْ لي أفريل، أن كريستي دويجنان قد مات، كريستي؟ هل كنتُ أعرفُ بأنّ اسم دويجنان الأول كان كريستي؟. وأخبرتني أيضاً أن السيدة دويجنان مازالتْ تأوي في دارٍ لرعاية المسنين في مكان ما في منطقة الساحل. أومأتُ قائلاً: «و باتسي قد استوطنت في مكان بالقرب من OLDBAWN وماري في انكلترا، لكن ويلي المسكين مات». فجأة وجدتُ أنّهُ من المحبطِ أن أستمع إلى قصص هؤلاء المتفرعين عن سلالة دويجنان، الأقوياء جدّاً حتى في أسمائهم، المألوفين لأبعد حد، باتسي المزارع وماري المهاجرة وويلي الصغير الذي مات، جميعهم احتشدوا في احتفال خاص في الذاكرة أشبه بتوافد أقارب فقراء غير مدعوين إلى جنازة فاخرة. لم يكن بوسعي التفكير في أي شيء يقال. آنذاك ذهبتْ عني كلُّ النشوة المبهجة التي انتابتني في لحظات سابقة، وشعرتُ بالخواء وأني غير متوافق مع مجريات اللحظة، بينما أقفُ هناك ابتسمُ وأومئ بوهن، وآخر الأنفاس تتسرب مني. مع ذلك لم تعرّفْ أفريل عن نفسها بأكثر من اسمها، وبدتْ تعتقدُ أني قد عرفتها بلا شك- لكن كيف سيكون لي ذلك، ومن أين، حتى وإن كانتْ تقفُ حيثُ كانَ ذاتَ يومٍ مدخلاً لمنزلِ عائلة دويجنان؟

تعجبتُ أنها تعرفُ كثيراً عن عائلة دويجنان، رغم أنها لم تكنْ فرداً من أفرادها، وأنها لا تنتمي للعائلة في الأصل، على أية حال، كل هؤلاء من عائلة ويلي وماري وباتسي، لا أحد منهم قد يكون عائلتها في الأصل أو مما لاشك فيه ستخبرني بهذا في الحال.

جمعتْ أحزاني كلها في موجة استياء شديد منها، كما لو أنها خسرت مكانتها الخاصة بها هنا لأسباب تتعلق بهذا التنكر غير المقنع- ذلك الشعر المخضب بالحناء، وتلك الأحذية الخاص بالسيدات المسنات، على نحو متعمد اغتصبت تلك الأشياءُ ركناً من الماضي الأسطوري الخاص بي. كما لاحظتُ، كان لونُ بشرة وجهها الشاحب منثوراً على نحو كليّ بحبات النمش الناعم. التي لم تكن خمرية اللون كالحال عند كلير، ولم تشبه النموش الكبيرة المتناثرة التي اعتادت على التكاثر على الساعدين الناعمين والغريبين لدويجنان، ولم تكن مشابهة حتى، وفي ذات السياق، للنموش المقلقة التي بدأت تظهر على سطح يدي، وعلى الجلد الشاحب المقشعر في منحدرات كتفيّ على جانبي عظم الترقوة، لكنها كانتْ أكثر قتامة بكثير، ومن نفس درجة اللون البني الباهت كمعطف كلير، وبحجم بالكاد أكبر من وخز دبوس، والذي يؤسفني القول، إنها كانت دلالةً توحي لنقص مزمن وعام في النظافة الشخصية. لقد جعلتني غير مرتاح للتفكير بشيء ما، رغم أني لم أستطع التفكير بما كان عليه.

قلتُ: «خلاصةُ الأمر فحسب، كما ترين، فإن زوجتي قد فارقتِ الحياة».

لا أعرفُ ماذا أصابني لأصرّح بمثل هذا.

كنتُ آملُ ألا تسمعني كلير في الخلف. حدّقت آفريلُ في وجهي بلا أدنى تعبير، متوقعة مني أن أقول المزيد، بلا شك. ولكن ما هو المزيد

الذي يمكن قوله؟ في بعض الاعترافات ليس ثمة تفاصيل. هزّتْ كتفيها تعبيراً على التعاطف، رافعةً إحدى كتفيها وفمها من جانب واحد.

قالتْ بنبرةٍ عاديةٍ بسيطة: «إنّه لأمرٌ محزن، أنا آسفة لسماع ذلك». على أية حال، لم تكن تبدو أنها تعني ذلك.

سطعت أشعةُ الشمسِ الخريفية على نحو مائل في الفناء، جاعلة الحصى يشعُ ببريق أزرق، وفي الشرفة حيث كان نبات إبرة الراعي قد أزهر وتوهجت براعمه الأخيرة لهذا الموسم. هذا هو العالم، بكل صراحته.

في السكون المتلبد لفندق الجولف بدا كأننا، أنا وابنتي، النزيلان الوحيدان فيه. أرادت كلير تناول شاي بعد الظهيرة وعندما طلبتُه لها، اتجهنا نحو جناح سفلي بارد ومقفر في العمق يطل على الساحل وعلى المد المنحسر. هنا وعلى الرغم من الهواء الجليدي فإن ملامح صامتة من صخب الماضي لا تزال عالقة في المكان. كانت هناك رائحة مختلطة من البيرة المسكوبة ودخان السجائر القديمة، وعلى منصة في الركن وقف بيانو منتصباً، يحاكي على نحو غير متناغم الغرب المتوحش، بغطائه المرفوع، مظهراً تكشيرة مجوفة لمفاتيحه. بعد ذلك اللقاء في ساحة المزرعة شعرت بالتوتر والاهتياج، كمغنية تتمايل خارج المسرح في نهاية ليلة مأساوية من النغمات الصادحة المتكسرة، وقد فقدتْ حماسها بمشهد من الانهيار والتداعي.

جلست كلير وأنا جنباً إلى جنب على الأريكة، وفي الحال أحضر فتى مرتبك ذو شعر بني اللون كان أنيقاً يرتدي سترة نادل سوداء اللون وبنطالاً مع خط أسفل الجوانب، صينية ووضعها مُحدِثاً قعقعة على طاولة منخفضة أمامنا، ومضى متعثراً في حذائه الواسع. كيس الشاي اختراع حقير، يوحي ربما لعيني شديدة الحساسية، بمخلفات شخص مُهمل تركها خلفه في مياه المرحاض. سكبتُ كوباً من الشاي- المصبوغ

بلون الأعشاب ودعمته برشفة من قارورة الشراب خاصتي- حتى لا يخلو أبداً من إضافات جاهزة لتخدير الألم- ذلك الشيء تعلمته في العام الفائت. كان ضوء ما بعد الظهيرة مغبراً وشتوياً، بحلول ذلك الوقت، وقد تشكل في الأفق جداراً من السحب الكثيفة ذات اللون الأزرق القاتم. كانت الأمواج تخدش الرمل الناعم على طول خط الماء، محاولة الإمساك بأرضيتها لكنها كانت تفشل في كل مرة. خارج المكان، كان المزيد من أشجار النخيل، الشعثاء والمغزلية، وقد بدا لحاؤها الرمادي سميكاً وقاسياً كجلد الفيل. لابد أنها تنتمي لسلالة قوية لتتمكن من الصمود في مثل هذا المناخ الشمالي البارد. هل تتذكر خلايا تلك الأشجار حرارة قيظ الصحراء؟ جلست ابنتي غارقة في معطفها، وقد لفت يديها حول كوب الشاي للحصول على الدفء. لقد لاحظت كدمة أظافرها الطفولية ولونها الأرجواني الشاحب. الطفل يبقى طفلاً على الدوام.

تحدثت عن التجمع السكني، والكوخ الخشبي، وعائلة دويجنان.

قالت: «أنت تعيش في الماضي».

كنتُ على وشكِ التصريحِ بجوابٍ قاس، لكنّي تمهلت. كانتْ محقةً على كل حال. فالحياةُ وأعني الحياةَ الحقيقيةَ، من المفترض أن تكون برمتها كفاحاً، وعملاً لا يكلّ وسعياً حثيثاً لإثبات الذات، والإرادةَ التي تنطح برأسها الصلب جدار العالم، وما إلى ذلك، لكن عندما أنظرُ إلى الوراء أرى أنّه مادام قد هُدِرَ الجزءُ الأكبرُ من طاقتي في البحث الساذج عن الملاذ، وعن الراحة، أجل، أعترفُ أنّ الملاذ الدافئ هو ماكنتُ أبحث عنه. إدراكي لذلك الأمر كان إدراكاً مفاجئاً وصادماً. في وقتٍ سابق، كنت أرى نفسي قرصاناً عديم الضمير، أتصدى لكل من يواجهني بسيف قراصنة أحمله بين أسناني، ولكن أنا الآن مضطرٌ للاعتراف بأنّ هذا كان وهماً. أن تكون محمياً، ومصاناً، ومستقراً، ذلك هو كلُّ ما

حلمتُ به حقّاً، أن أحفر في مكان ما يغمرني بدفء أنثوي وأجثمَ هناك، مختبئاً من نظرة السماء اللامبالية والأضرار التي يسببها الهواء القارص. لهذا السبب الماضي مجرد ملاذ بالنسبة لي، أذهب إليه بكل شغف، أهز قبضتي وأنفض عنهما الحاضر البارد والمستقبل الأبرد. وماذا بعد، أية كينونة يملكها الماضي حقّاً؟ بعد كل شيء، إنه ما كان عليه الحاضر ذات يوم، الحاضر الذي انتهى ولا شيء أكثر. وماذا بعد؟

سحبت كلير رأسها مثل السلحفاة عميقاً داخل قوقعة معطفها، وركلت حذائها، ورفعت قدميها على حافة الطاولة الصغيرة. إنه مشهد مؤثر رؤية أقدام امرأة في جوارب، أعتقد أنها بلا شك الطريقة التي تتجمع فيها أصابع القدم متلاصقة؛ لتصل ربما إلى مرحلة الانصهار تقريباً. كانت أصابع ميلز غريس، بطبيعة الحال، أصابع غير عادية. عندما كان يفتحها، كما يفعل بسهولة كما لو كانت أصابع عادية، فإن الأغشية تتمدد بينها في نسيج رقيق وشفاف ووردي اللون بزخارف من أوردة دقيقة وحمراء أشبه بلهب تحت غطاء، بمنزلة علامات تميز الآلهة، يقيناً كالسماء.

تذكرتُ فجأة، بعيداً عن زرقة المساء المتكاثفة على نحو تدريجي، عائلة الدببة الذين رافقوا كلير طوال طفولتها. كانت تثير استفزازي قليلاً، فظاهرهم يوحي كأنهم أحياء، هذا ما فكرت به. كنتُ، فور انحنائي فوقها في الضوء الحبيبي للمصباح الجانبي لتحيتها قبل النوم، أجد نفسي مُراقباً فوق حافة غطاء سريرها من قبل ستة أزواج عيون زجاجية صغيرة الحجم، ذات اللون البني اللامع، كانت جامدة، وفي حالة تأهب غريب.

قلتُ حينها: «ماذا عن عائلتك الكريمة، أفترض بأنهم لايزالون بحوزتك، منتصبين على أريكتك الأولى؟».

سقط وميض من ضوء الشمس شديد الانحدار على طول الشاطئ، يلوح بالرمال فوق خط الماء الأبيض، وطائر بحري أبيض، يلتمع تحت سقف السحابة، كان يحلق بأجنحة منجلية ويستدير بفرقعة صامتة وينغمس بنفسه، كشارة v مغلقة على متن البحر الجامح. جلست كلير هامدة للحظات ومن ثم شرعت في البكاء. بلا صوت، فقط دموع وحبات لامعة من الزئبق في آخر توهج للضوء البحري المنحدر نحو الأسفل من الجدار الزجاجي العالي أمامنا. بكاؤها، بتلك الطريقة الصامتة والمفاجئة تقريباً، هو شيء آخر تفعله كما كانت تفعله والدتها بالضبط.

قالت: «لستَ الشخص الوحيد الذي يعاني».

أعرف القليل جداً، فعلياً، عن ابنتي. ذات يوم عندما كانت صغيرة، في الثانية عشر أو الثالثة عشر، كما أخمن، وتستعد لسن البلوغ، اقتحمتُ عليها الحمام الذي أهملتْ إقفال بابه. كانت عارية ماعدا منشفة ملفوفة بإحكام حول رأسها على شكل عمامة. التفتت لتنظر نحوي من فوق كتفها تحت الضوء الهادئ المتسلل من النافذة المكسوة بالصقيع، غير مرتبكة تماماً، ومحدقة بي دون أن تستجمع نفسها. كان ثدياها ما يزالان برعمان، لكنها كانت قد امتلكت تلك المؤخرة الكبيرة المستديرة. بماذا شعرتُ، لدى رؤيتها آنذاك؟ شعور من الفوضى داخلية يغمرها الرقة والحنان مع شيء من الخوف. بعد عشر سنوات تركتْ دراستها لتاريخ الفن- أسلوب فوبالين وفيتي جالانت. تلك هي فتاتي، أو كانت- العازمة على احتراف تعليم الأطفال المتخلفين في حي فقير مزدحم بالسكان على نحو متزايد من أحياء المدينة. يا لها من موهبة ضائعة. لم يكن بوسعي أن أغفر لها، وما زلت. حاولتُ، لكني فشلت. كان ذلك كله بسبب شاب منحته قلبها، كان زميلاً لها بذقن ضئيلة ووجهات نظر متطرفة تتعلق بالمساواة بين البشر. انتهت المسألة على نحوٍ سيِّئ بالنسبة لها- حيث

توقعت أنها مازالت عذراء. بعد أن أقنعها للتخلص مما كان ينبغي أن يكون عملها لمدى الحياة من أجل لفتة اجتماعية غير نافعة، هرب الوغد، تاركاً فتاتي سيئة الحظ تترنح. أردتُ اللحاق به وقتله. في أقل تقدير، قلتُ، دعيني أدفع أتعاب محامي جيد لأقاضيه بسبب تخاذله عن الإيفاء بوعده. طلبت مني آنا التوقف عن ذلك؛ لأني بهذا كنت سأجعل الأمر أكثر سوءاً. على إثر ذلك مرضت. فماذا كان بوسعي أن أفعل؟

في الخارج، أخذ ضوء الغسق بالتكاثف. اهتاج البحرُ الذي كان صامتاً قبل قليل، اهتاج حينها على نحو غامض، ربما كان المد قريبًا. توقفت دموع كلير لكنها لم تجف، بدت أنها لم تكترث لها. ارتجفتُ؛ هذه الأيام كل المحتشدين في الكنيسة يتسكعون جيئة وذهاباً على نحو لاشعوري فوق قبري.

دخل رجل ضخم يرتدي زي الصباح من المدخل خلفنا، وتقدم بلا صوت بخطى خادم، ونظر نحونا باستعلام مهذب لفت انتباهي، ثم ذهب مبتعداً مرة أخرى. استنثرت كلير ثم نبشت في جيبها لتخرج منديلاً ونفضت أنفها بقوة.

قلتُ بهدوء: «إنه يعتمد على ما تعنيه بالمعاناة».

لم تقلْ شيئاً لكنها وضعت المنديل بعيداً، ووقفت ثم نظرت حولها بتجهم كما لو كانت تبحث عن شيء ما، ولكن لا أعرف ما هو؟ قالت إنها ستنتظرني في السيارة، وابتعدت برأسٍ محنيّ ويداها مغروزتان عميقاً في جيوب ذلك الجلد على هيئة معطف. أصدرتُ بدوري تنهيدة. تحت قبة سماوية معتمة حلقت الطيور البحرية وغاصت كقصاصات ممزقة من القماش. أدركت أنني أعاني من صداع في الرأس، لقد كان يتنقل في جمجمتي لم يكترث لي، منذ جلست لأول مرة في هذا الصندوق الزجاجي من الجو المرهق.

عاد الفتى النادل، متمايلاً كشبل الثعلب، وهمَّ بتناول الصينية، وذؤابة برتقالية اللون تتدلى قليلاً من جبينه نحو الأمام. بتلك القطعة المتلونة لديه ربما كان فرداً آخر من عائلة دويجنان، من عائلة أخ أصغر. سألته عن اسمه. توقف، ومال بخصره نحو الأمام بحرج، ونظر نحوي من أسفل حاجبيه الشاحبين بحذر فضولي. كانت سترته لامعة، وأصفاد قميصه متسخة.

قال: «اسمي بيلي، يا سيدي».

أعطيته بقشيشاً ثم شكرني وخبأها ورفع الصينية واستدار، ثم توقف متردداً.

قال: «هل أنت بخير سيدي؟».

أخرجتُ مفاتيح السيارة وحدقتُ بهم بارتباك. بدا كل شيء وكأنه شيئاً آخر. أكدتُ له أنني كنت بخير، ثم ذهب بعيداً. كان الصمت حولي ثقيلاً كالبحر. البيانو على المنصة أصدر صريره المرعب.

أثناء مغادرتي للردهة، كان الرجل الذي يرتدي زي الصباح هناك. كان لديه وجه واسع بملامح جامدة، بلا علامات فارقة حادة. انحنى لي مبتهجاً، ويداه على صدره متشابكتان بقبضة على صدره، في لفتة أوبرالية مبالغ بها. ماذا عن هؤلاء الأشخاص الذين يدفعونني لتذكرهم؟ كانت ماتزال نظراته مداهنة في ذلك الحين. ربما توقعني أن أعطيه بقشيشاً هو الآخر. وكما أقول: هذا هو العالم.

كانت كلير تنتظر بجوار السيارة بأكتاف محدودبة، تستغل أكمام معطفها للحصول على الدفء.

قلتُ: «كان ينبغي منك أن تطلبي مني مفتاح السيارة، هل كنت تعتقدين أني لن أعطيك إياها؟»

في الطريق إلى البيت، أصرت على تولي القيادة على الرغم من مقاومتي الشديدة. استغرق الطريق ليلة كاملة في ذلك الوقت، وفي عيون واسعة ومتوهجة للمصابيح الأمامية، انتصبت على نحوٍ متتالٍ أشجارٌ مخيفة عارية ولاحت في الأفق أمامنا فجأة ثم اختفت فجأة، وانهارت في الظلام على كلا الجانبين كما لو أنها سقطت تحت وطأة عبورنا بها. كانت كلير تميل نحو الأمام حتى كاد أنفها أن يلمس الزجاج الأمامي. لقد منح الضوءُ المتصاعدُ من لوحة القيادة بقوامه الغازي أخضر اللون مسحةً طيفيةً لوجهها. قلتُ ينبغي أن تترك القيادة لي. قالت إني ثمل إلى الحد الذي لا يمكنني القيادة. قلتُ: أنا لست ثملاً. قالت لقد أنهيتُ زجاجة الخمر، فقد رأتني أفرغها. قلتُ إنه ليس من شأنها أن توبخني بتلك الطريقة. انتحبت مرة أخرى وصرخت ذارفة الدموع. قلتُ حتى وإن كنتُ ثملاً سأكون أقل خطراً في القيادة مما كانت عليه في تلك الحالة. وهكذا استمر الجدال بقوة وعنف كبيرين، وبالأظافر والأسنان، إلى ما لانهاية. ذكّرتها بالجيد والسيء كما حصل معي، كتصحيح فقط، عن الجزء الأفضل، أعني الجزء الأسوأ- ما هو مدى دقة اللغة، وما هو مدى ملاءمتها لما نريد التعبير عنه- من ذلك العام الذي استغرقه موت والدتها، لقد كانت مرتاحة في الخارج وتتابع دراستها، بينما بقيتُ هنا للتعامل مع الأمر بأفضل ما أستطيع. أصابها هذا الكلام بالصميم. فأصدرت صريراً بين أسنانها المنطبقة على بعضها البعض وضربت بعنف العجلة بمؤخرة كفيها. ثم بدأت بتوجيه كل أنواع الاتهامات لي. قالت لقد طردتُ جيروم بعيداً. وهنا تمهلتُ. جيروم؟ جيروم؟ عنت بالطبع- فاعل الخير- عديم الذقن- الذي فعل الكثير من الخير من أجلها، وأحياناً من أجل مشاعرها. جيروم، نعم، كان ذلك الاسم القبيح للوغد. سألتها كم صليتُ لأتحكم بنفسي، وكيف طردتُه بعيداً؟ ردتْ على ذلك بهمهمات وإيماءات بالرأس، فكرتُ ملياً.

كان صحيحاً أن وصفته خاطباً غير لائق بها، وأخبرته بذلك، بوضوح، بأكثر من مناسبة، لكنها تحدثتْ بالأمر كما لو أني لوحتُ مهدداً بسوط حصان أو طاردته ببندقية. علاوة على ذلك، إذا كانت تلك طريقتي في الاعتراض عليه وطرده بعيدًا، فماذا يقال عن شخصيته وإصراره على الوصول لهدفه؟ لا لا، كانت أفضل وهي حرة من التعلق به، هذا شيء مؤكد. لكني حينها لم أقل المزيد، بل احتفظت برأي الخاص، وبعد مسافة ميل أو اثنين كانت قد هدأت النار بداخلها. إنه أمر ما دام قد اكتشفته في النساء، تنتظر بما يكفي ثم تتابع إحداهن طريقها.

عندما وصلنا الديار دخلت مباشرة إلى المنزل، وقد تركتُها لتركن السيارة، وقمت بالحصول على رقم سيدارز من دفتر أرقام الهواتف، هاتفتُ السيدة فافسور وأخبرتها عن رغبتي باستئجار إحدى الغرف لديها. ثم صعدتُ إلى الطابق العلوي وتسللت إلى السرير مرتدياً ثيابي الداخلية. شعرتُ بالتعب الشديد فجأة. إن شجار المرء مع ابنته ليس أقل شأناً على الإطلاق من كل الأمور المنهكة الأخرى. آنذاك كنت قد انتقلتُ من غرفة النوم التي كانت مخصصة لآنا ولي إلى غرفة بديلة فوق المطبخ والتي كانت مخصصة بالعادة للمربية حيث كان المضجع منخفضاً وضيقاً، بالكاد يتسع لسرير طفل. كان بوسعي سماع كلير في الطابق السفلي في المطبخ وهي تقرقع بالأواني والمقالي. لم أخبرها بعد أنني قررت بيع المنزل. استفسرت الآنسة فافسور هاتفياً عن المدة التي خططت لقضائها هناك. اطلعتُ من نبرة صوتها على ما كانت عليه من حيرة. لقد تعمدتُ الغموض في الرد. وقلت: بضعة أسابيع وربما بضعة شهور. صمتتْ للحظات مطولاً وهي تفكر. ذكرت الكولونيل وقالت إنه في إقامة دائمة ولم يتغير. فيما اخترتُ عدم التعليق على ذلك. وماذا عن كل ما يتعلق بالكولونيل بالنسبة لي؟ يمكنها ترفيه مجموعة كاملة من الضباط في المبنى بكل ما كان لدي من اهتمامات. قالت إن علي إرسال

رسالة إلى المصبغة الأثيرة لدي. سألتُها إذا كانت تتذكرني. قالتْ بلا انفعال: «أوه، نعم بالطبع أتذكرك».

سمعتُ خطوات كلير تصعد الدرج. كانت قد استنزفت غضبها بحلول ذلك الوقت وتمشي ببطء وتثاقل كئيب. لا أشك أنها تجد الجدال متعباً أيضاً. كان باب غرفة النوم مواربا لكنها لم تدخل، فقط سألتني بلا حماس من فتحة الباب إذا كنت أرغب بشيء من الطعام. لم أشعل المصابيح في الغرفة فيما سقط ضوء شبه منحرف ومستدق الأطراف ومتناقص تدريجياً من الأعلى عبر الأرضية حيث وقفتْ، والذي كان ممراً يؤدي مباشرة إلى مكان ما من طفولتها وطفولتي. في طفولتها كانت تنام في هذه الغرفة وفي هذا السرير، وتحب الاستماع إلى صوت الآلة الكاتبة خاصتي القادم من غرفة المطالعة في الطابق السفلي. كان صوتاً مريحاً، كما قالت، يشبه الإنصات لي وأنا أفكر، رغم أني لا أعرف كيف يمكن لصوت تفكيري أن يكون مريحاً لأي شخص؛ لكنه بالعكس تماماً، يجب علي قول ذلك.

هيهات، لكن كم هي بعيدة عني الآن، تلك الأيام وتلك الليالي. رغم ذلك كله، ما كان ينبغي عليها الصراخ في وجهي كما فعلت في السيارة. أنا لا أستحق أن يُصرخ في وجهي على ذلك النحو. قالت: «أبي» ومرة أخرى بنبرة استفسار «أترغب بالعشاء أم لا؟».

لم أعط أي جواب، وذهبت بعيداً. لتعيش في الماضي كما أفعل أنا.

استدرتُ نحو الجدار وابتعدتُ عن الضوء. ثنيتُ ركبتيّ ورغم ذلك بقيت قدمي بارزة في نهاية السرير. عندما كنتُ أحرك نفسي بتثاقل بين ملاءات متشابكة- فأنا لم أكن قادراً يوماً على التعامل مع أغطية السرير- استشعرتُ رائحةً دافئةً وجبنيةً فاحت من جسدي. قبل مرض آنّا لم أشعر اتجاه جسدي بأكثر من اشمئزاز بسيط، مثل كثير من الناس-

نفور، بالأحرى، من منتجات طبيعتي البشرية التي لا مفر منها للأسف، والروائح المتنوعة والغازات الصادرة من الأمام ومن الخلف، والإفرازات، وقشرة الرأس، والعرق، وارتشاحات الجسد الأخرى الطبيعية، إضافة لتلك التي يدعوها شاعر هارتفورد[27] على نحو جذاب بأنها جسيمات في طبقة سفلية. ورغم ذلك، عندما خانها جسدها، أصبحتْ آنّا تخاف منه ومن تقلّباتِه الغريبة، تزايد لديّ من عملية تخاطر غامضة، الشعور بالاشمئزاز من جسدي. لا أشعر به طوال الوقت، أو على الأقل لستُ مُكترِثاً به طوال الوقت، على الرغم ربما من تربصه بي هناك، حيث ينتظر لأصبح وحيداً، ليلاً أو في الصباح الباكر على نحوٍ خاص، فيحيط بي أشبه بجو خانق من غاز المستنقع. ولقد تزايد لدي أيضاً الانجذاب المقزز للعمليات الحيوية لجسدي، التي تتم على نحو متواصل، على سبيل المثال طريقة استمرار أظافري وشعري بالنمو بإصرار، بغض النظر عن الحالة التي أنا فيها، ومهما كان الألم الذي أشعر به. كم يبدو متهوراً وغافلاً للغاية عما يحيط به، ذلك التكاثر العنيد لمادة ماتت حقّاً، والذي يسلك ذات الطريقة البهيمية التي تسلكها خلايا ذلك الجسد الشهواني للاستمرار بأداء مهامها، دونما اكتراث واهتمام بأن سيدها المستلقي على سريره البارد في الطابق العلوي بفم فاغر وعينين مزججتين لن يترجل للطابق السفلي، مرة أخرى، ليسكب الطعام المهروس في طبقه أو ليتناول مفتاحاً لفتح علبة أخيرة من سمك السردين.

بمناسبة الحديث عن الآلات الكاتبة- كما فعلتُ قبل دقيقة- فقد عاد لي ذلك الحلم مجدداً الليلة الفائتة، كنتُ أحاول كتابة وصيتي على آلة كاتبة تفتقد لحرف *I*، بشكليه الصغير والكبير.

27- يعني به والاس ستيفنز (1879-1955) وعبارته الواردة في قصيدته (إلى فيلسوف قديم في روما).

هنا في الأسفل، بجانب البحر، هناك نكهة خاصة للصمت في الليل. لا أعرفُ إن كان هذا صنيعتي، ربما كنت قد أضفته للصمت السائد في الغرفة أو حتى في المنزل كله، أو نتيجة لطبيعة المكان العابق بالملح العالق بالهواء، ربما، أو بسبب المناخ الساحلي على نحو عام. لا أذكرُ أنّي لاحظتُ ذلك عندما كنتُ صغيراً وأقيمُ في التجمع السكني. إنهُ صمتٌ محتشدٌ وفارغٌ في ذات الوقت. استغرق مني وقتاً طويلاً، ليال وليال، لأحدد ما الذي ذكرني به. هو كالصمت الذي اختبرته في غرف المرضى في طفولتي، عندما كنتُ أرقدُ محموماً متشرنقاً تحت كومة من البطانيات الساخنة الرطبة، والفراغ يضغط فوق طبلتي أذني أشبه بضغط الهواء في أعماق البحر. كان المرضُ في تلك الأيام مكاناً خاصاً وعالماً منفصلاً، لا أحد آخر بوسعه الدخول إليه، لا الطبيب بسماعته الباعثة على الشعور بالقشعريرة، أو حتى والدتي وهي تضع يدها الباردة على جبيني المحترق. إنه مكان كالمكان الذي أشعر فيه بوجودي الآن، على بعد أميال عن أي مكان آخر وأي شخص آخر. أفكر في الآخرَين في المنزل، الآنسة فافسور والكولونيل، النائمين في غرفتيهما، ومن ثم أفكر ربما ليسا نائمين، لكنهما مستلقيان وهما يقظان مثلي بعيون حزينة هزيلة في الظلمة الزرقاء الداكنة. ربما يفكر أحدهما بالآخر؛ لأن الكولونيل يفكر بسيدة منزلنا، أنا مقتنع بهذا. أما هي، ورغم ذلك، فتضحك عليه دون أن يشعر، بأسلوب لا يخلو من الدلع تماماً، وهي تدعوه بالكولونيل بلوندر أو بطلنا الشجاع. في بعض الصباحات تكون حواف عينيها محمرةً وكأنها كانت تبكي طوال الليل. هل كانت تؤنب نفسها بسبب كل ما حدث وتتحسر عليه حتى الآن؟ يا له من قارب صغير محمل بالحزن، ذاك الذي كنا نبحر فيه في هذا الصمت الأخرس نشق عباب الظلمة الخريفية.

كان ذلك في ليلة خاصة كنتُ أفكر فيها بعائلة غريس، وأنا مستلقٍ في سريري المعدني الضيق في الكوخ تحت النافذة المفتوحة، أستمع لتلاطم الأمواج المتكسرة بقوة وتكرار رتيب أسفل الشاطئ، وللصرخة المنفردة لطائر بحري لم ينم، وأحياناً، للقعقعة البعيدةٍ لطائر صفرد، وللأنين الجازيّ الخافت للفرقة الراقصة في فندق الجولف وهي تؤدي آخر رقصة فالس هادئة، ولأمي وأبي في الغرفة الأمامية كانا يذهبان لبعضهما البعض ويتصارعان بصوت خفيض، هما يعتقدان أنني نائم، كانا يتطاحنان كلّ ليلةٍ، كلّ ليلةٍ، هكذا حتى آخر ليلة غادرنا فيها أبي، ولم يعد أبداً. غير أن ذلك كان في شتاءٍ ومكانٍ آخرين، وقبل سنوات مضت.

لأمتنع عن محاولة الإنصات لما كانا يقولانه، كنت أشتتُ انتباهي باختلاق مشاهد درامية. أنقذتُ فيها السيدة غريس من كارثة فادحة ومهولة بعض الشيء، كحطام سفينة أو عاصفة مدمرة، واحتجزتها لضمان سلامتها في كهفٍ، بسيطٍ ودافئ كفايةً، حيث في ضوء القمر- وبعد أن غرقت السفينة وهدأت العاصفة- ساعدتُها بلطف وحنان للتخلص من بدلة سباحتها المبللة، ولففتُ منشفةً حول عريها الفسفوري، وتمددنا وأسندتْ رأسها على ذراعي ولمستْ وجهي بشعور من الامتنان واللهفة، وهكذا استسلمنا للنوم معاً، هي وأنا، محاطَين بالليلة الصيفية العذبة والرائعة.

في تلك الأيام كنت منبهراً جدّاً بالآلهة، أنا لا أتحدث عن الإله، بالأحرف الكبيرة[28]، لكني أعني الآلهة عموماً. أو الفكرة عن الآلهة، والتي هي احتمالية الآلهة. كنتُ قارئاً متقداً ولديّ معرفة لابأس بها بالأساطير الإغريقية، بالرغم من الصعوبة التي كانت في تتبع

28- يعني هنا الفرق بين كلمتي God وgod وينوه بشكل غير مباشر إلى أن الأولى دلالة عن الله عز وجل الخالق العظيم، والاخرى الآلهة التي من صنيعة البشر.

المخلوقات الموجودة فيها، التي مراراً حولت نفسها وكانت مغامراتها متنوعة للغاية.

استنبطتُ منهم لا محالة صورةً نمطيةً- مجسماتٍ لدائنية كبيرة وشبه عارية، بعضلاتٍ ناتئةِ العروق وأثداءٍ أشبه بالأطباق المستديرة المقلوبة- مستوحاة من أعمال الفنانين العظماء في عصر النهضة الإيطالي، مايكل أنجلو على وجه الخصوص، ومستنسخة من رسومات فنية لابد وأني رأيتها في كتابٍ أو مجلة، أنا الذي كنتُ مترصداً لنماذج عن الجسد العاري. كانت تلك بالطبع المآثر الإيروتيكية لهذه الكائنات الأسطورية التي شغل معظمها مخيلتي. أتخم التفكيرُ في كل ذلك الجسد العاري المشدود والمرتعش، الذي لم يقيده سوى رداء أو قطعة قماش موضوعة بالمصادفة فوق الثنايا المرمرية فيه- مصادفة، ربما، لكنّها واقية بالكامل ومزعجة من باب الاستحياء كمنشفة روز، أو بدلة سباحة كوني غريس- مخيلتي الساذجة والمحمومة بأحلام اليقظة عن الحب وآثامه، كل ذلك في نهج ثابت من المطاردة والاستحواذ والانغماس العنيف. لم يكن لديّ فهمٌ واف لتفاصيل هذه المناوشات في الرمال الذهبية الإغريقية. تخيلتُ الدفق وارتعاش الفخذين السمراوين من حيث انكمشت العورة الشاحبة وحتى استسلامهما، وسمعتُ آهات من خليط النشوة والهياج اللذيذ. ومع ذلك، كانت الآلية التي تُمارس بها العملية خارج نطاق فهمي. ذات مرة في تجوالي على طول الممرات الشوكية في الجحر (كما كان يسمى)، كما ذلك الشريط من الأحراش بين شاطئ البحر والساحات، كدتُ أتعثر فوق رجل وامرأة يضجعان في حفرة رملية ضحلة بعض الشيء ويمارسان الحب تحت معطف مطري. كان قد أدى مجهودهما إلى انزياح المعطف، لذلك غطا وجهيهما دون جذعيهما- أو ربما رتبّا الأمر هكذا، وقد فضّلا إخفاء وجهيهما، الأكثر قابلية للتمييز من مؤخرتيهما- رؤيتهما هناك، وخاصرتا الرجل تتحركان بنشاط وعلى نحو إيقاعي في عظم الفخذين العلوي

لساقي المرأة المرفوعتين والمفتوحتين باتساع، جعل شيئاً ما يتضخم ويثقل في حنجرتي، وأدى لتدفق دم نتيجة للإثارة والشعور بتقزز مع سعادة غامرة. إذاً هذا، ما فكرتُ به، أو كان اعتقادي، أن هذا ما يفعلانه.

هو الحب بين الأشخاص البالغين. كان من الغريب تخيلهم ومحاولة تخيلهم، يتعاركون على أسرّتهم الإغريقية في ظلام الليل برفقة حصرية والنجوم فقط من تراهم، نهمين متعانقين، ومتلهفين محبةً، يصرخون من اللذة والمتعة كما لو أنّهُ صراخٌ من الألم.

كيف برروا هذه الممارسات الليلية لذواتهم في وضح النهار؟

ذلك ما حيرني كثيراً. لماذا لم يشعروا بالخجل؟ في صباح الأحد، على سبيل المثال، يصلون إلى الكنيسة وهم مخدرون من حفلات السمر في ليال السبت. يحييهم الكاهن في الرواق، يبتسمون ببراءة ويغمغمون بعبارات طيبة. تغطس المرأةُ أصابعها في جرن المعمودية، تمزج آثار عصارة الحب الدبقة بالماء المقدس. تحت أفضل الملابس ليوم الأحد تحتك أفخاذهم بلذة مستعادة. يركعون، بلا اكتراث لنظرات العتاب الحزين لتمثال مخلصهم المنتصب على الصليب أمامهم. بعد غداء منتصف نهار الأحد ربما سيرسلون الأطفال للخروج للعب وينكفؤون في ملاذ غرف نومهم المغطاة بالستائر ويمارسون ذلك مرة أخرى، متجاهلين مخيلتي المحتقنة بالدماء المستقرة فوقهم دون حراك. أجل، لقد كنتُ من ذلك الصنف من الأولاد. أو بتعبير أفضل، لا يزال شيء مني ينتمي لذلك الصبي الذي كنته آنذاك. صبي طائش، بتعبير آخر، فتى صغير بفكر قذر. إذا ما كان هناك أي تصنيف أخرى. نحن لا نكبر أبداً. أنا لم أكبر أبداً، على كل حال.

في النهار كنت أتسكع بالقرب من ستيشن رود (طريق المحطة)على أمل أن ألمح السيدة غريس. كنت أعبر قريباً من البوابة المعدنية

الخضراء، متباطئاً إلى وتيرة السير أثناء النوم، وكانت ستهمُّ بالخروج من البوابة الأمامية كما خرج زوجها في ذلك اليوم وحظيت برؤيته لأول مرة، لكنها كانت تصر على البقاء في الداخل. في حالة من اليأس كنت أنظر وأنا مارٌ بالمنزل حتى حبل الغسيل في الحديقة، لكن كل ما رأيته هو ملابس الأطفال المغسولة، سراويلهم القصيرة وجواربهم وقطعة أو قطعتين من ملابس كلوي التحتانية البالية على نحو غير مثير للاهتمام، وبالطبع السراويل التحتانية الرمادية المتدلية لوالدهم، وحتى قبعته دلو الرمل، كانت معلقة بطريقة جذابة. كان الشيء الوحيد الذي رأيته من ملابس السيدة غريس، بدلة السباحة السوداء، معلقة بأحزمة الأكتاف، متهدلة ومكشوفة بطريقة فاضحة، جافة بحلول ذلك الوقت وأقل شبهاً بجلد فقمة منها عن جلد نمر. نظرتُ عبر النوافذ، أيضاً، ولاسيما غرف النوم في الطابق العلوي، والتي كوفئتُ ذات يوم- كم نبض قلبيّ بشدة!- بإلقاء نظرة خاطفة خلف جزء مظلل لما بدا أنه فخذ عاري الذي كان فخذها فحسب. بعد ذلك تحرك جسد المعشوقة والتفتَ نحو كتف كثيف بالشعر لزوجها، وهو يقف ويمد يده للحصول على لفة الورق الصحي.

ثمة يوم كان الباب مفتوحاً، لكن روز هي التي خرجت، ورمقتني بنظرة جعلتني أخفض عيني وأسرع هارباً. نعم، فقد كانت روز تفهمني منذ البداية. ومازالت بلا شك.

لقد عقدتُ العزم لدخول المنزل والسير حيث سارت السيدة غريس، والجلوس حيث جلست، ولمس الأشياء التي لمستها. لهذه الغاية شرعتُ في التعرّف إلى كلوي وشقيقها. كان الأمر سهلاً، كهذه الأشياء التي كانت في الطفولة، حتى بالنسبة لطفل يتسم بالحذر كما كنتُ.

في ذلك العمر، لم نكن نتبادل الأحاديث القصيرة، ولا خبرة لدينا بطقوس المبادرات واللقاءات المهذبة، لكن كنا، بكل بساطة، نجلس

بجوار بعضنا البعض وننتظر لنرى ما الذي سيحدث. رأيت التوأمين يتسكعان على الحصى خارج مقهى ستراند ذات يوم، تجسست عليهما قبل أن يتجسسا علي، وعبرتُ الطريقَ قطرياً إلى حيثُ كانا واقفين، وتوقفت. كان ميلز يأكل الآيس كريم بتركيز عميق، كان يلعقها بالتساوي من جميع الجوانب كما تلعق قطة أبناءها، في حين انتظرته كلوي، على ما أعتقد، في حالة من الخمول بعد أن أنهت الآيس كريم خاصتها، متكئة على الجدار في مدخل المقهى وقد ضغطت بإحدى قدميها التي ترتدي صندلاً على مشط القدم الأخرى ووجهها مرفوع بوضوح نحو أشعة الشمس. لم أتلفظ بأيّ شيء، ولا هما. وقفنا ثلاثتنا هناك تحت أشعة الشمس الصباحية وسط رائحة النباتات البحرية والفانيليا ورائحة تحضير القهوة في مقهى ستراند. في النهاية أخفضت كلوي رأسها واتجهت بنظرها نحو ركبتي وسألت عن اسمي. عندما أخبرتُها به، كررته كما لو أنه عملة مشبوهة كانت تختبرها بين أسنانها.

قالت: «موردن؟». «أي نوع من الأسماء هو؟»

سرنا ثلاثتنا ببطء نحو ستيشن رود (طريق المحطة)، كلوي وأنا في المقدمة، وميلز وراءنا يقفز عند أكعابنا تقريباً. قالت كلوي بأنهم أتوا من المدينة. لم يكن من الصعب بالنسبة لي تخمين ذلك. سألتني أين أقيم. أومأتُ بغموض.

قلتُ: «هناك في الأسفل، مباشرة قبل الكنيسة»

بنبرة سريعة قالت: «في منزل أم فندق؟». فكرتُ بالكذب والقول: «في فندق الجولف، في الوقت الحالي» لكني رأيتُ أين يمكن أن تقودني تلك الكذبة.

قلتُ مغمغماً: «في كوخ ريفيّ».

أومأتْ بتمعن وتفكر. ثم قالت: «في حين تمنيتُ الإقامة في كوخ ريفيّ».

هذا لم يكنْ جواباً مريحاً بالنسبة لي. وعلى النقيض من ذلك، فقد دفعني لاستحضار صورة خاطفة؛ لكنها شديدة الوضوح للمبنى الخشبي الخارجي والمائل قليلاً المنتصب وسط شجيرات الترمس على الجانب الآخر من نافذة سريري، حتى بدا أني شممت نفحة خشبية جافة من المربعات المهترئة لورق صحف معلقة على مسمارها الصدئ داخل الباب مباشرة.

وصلنا سيدارز، وقفنا عند البوابة. كانتِ السيارةُ مركونة على الحصى؛ إذ عادت للتو من الخارج، حيث مازال مبرد المحرك يطقطق بلسانه على نفسه كتعبيرٍ عن تذمرٍ مفرط. استطعتُ الإصغاء على نحوٍ غير واضح لنغمات عاطفية رقيقة قادمة من داخل المنزل تعزفها أوركسترا بالم كورت[29] في الراديو، وقد تخيلتُ السيدةَ غريس وزوجها يرقصان معاً هناك، ويتمايلان بين أثاث المنزل، هي برأسها المائل للوراء ورقبتها المكشوفة وهو بحركته السريعة على رجلين خلفيتين مشوبتين بالفراء لإله إغريقي ومبتسماً نحو الأعلى قريباً من وجهها بكل لهفة -كان أقصر منها ببوصة أو اثنتين- وكل أسنانه الصغيرة الحادة ظاهرة وعيناه بلونهما الأزرق الثلجي قد تألقتا بشبق مرح. كانتْ كلوي ترسم أنماطاً في الحصى بوساطة مقدمة صندلها. على ربلتي ساقيها كان ثمة شعر أبيض ناعم، لكنهما كانتا مصقولتين ولامعتين كالحجارة الكريمة. فجأة، قفزَ ميلز قفزةً صغيرة أو بالأحرى وثبَ وثبةً سريعةً، على سبيل المرح، لكنها تمت

29- يستخدم مصطلح بالم كورت لوصف أوركسترا صغيرة تعزف موسيقا كلاسيكية خفيفة. انتشرت فرق الأوركسترا الصغيرة في المنتجعات في أوربا منذ أواخر القرن التاسع عشر.

بتلقائية، أشبه بعقارب الساعة التي عادت للعمل بطريقة مفاجئة، ثم ضربني بأسلوب هزلي على مؤخرة رأسي بكفه المفتوح ثم استدارَ، وبضحكة مكتومة اندفع بخفة فوق قضبان البوابة وسقط على الحصى في الجهة الأخرى والتّفَ في مكانه؛ ليواجهنا ثم جثى على ركبتيه وثنى مرفقيه كبهلوان يطالب بحقه في التصفيق. لوت كلوي قسمات وجهها وأرخت زاوية واحدة من فمها نحو الأسفل. قالتْ بنبرةٍ ممزوجةٍ بالاستياء والضجر: «لا تكترث به، هو لا يستطيع الكلام».

كانا توأمين. لم أكن قد التقيتُ بتوأمين بشحمهما ولحمهما، كنتُ مفتوناً بهما وفي الوقت ذاته، مشمئزاً قليلاً. هناك، على ما يبدو بالنسبة لي، شيءٌ ما مربك في مثل هذه الحالة. بالمناسبة، لقد كانا أخاً وأختاً ولذلك لا يمكن أن يكونا متطابقين- التفكير العميق بالتوائم المتطابقة يثير لدي قشعريرة نتيجة لشعور غامض وسري بالإثارة على طول عمودي الفقري- ولكن لابد من وجود علاقة عميقة وحميمية بينهما. كيف يمكن لها أن تكون؟ أهي شبيهة بمن يملك عقلاً واحداً وجسدين؟ ولو أن الأمر كذلك فقد كان مقززاً التفكير به.

تخيل بطريقة أو بأخرى أنك على معرفة تفصيلية، ومن الأعماق، لما كان عليه جسد آخر يشبهك، بأجزائه المختلفة، وروائحه المختلفة ودوافعه المختلفة. كيف كان، وكيف يمكن أن يكون؟ هذا ما حرصتُ على معرفته. في دار السينما الجوالة ما بعد ظهيرة يوم أحد رطب- كنتُ أجلس في المقدمة- بينما كنا نشاهد فيلماً قام فيه اثنان من الجناة بالهرب وهما مازالا في قيد واحد معاً، إلى جواري أصدرتْ كلوي صوتاً مكتوماً، بشيء من السخرية وهمست: «انظر، إنهما ميلز وأنا». أصابتني الدهشة، وشعرت باحمرار وجنتي، وابتهجتُ مسروراً في الظلام. ربما كانت تعترف بشيء حميمي ومخجل. ومع ذلك فقد كانت

هذه هي الفكرة ذاتها عن الاختلاف من مثل هذه المسافة القريبة التي جعلتني متحمساً لأعرف المزيد، متحمساً، ولكن مشمئزاً.

ذات مرة- كانت أهذه أطول خطوة أخطوها نحو الأمام- عندما استجمعتُ شجاعتي لأطلب من كلوي على نحوٍ مباشر لتخبرني؛ لأني كنت تواقاً لأعرف، ماذا كان يشبه شعورها، في هذه العلاقة الحميمية التي لا مفر منها مع شقيقها- توأمها!- فكرتْ للحظة ثم رفعت يديها أمام وجهها، وراحتا يديها تنطبقان دون أن تتلامسا تماماً. قالت: «كقطبي مغناطيس، لكنهما تحولا في الاتجاه الخاطئ، في حالة من التجاذب والتنافر». بعد أن قالت ذلك صمتت بعمق، كأنها في هذه اللحظة اعتقدت بأنها تركت سرّاً مخزياً يسقطُ منها، ثم استدارت بعيداً عني حيث شعرتُ للحظة من الزمن بشيء من دوار نوبة الذعر نفسها الذي شعرت به عندما حبستُ أنفاسي لمدة طويلة تحت الماء. لم تكن على الإطلاق سوى فتاة مثيرة للقلق، تلك كانت كلوي.

كان الرابط بينهما واضحاً. لقد تخيلته على أنه خيط رفيع من شيء لزج ولامع، كخيط العنكبوت، أو كالخيوط اللامعة كالتي يتركها الحلزون معلقة عند عبوره من ورقة إلى أخرى، أو قد يكون خيطاً صلباً لامعاً ومشدوداً كوتر القيثارة أو سلك الإعدام. كانا مرتبطين ببعضهماً البعض، ملتصقين معاً ومقيدين بقيد واحد. كانا يشعران بمشاعر مشتركة من الألم والعواطف والمخاوف. تقاسما الأفكار. كانا يستيقظان في الليل ويستلقيان ليستمع كل منهما لأنفاس الآخر، مدركين بأنهما يحلمان بذات الحلم. لم يخبر أحدهما الآخر بما كان في الحلم. لا حاجة. فهما يعرفان ذلك.

كان ميلز صامتاً منذ ولادته، بالأحرى، وبكل بساطة، لم يتكلم قط. لم يستطع الأطباء إيجاد أي سبب من شأنه تفسير سر صمته العنيد،

وصرّحوا بأنفسهم عن حيرتهم، أو تشككهم، أو عن الاثنين معاً. في البداية كانت التوقعات بأنه تأخر في النطق وسوف يبدأ الكلام في الوقت المناسب كأي شخص آخر، لكن السنوات مرت ولم ينطق بكلمة واحدة. سواء كانت لديه القدرة على الكلام أم كان الأمر خارج إرادته، كما يبدو، لا أحد يعرف ذلك. هل كان أخرساً أم صامتاً، صامتاً أم أخرساً؟ هل كان لديه صوت لم يستخدمه أبداً؟ هل كان يتمرن عندما لا يكون هناك من يسمعه؟ تخيلتُهُ ليلاً، في السرير، تحت الأغطية يهمس لنفسه ويبتسم تلك الابتسامة الجذابة. أو ربما كان يكلم كلوي. كيف سيبادران بالضحك، الجبين على الجبين وقد طوق أحدهما بذراعيه عنق الآخر، يتشاركان سرّهما.

«سيتكلم عندما يجد شيئاً ليقوله» يدمدم والده، مع ابتهاجه الواعد المعتاد.

كان من الواضح أن السيد غريس لم يكترث بابنه. لقد تحاشاه قدر استطاعته، وكان لا يرغب في البقاء معه بمفرده خاصةً. هذا لم يكن مثيراً للعجب؛ لأن الخلوة مع ميلز كان أشبه بالبقاء في غرفة قد غادرها شخصٌ ما للتو على نحو عنيف. كان خرسه طوفاناً كاسحاً وغزيراً. لم يقل شيئاً لكنه لم يكن صامتاً أبداً. ما دام أنه كان يعبث بالأشياء، ينتزعها ويرميها على الفور مرة أخرى بصخب. كان يصدر أصوات نقرات صغيرة وجافة عند مؤخرة حلقه. ليسمعه أحدهم أنه يتنفس.

عاملته أمه بشيء من الغموض المبالغ به. في أوقات وبينما كانت تترنح شاردة الذهن في يومها- رغم أنها لم تكن مدمنةً خطيرة ما دامت قد تطلعت لتكون في حالة سكر خفيف- كانت تتوقف، ويبدو أنها لاحظته دون اهتمام خاص به، تتجهم وتبتسم في الوقت نفسه، على نحو يعبر عن الحزن والعجز.

أيٌّ من الوالدين لم يكن بوسعه إتقان لغة الإشارة المناسبة، وكل منهما تكلم مع ميلز بطريقة استعراض غبي ومرتجل ومستعجل والتي بدت على الأقل محاولة للتواصل وعلى الأكثر تلويحة نافذة الصبر لطرده بعيداً عن الأنظار. رغم أنه كان يفهم بما فيه الكفاية ما كانا يحاولان قوله، وفي معظم الأحيان قبل أن يكونا في منتصف المحاولة لقول ذلك، الأمر الذي جعلهما أكثر نفاذاً من الصبر وأكثر حنقاً معه. أنا على يقين، من الأعماق كان كلاهما خائفين قليلاً منه. لا عجب من ذلك أيضاً. لابد أنه كان كالعيش مع روح شريرة مرئية وحقيقية للغاية.

من جهتي، رغم أني خجل، أو على الأقل ينبغي أن يشعرني ذلك بالخجل، القولُ إن أكثر شيء ذكرني به ميلز كان كلباً حصلتُ عليه ذات مرة، هو كلب صيد شرس لا يمكن لجمه وكنت مغرماً للغاية به، لكن في بعض الأحيان، عندما لا يكون هناك أحدٌ في الجوار كنتُ أضربه بقسوة، يا لبونجو المسكين، من أجل لذة حارة ومبهجة كنتُ أستمدها من صرخات ألمه وأنينه التوسلي.

أيُّ أصابع شبيهة بفروع الأغصان كانت لدى ميلز؛ أي رسغين هشين كانا له!!كان يهمزني، ويشدني من كمي، أو يمشي على أعقابي ويحشرُ رأسه مبتسماً مراراً وتكراراً من تحت ذراعي، لأستدير نحوه، وأنقلب عليه وأبطحه على الأرض في نهاية المطاف، والذي كان من السهل قيامي به، لأني كنت كبيراً وقوياً آنذاك، وأطول من قمة رأسه. مع ذلك، عندما كان منبطحاً في الأسفل، كان ينتابني سؤال حول ما سأفعله به؛ لأنه مالم يُكبَح فسوف ينهض مرة أخرى في الحال وسوف يتكور حول نفسه أشبه بدمية كرتونية تنتصب بمفردها، ثم يقفز دون عناء على أصابع قدميه. عندما جلستُ فوق صدره شعرت بنبض قلبه على فخذي، وبجهد قفصه الصدري ورفرفة الجلد المشدود المقعر تحت عظام صدره، كان يضحك وهو ينظر نحوي في الأعلى، لاهثاً، وهو يمدّ

لسانه الرطب عديم الفائدة. لكن هل كنتُ أنا أيضاً أخافه قليلاً، في أعماقي، أو في أي مكان قد يقيم فيه ذلك الخوف؟

وفقاً للقواعد الغامضة التي حكمتنا في طفولتنا- هل كنا أطفالاً؟ أعتقد أنه ينبغي أن تكون هناك كلمة أخرى لوصف ما كنّا عليه- لم يدعواني لدخول منزلهما في تلك المرة الأولى، بعد أن التقيت بهما أمام مقهى ستراند. في الحقيقة، لا أتذكر تماماً تحت أية ظروف تمكنتُ أخيراً من الدخول إلى سيدارز. أرى نفسي بعد ذلك اللقاء الأول أبتعد محبطاً عن البوابة الخضراء والتوأمان يراقباني وأنا أغادر، ثم أرى نفسي في يوم آخر داخل ذلك المكان المقدس نفسه، وكأني على طريقة ميلز السحرية في القفز فوق عارضة البوابة، قد قفزتُ فوقَ كل العقبات؛ لأحطَّ في غرفة المعيشة بجانب حزمة مائلة متشبثة بالمكان من ضوء الشمس النحاسيّ، برفقة السيدة غريس وهي ترتدي فستاناً فضفاضاً مزركشاً، ببراعم زرقاء فاتحة مع أخرى زرقاء داكنة، تلتفتُ عن الطاولة وتبتسم لي، ابتسامة غامضة متعمدة، تنم بوضوح عن عدم معرفتها لي ولكنها مع ذلك على دراية بما ينبغي أن تعرفه، الأمر الذي يدل على أن هذه لا يمكنُ أن تكون هي المرة الأولى التي تقابلنا فيها وجهاً لوجه. أين ذهبت كلوي؟ أين ذهب ميلز؟ لماذا تركاني بمفردي مع والدتيهما؟ سألتني إذا كنتُ راغباً بتناول شيء ما، كوب من الليمونادة، ربما، «أو» كما قالت بنبرة خافتة بعد محاولة يائسة، «تفاحة؟» هززت رأسي. فالقرب منها، ومجرد حقيقة وجودها، ملأني بالإثارة وبنوع غامض من الحزن. من يعرف اللوعة التي تخترق قلب فتى صغير؟ اتكأت برأسها على جانب واحد، كانت تبدو متأرجحة بين الحيرة والاستمتاع أيضاً، وقد عُقِدَ لساني، أمام رهبة حضورها. لابد أني قد بدوت أشبه بفراشة تحوم أمام لهب شمعة، أو كاللهب نفسه، يرتجف تحت وطأة حرارته المستنزَفة.

لكن ما الذي كانت تفعله عند الطاولة؟ هل كانت ترتب الزهور في إناء- أم كان ذلك من وحي خيالي أيضاً؟ ثمة رقعة متعددة الألوان في ذاكرتي لتلك اللحظة، ونور خاطف لتوهج ملون في كل مكان حامت حوله يداها. اسمحوا لي بالبقاء قريباً منها للحظة من الزمن، قبل أن تظهر روز وقبل أن يعود ميلز وكلوي من حيث كانا، وقبل أن يأتي زوجها الشهواني؛ حيث ستختفي تماماً في الحال بعيداً عن محور انتباهي. كم تتوهج بشدة أشعة الشمس تلك. من أي مكان تشرق؟ كانت لها طبيعة كنسية نوعاً ما، كما لو كانت، على نحو لا يصدق، تميل نحو الأسفل من النافذة المزججة المرتفعة فوقنا. وراء الشعاع المحترق للشمس كانت ثمة كآبة هادئة تهيمن على المنزل بعد إحدى ظهريات الصيف، حيث تمضي ذاكرتي في بحثها عن التفاصيل، والأشياء الراسخة، وذكريات الماضي. مازالت السيدة كوني كونستانس غريس، تبتسم لي بتلك الطريقة المبهمة، التي أعدها الآن، هي طريقتها الخاصة في النظر إلى كل الأشياء، كأنها لم تكن على قناعة مطلقة بثبات العالم وتتوقع ولو جزئياً أن يتحول كل شيء فيه، في أية لحظة، بشيء من الغرابة والهزلية، إلى شيء مختلف تماماً.

إذا ما دُفعتُ للتفكير بقول مثل هذا عن أي شخص، لقلتُ إنها جميلة، لكني أعتقد أنها لم تكن كذلك، حقاً. كانت ممتلئة الجسم إلى حد ما، وكانت يداها سمينتين وضاربتين إلى الحمرة، وثمة كدمة عند طرف أنفها، وخصلتان خفيفتان من شعرها الأشقر تواصلُ أصابعُها دفعهما خلف أذنيها، لتعاودا الانسياب نحو الأمام مرة أخرى، بلونهما الداكن أكثر من بقية شعرها، وملمسهما الدهني بعض الشيء كثمرة بلوط زيتية الملمس. كانت تمشي مشية متراخية، وعضلات وركيها تهتز تحت قماش ملابسها الصيفية الخفيفة. كانت رائحة العرق والقشدة الباردة تفوح منها، ورائحة خفيفة من دهون الطبخ. بتعبير آخر، هي مجرد امرأة أخرى، وأمٌّ أخرى، تتمتع بتلك المواصفات. بالنسبة لي كانت

في كل مواصفاتها المعتادة والجذابة من بعيد كأي حسناء حلوة باهتة برفقة وحشٍ وكتاب. لكن لا، ينبغي أن أكون مناصراً لنفسي، رغم أني كنت طفلاً، ورغم الرومانسية حديثة النشأة التي كنت أتمتع بها. فهي لم تكن باهتة، حتى بالنسبة لي، ولم تكن مغطاة بالأصبغة. كانت امرأة حقيقية بالكامل، بلحمها المكتنز،الصالح للالتهام تقريباً. كان هذا أكثر الأشياء المميزة فيها، حيث كانت في الوقت ذاته، شبحاً من نسج مخيلتي وامرأة لا يمكن تجاهلها من لحم ودم، من خلايا وعطر وجسد حليبي. أحلامي بإطلاق العنان والمداعبات الشهوانية قد أصبحت الآن تخيلات مشاغبة وواضحة وفي نفس الوقت ينقصها الكثير من التفاصيل الأساسية الميؤوس منها، من فرط الشهوة لديها، واستغراقها على الأرض تحت ثقل جسدها الدافئ، والترنح، ومطارحة الفراش، بين فخذيها، وذراعيّ على صدري ووجهي على النار، في تلك المرة التي كنت فيها حبيبها الشيطاني وطفلها.

في بعض الأحيان كانت صورتها تنبع في داخلي تلقائياً، كشيطانة داخلية، وموجة شوق ستبتلع جذور كياني. شفق مخضر بعد المطر، مع وتد من أشعة الشمس الرطبة في النافذة وطائر السمّن المغرد غير الموسمي يزقزق خارجاً في الترمس الذي يقطر بماء المطر، وأنا أضع وجهي على سريري بمثل هذا الاختناق الشديد برغبة لا يمكن التغلب عليها- كانت تحوم تلك الرغبة، كما تحوم هالة حول صورة معشوقتي، تلفها من كل مكان دونما تركيز على أي مكان- حيث انفجرتُ بتنهدات حادة عالية وعلى نحو يثير انتباهاً خارجاً عن سيطرتي. سمعتني أمي وجاءت لغرفتي، غير أنها لم تقل شيئاً، على غير عادتها- ربما توقعتُ استجواباً بفظاظة، متبوعاً بصفعة- فقط التقطتُ وسادة تلك النوبات من الحزن التي دفعتها خارج السرير، وبعد قليل من الفأفأة، خرجتْ مرةً أخرى، مغلقةً الباب خلفها بلا صوت. ماذا

تخيلتْ سبباً لبكائي، تساءلتُ، وها أنا أتساءل الآن مرة ثانية. ماذا لو أدركتْ بطريقة أو بأخرى، سبب حزني المهتاج الولهان؟ ليس بوسعي الجزم بذلك. كيف ستعرف، تلك التي كانت أمي فحسب، كيف ستعرف أي شيء عن هذه العاصفة من الشغف التي كنتُ معلقاً فيها بلا حول ولا قوة، حيث احترقت الأجنحة الضعيفة لمشاعري ونُسفت بشعلة الحب التي لا ترحم؟ أوه، يا أماه، كم كنتُ قاصراً عن فهمك، وأنا أظن أن فهمك لي كان قاصراً.

ها أنا ذا، في تلك اللحظة المقدسة، في المكان الذي أصبح فجأة محور العالم، مع رمح من ضوء الشمس وتلك الزهور الأثرية- أزهار الجلبان العطرة؟ على ما يبدو هذه المرة الأولى التي أرى فيها على الإطلاق نبات الجلبان العطر- والسيدة غريس الشقراء تقدم لي التفاحة التي كانت في مكان ما شاهدةً على ما يحدث، وكل شيء يكاد أن يتقاطع مع صرير صوت العجلات المسننة والقرقرة الرهيبة في أحشائي. بدأت شتى الأمور بدأت بالحدوث دفعة في آن واحد. عبر الباب المفتوح تسلل كلبٌ صغيرٌ أسود بوبر صوفي من الخارج- بطريقة ما انتقل صخبه في ذلك الحين من غرفة المعيشة إلى المطبخ- فيما أصدرتْ أظافرُه أصواتاً محمومةً على الأرضية المصنوعة من شجرة الصنوبر. كان يحمل في فمه كرةَ تنس. في الحال ظهرَ ميلزُ في مشهد المطاردة، مع روز التي كانت بدورها تطارده. تعثرَ ميلز أو تظاهر بالتعثر فوق سجادة ممزقة واندفع نحو الأمام مباشرة كي ينقلب رأساً على عقب ويقفز على قدميه مرة أخرى، كاد أن يصطدم بوالدته التي صرخت صرخة مختلطة من المفاجأة والانزعاج- «بحق السماء، كفى يا ميلز!»- بينما كان الكلب، الذي تدلّت أذناه، وغيّر وجهته واندفع تحت الطاولة، يلتقط الكرة بابتسامة عريضة. ضربت روز الحيوان ضربة مباغتة لكنه تفادها جانباً. في ذلك الحين ومن مدخل باب آخر، كما

الأب العجوز نفسه[30]، جاء كارلو غريس مرتدياً سروالاً قصيراً وصندلاً مع منشفة شاطئ كبيرة ملفوفة على كتفيه، وبطنه المكسو بالشعر مكشوف. فور رؤيته لميلز والكلب، أصدرَ هديراً من الغضب الزائف وضرب قدمَه بالأرض مُهدداً، فرمى الكلب الكرة من فمه، ثم توارى برفقة الصبي خلف الباب على عجالة كما دخلا. ضحكتْ روز بصوتٍ عالٍ، ونظرت بسرعة نحو السيدة غريس، ثم كتمت ضحكتها. طُرق الباب وبصدى سريع طُرق باب آخر في الطابق العلوي، حيث هدأت قرقرات المرحاض الذي كان يعمل قبل لحظات. تدحرجت ببطء الكرة التي أوقعها الكلب، لامعة من البصاق، في منتصف الأرضية. السيد غريس، الذي رآني، دخيلاً- لابد أنه نسي يوم الغمزات الودية المتواطئة ذاك- نظر نظرة مزدوجة، ملتفتاً برأسه للوراء وهو يلوي وجهه من جانب واحد وينظر نحوي نظرة متفحصة من جانبي أنفه. سمعتُ كلوي وهي تنزل إلى الطابق السفلي، وتضرب بصندلها الدرج. عند دخولها إلى الغرفة كانت قد قدمتني السيدة غريس إلى زوجها، أعتقد أنها المرة الأولى في حياتي التي فيها أُقدَم فيها بصورة رسمية إلى أي شخص، حيث اضطررتُ لذكر اسمي؛ لأن السيدة غريس لم تكن قد حفظته بعد، كان السيد غريس يهزّ يديّ باستعراض لتقدير زائف، وهو يخاطبني بسيدي العزيز! وبلهجة مواطني لندن معلناً أن أي صديق لأولاده سيكون مُرحباً به في العائلة. أدارتْ كلوي عينيها مطلقة لهاثاً مرتجفاً من الاشمئزاز. «فلتصمتْ يا أبي» قالت بأسنان مطبقة بإحكام، وهو، بادعاء الخوف منها، ترك يديّ ولفّ المنشفة الشبيهة بالشال فوق رأسه وهرع على رؤوس أصابعه للخروج من الغرفة وهو يصدر صريراً كصرير الخفافيش الصغيرة متظاهراً بالرعب والفزع. كانت السيدة

30- الأب العجوز للتعبير عن الزمن برجل مسن يرتدي ثوباً أبيض، ولحية بيضاء ويحملُ منجلاً.

غريس تشعل سيجارة. كلوي ودون أن تلقي ولو حتى نظرة اتجاهي، عبرتْ الغرفة إلى الباب الذي غادر منه والدها. صرختْ وراءه: «أحتاجُ إلى توصيلة». بينما أُغلِق باب السيارة بعنف، ودار المحرك، وراحت الإطارات الكبيرة تهرس الحصى. عند ذلك قالت كلوي: «اللعنة».

كانت السيدة غريس التي تتكئ على الطاولة - التي زُينَت بأزهار الجلبان العطرة فوقها؛ لأننا كالسحر عدنا إلى غرفة المعيشة مرة ثانية- تدخنُ سيجارتها على طريقة النساء في تلك الأيام، بذراع مطوية على امتداد حجابها الحاجز ومرفق الذراع الأخرى يستند في راحة اليد. رفعت حاجبها في وجهي وابتسمت بتهكم وهزت كتفيها، وقد نزعت جزءاً ضئيلاً من التبغ العالق على شفتها السفلى. انحنت روز مكشرة أنفها باشمئزاز والتقطت الكرة الملطخة بالبصاق بين إصبعها وإبهامها. من الجانب الخارجي للبوابة أُطلق بوق السيارة بفكاهة مرتين وسمعنا السيارة تبتعد. كان الكلب ينبحُ بشدة، ليُسمح له بالدخول مرة أخرى ليسترد الكرة.

بالمناسبة، لم أر أبداً ذلك الكلب مرة أخرى. من كان صاحبه؟

ثمة شعور غريب بالخفة اليوم، بشيء سأطلق عليه، شعوراً بالتلاشي.

ها هي الرياح تهبُّ مرة ثانية، إنها تعصف بقوة إلى حد ما هناك، والذي لابد أنه سببٌ لهذا الدوار الذي أشعر به. كنتُ دائماً حسّاساً تجاه تقلبات الطقس ومخلفاتها. في طفولتي كنت مولعاً بالتكور بجوار المذياع في عشية الشتاء والاستماع إلى التنبؤات الجوية الخاصة بحركة الملاحة، متخيلاً كل كلاب البحر الشجاعة تلك في جلودهم المقاومة للماء، يصارعون في حوض مائي عالي الموج على ضفة فوغر وديشر وجودريل[31]، أو في أي مكان بعيد من تلك المناطق التي يطلق عليها مناطق بحرية هائجة. في معظم الأحيان وأنا رجلٌ بالغٌ، كان ينتابني الشعور ذاته أيضاً،

31- ضفاف عالية الموج في بحر الشمال.

عندما كنتُ هناك برفقة آنا في منزلنا القديم الرائع بين الجبال والبحر، حيث كانت رياح الخريف تتأوه في المداخن، والأمواج تتجاوز السور البحري في اكتساح لزبد أبيض حار. قبل أن تنفتحَ الهاويةُ تحت أقدامنا في ذلك اليوم عندما كنا في شقة السيد تود- التي عندما أفكر بها، أشعر أنها كانت تتمتع بأجواء صالون حلاقة فاخر ومرعب- في معظم الأحيان كانت تنتابني الدهشة عند التفكير في الأشياء الجيدة في الحياة التي مُنِحَت لي. إذا ما سُئل ذلك الطفل الحالم في جوار المذياع، عما يريد أن يكونه عندما يكبر، فأنا على يقين أنه سيقول ما أصبحتُ عليه الآن بطريقة ما، ولو على نحو متردد. هذا شيء رائع، باعتقادي، حتى بعد مراعاة أحزاني الحالية. ألا يعاني معظم الرجال من خيبة الأمل في نصيبهم من الحياة، ويتألمون في يأس هادئ في قيودهم؟

أتساءلُ عما إذا كان الآخرون قد تخيلوا مثل هذه التخيلات عندما كانوا أطفالاً، هذه التخيلات الخفية والدقيقة بآن واحد، لما سيصبحون عليه عندما يكبرون. أنا لا أتكلم عن الآمال والتطلعات، والطموحات الغامضة، وذلك النوع من الأفكار. منذ البداية، كنتُ دقيقاً جدّاً وواضحاً في توقعاتي. فأنا لم أرغب في أن أصبح سائق مركبة أو مستكشفا مشهوراً. عندما أنعم النظر بامتنان في مشهد ضبابي بدءاً من كل الأشياء الواقعية للغاية في ذلك الحين وحتى الأشياء التي استذكرها بسعادة في الوقت الحاضر، فإن هذا، كما قلتُ، هو بالضبط ما توقعته لنفسي في المستقبل، رجل المصالح المتمهلة والطموح المتواضع يجلس في غرفة مثل هذه فحسب، على كرسيٍّ مغزلي، ويتكئ على طاولتي الصغيرة، في هذا الموسم بالذات، حيث تقترب السنة من نهايتها في طقس محتمل، والأوراقُ تتطاير، والسطوع يتلاشى تدريجياً من النهارات ومصابيح الطرقات تأتي بالقليل منه، فحسب، في كل مساء. أجل، هذا ما فكرت به حول ما ستكون عليه مرحلةُ البلوغ، ضرباً من صيف هندي حار طويل، وحالة

من الطمأنينة والهدوء، واللامبالاة الرصينة، مع تلاشي ما تبقى بالكاد من العفوية البريئة لمرحلة الطفولة، مع تفسير كل الأشياء التي كانت تحيرني عندما كنتُ صغيراً، ووضوح كلّ الأشياء الغامضة، والإجابة عن كلّ الأسئلة، كل هذا واللحظات تمر مرور الكرام وتتلاشى قطرةً تلو قطرة، نحو الهدوء الأبدي، الذي سيمر مرور الكرام أيضاً.

بالطبع كانت ثمة أمور، الصبي الذي كنتُ عليه آنذاك، لم يسمح لنفسه أن يفكر بها في ترقبه المتحمس، حتى وإن كان قادراً على ذلك. الخسارة، والحزن، والأيام الكئيبة، وأرق الليالي، لم تكن ثمة نزعة لتصور مثل هذه المفاجآت على لوح خيال تنبؤي.

ومن ثم، أيضاً، عندما أتأمل المسألة عن كثب، أرى أن نسخة المستقبل التي تخيلتها وأنا صبيّ، قد اكتسبت طابعاً غريباً قديماً. العالم الذي أعيش فيه الآن، كان سيكون، في تصوري حينئذ، على الرغم من نظرتي الحادة، مختلفاً عما هو عليه في الواقع، ولكن على نحو طفيف؛ كان سيكون، كما أراه، عالماً من القبعات المائلة والمعاطف الطويلة والسيارات الكبيرة المربعة مع الدمى الملتصقة بأغطية محركاتها. متى أدركت هذه الأمور، حتى استطعت تصويرها بدقة شديدة؟ باعتقادي لأني كنتُ غير قادر على تصور ما سيبدو عليه المستقبل ولكني كنتُ واثقاً بأني سأكون فيه شخصاً ذا شأن، لابد أن أُمنح كل مقومات النجاح كما شاهدتها بين الناس العظماء في بلدتنا، الأطباء منهم والمحامين والصناعيين الريفين الذين عمل معهم والدي بكل تواضع، إضافة إلى البقية المتبقية من طبقة النبلاء البروتستانت الذين لا يزالون يتشبثون بقصورهم الكبيرة في طرق البلدة الجانبية المغطاة بالشجر.

ولكن لا، ليس هذا هو الحال أيضاً. فهو لم يأخذ وفقاً لذلك على نحوٍ كاف المحيط الذي عفا عليه الزمن قليلاً والذي اجتاح حلمي بما سيأتي.

كانت التخيلات الدقيقة التي استمتعتُ بها بنفسي، بوصفي شخصاً بالغاً- جلس، على سبيل المثال، في بدلة مقلمة من ثلاث قطع، وقبعة فيدورا، في المقعد الخلفي لسيارة من نوع هامبر هوك مع سائق، ودثار فوق ركبتي- مُشَبّعة بتلك الأناقة المهترئة والمرهقة للعالم، وبذلك الاتزان الهش، الذي أرجعته، أو أرجعه الآن على الأقل، لزمن قبل زمن طفولتي، تلك العصور القديمة الحديثة التي كان العالم فيها غارقاً بين الحروب. إذن ما توقعتُه بالنسبة للمستقبل كان في الحقيقة صورةً لما يمكن أن يكون مجرد ماض متخيل. لم أكن، ربما يقول أحدهم، شديد الترقب للمستقبل متلهفاً له، لأن ما كان سيأتي إلى مخيلتي كان قد مضى بالفعل. وفجأة في الوقت الحالي يصدمني هذا على نحو لافت بعض الشيء. هل كان المستقبل حقّاً هو ما كنتُ أتطلع إليه، أو كان شيئاً ما وراء المستقبل؟

الحقيقة، كل الأشياء التي بدأت بالحدوث معاً، الماضي والمستقبل الممكن والحاضر غير الممكن. في الأسابيع الضبابية من الذعر النهاري والهلع الليلي قبل أن تصبح آنا أخيراً في مواجهة للاعتراف بيقين السيد تود وخططه العلاجية وجرعاته، بدا وكأنني أعيش في عالم سفلي مضاء بأضواء خافتة يصعب التمييز فيه بين الحلم واليقظة، فكلاهما اليقظة والحلم بذات التركيبة المخملية الداكنة، القابلة للاختراق، والتي كنت أتحرك فيها على هذا النحو وذاك في حالة من السبات المحموم، كأنني أنا وليست آنا من سيصبح عما قريب ظلاً آخر بين الظلال العديدة الأخرى. كان نموذجاً مروعاً من ذلك الحمل الواهم الذي اختبرتُه عندما عرفتْ آنا لأول مرة بأنها تنتظر كلير؛ بدا بأني كنتُ أعاني معها من مرض وهمي. على كل الجهات كانت ثمة نذور عن الموت. لقد تعذبتُ بالمثل؛ فقد عادتْ للذاكرة فجأة أشياءُ منسية منذ وقت طويل؛ وطافت الأشياء التي ضاعت لسنوات على السطح. بدا وكأن حياتي تمر أمامي، ليست على نحو سريعٍ كما يقال حول من هم على وشك

الغرق، لكن على هيئة اختلاج بطيء، حيث تفرغُ جعبتها من الأسرار والألغاز اليومية استعداداً للحظة التي يجب القفز فيها نحو القارب الأسود في النهر المظلم وعُملة مرور باردة في يدي الباردة في الأصل. غريب كما كان، هذا المكان المتخيل قبل الرحيل الذي لم يكن غير مألوف تماماً بالنسبة لي. في مناسبات في الماضي، وفي لحظات تحول متعذر تفسيره، ربما أثناء في دراستي على مقاعد الدراسة، وأنا منغمس في الكلمات التي لربما كانت تافهة، لأنه حتى الكلمات الرديئة قد تكون موحية في بعض الأحيان، كنتُ قد شعرتُ بذاتي وهي تقتحم غشاءً من الوعي الخالص إلى حالة أخرى لا اسم لها، حيث لا تصلح القوانين العادية، وحيث انتقل الزمن على نحو مغاير إذا كان قد انتقل على الإطلاق، وحيث لم أكن حيّاً أرزق رغم أني كنت حاضراً بقوة أكثر من أي وقت مضى وسط ما يجب تسميته بالعالم الحقيقي. وحتى قبل ذلك بسنوات، كنت واقفاً على سبيل المثال مع السيدة غريس في غرفة المعيشة تلك المضاءة بنور الشمس، أو جالساً مع كلوي في ظلمة دار السينما، كنتُ هناك ولم أكن، أنا والعائدة من الموت، محاصرَين باللحظة الراهنة التي تحوم بطريقة ما حول لحظة الرحيل. ربما كل ما في الحياة ليس أكثر من استعداد طويل للرحيل عنها.

في مرض آنّا كانت الليالي هي الأسوأ. ذلك ما كان متوقع حدوثه. أشياء كثيرة كان من المتوقع حدوثها، والآن كل مالم يتوقع حدوثه قد حدث أخيراً. كانت كل الشكوك اللاهثة في النهار، وهذا ما لا يحدث معي! تشق طريقها في داخلها ليلاً، نحو ذهول بارد ثقيل. عندما تستلقي يَقِظَةً بجانبي كان بوسعي الشعور بمخاوفها، وهي تدور بثبات في داخلها، كمولد كهربائي. في أوقات من العتمة كانت تضحكُ بصوتٍ عالٍ، كان ضرباً من الضحك المعبر عن الخزي والاستسلام، تحت وطأة شعورها بالمفاجأة المتكررة من حقيقة هذه المحنة التي تمر فيها بلا

رحمة. عموماً، ومع ذلك، فقد حافظت على هدوئها، مستلقية على جانبها ومتكورة على نفسها أشبه بمستكشف ضال في خيمته، بنصف غفوة ونصف ذهول، وفي حالة من اللامبالاة على حد سواء باحتمالية الحياة أو الموت. حتى ذلك الحين كانت كل تجاربها مع المعاناة مؤقتة. حيث تهدأ أوجاعها، ولو مع مرور الوقت، ويظهر الابتهاج في سلوكها، ويعمل جسدها على ترميم علله البسيطة. على أية حال، كان هذا أمراً حاسماً، ومتفرداً، وهدفاً في حد ذاته، ومع ذلك لم تستطع تبريره، ولم تستطع استيعابه. فإذا ما كان ثمة شعور بالألم، كما كانت تقول، فهو على الأقل دليلٌ على شيء مؤكد، الأمر الذي يخبرها أن ما حدث لها كان حقيقياً أكثر من أي شيء حقيقي عرفته من قبل. لكنها لم تكن تتألم بعد، ليس بعد؛ كان هناك فقط ما وصفته بإحساس عام من الاهتياج، نوع من الاحتراق الداخلي، كما لو أن جسدها البائس المرتبك يأكل نفسه من الداخل، بتقيؤه اليائس دفاعاً عن نفسه ضد ذلك الشيء الذي غزاه واخترقه بطريقة سرية، فيما تنهشه كماشته السوداء اللامعة.

في تلك الليالي المصيرية من شهر أكتوبر، كنا نستلقي جنباً إلى جنب في الظلام، وقد أطحنا بتماثيلنا، ونحن نسعى للنجاة من سطوة حاضر لا يطاق يمثل الزمن الوحيد المتاح لنا، نحو ذلك الماضي، الماضي البعيد. عدنا أدراجنا لأيامنا الأولى معاً، نتأمل، نتعاتب، ونساند بعضنا البعض، كعجوزين متأبطي الذراعين قريباً من أسوار البلدة التي عاشا فيها في يوم من الأيام، منذ مدة طويلة.

عاد لأذهاننا، على نحوٍ خاص، الصيفُ اللندنيُ الضبابيُ الذي تقابلنا فيه وتزوجنا. شاهدتُ آنا أولاً في حفلة في شقة أحدهم بعد ظهيرة ما حارة خانقة، كانت جميع النوافذ مفتوحة على مصراعيها، الهواء الملوث بأبخرة العوادم في الشارع خارجاً مع أصوات تزمير السيارات العابرة والتي تبدو متناقضة مع الأجواء وأشبه بصافرات الضباب التي تخترق الضجيج

والدخان في الغرف المزدحمة. كانت قامتها أولّ شيءٍ لفتَ انتباهي. ليست ضخامتها الكبيرة للغاية، لكن مقاساتها كانت مختلفة عن أي امرأة عرفتها قبلها. كتفان عريضان، وذراعان سمينتان، وقدمان كبيرتان وبذلك الرأس الضخم بشعره الكثيف الداكن المنساب فوقه. كانت تحول بيني وبين النافذة، وقد ارتدت ثوباً قطنياً وصندلاً، وتتحدث مع امرأة أخرى بطريقتها تلك، الغامضة والجدية في آن واحد، تلوي خصلة من الشعر حول أصبعها بشرود، وللحظة من الزمن وجدت عيني صعوبة في التركيز العميق، حيث كانت آنا على ما يبدو الأكبر بين الاثنتين، لابد وأنها كانت أوضح لي بكثير من تلك التي كانت تتحدث إليها.

أقيمت الكثير من تلك الحفلات في تلك الأيام. عندما أفكر مجدداً في الماضي أرانا نصل، ونقف عند العتبة للحظة، يدي على الجزء الضيق من ظهرها، تلامس بوساطة الحرير الناعم الشقَ العميق البارد هناك، رائحتها البرية تملأ فتحات أنفي وحرارة شعرها على وجنتي. كم كنا رائعين، أنا وهي، ونحن نشق طريقنا في الدخول، بقامتين أعلى من الجميع، أنظارنا موجهة فوق رؤوسهم كما لو كانت تركز على منظر بعيد رائع، فقط نحن اللذان نتمتع بامتياز رؤيته.

في ذلك الوقت كانت تسعى لتصبح مصورة فوتوغرافية، تلتقط مشاهد صباحية متقلبة، للأدخنة السوداء والأمداء الفضية الباردة، لبعض زوايا المدينة الكئيبة. أرادت أن تعمل، وأن تفعل شيئاً ما، وأن تصبح شخصاً ما. لقد دُعيت إلى أماكن مثل وبريك لان وسبيتالفيلد. لم آخذ أياً من هذه الأمور على محمل الجد. ربما كان ينبغي ذلك. عاشت مع والدها في شقة مستأجرة في بناء كبير مطلي بلون ضارب إلى الحمرة في واحدة من تلك الحارات الخلفية المظلمة قبالة ميدان سلون[32]. كان

32- ميدان سلون: ساحة وسط منطقة فاخرة في لندن.

مكاناً فخماً، به سلسلة من الغرف الواسعة ذات السقف العالي والنوافذ الطويلة التي تبدو بأنها تحجب نظرتها المزججة عن المشهد البشري المجرد الممتد فيما بينها ذهاباً وإياباً. والدها، العجوز شارلي فايس، «لا تقلق، هو ليس اسماً يهودياً»، انتبه لي في الحال. كنتُ ضخماً وفتياً وأخرق، وقد سُرّ لوجودي في تلك الشقة الفاخرة. كان رجلاً مرحاً صغير البنية بأطراف دقيقة ورقيقة. أدهشتني خزانة ملابسه، بدلات لاتعد ولا تحصى من ماركة سافيل رو، وقمصان من ماركة كرافت من الكريم بلون الأخضر الفاتح والحرير الزبرجد، وعشرات من أزواج الأحذية الصغيرة المصنوعة يدوياً. كان رأسه، الذي يحمله إلى صالون ترامب ليحلق شعره كل يومين، والذي قال عنه إنه فراء لا ينبغي تحمله- بيضة لامعة تماماً. وكان يرتدي تلك النظارات الثقيلة الكبيرة المفضلة لكبار رجال الأعمال في ذلك الوقت، مع حاملين بحواف وعدستين بحجم صحنين كانت تندفع فيهما عيناه الصغيرتان الحادتان بحركة سريعة أشبه بالأسماك الغريبة الفضولية. لم يكن بوسعه البقاء هادئاً، يقف ويجلس ثم يعاود الوقوف مرة أخرى، كأنه تحت تلك السقوف العالية، حبة بندق صغيرة مصقولة تدور داخل صدفة كبيرة الحجم.

في زيارتي الأولى رافقني بجولة حول شقته متفاخراً ولافتاً انتباهي إلى الصور وإلى كل واحدة من التحف القديمة كما كان يراها، جهاز التلفزيون العملاق الموجود في الخزانة المصنوعة من خشب الجوز، وزجاجة الدوم بريجنون وسلة من الفاكهة اللامعة غير الصالحة للأكل التي أرسلها له مساعده في العمل ذلك اليوم، فتشارلي لا أصدقاء له ولا شركاء ولا عملاء، فقط لديه مساعدان. من النافذة الطويلة سطع ضوء الصيف الكثيف العسلي ليتوهج فوق السجاد المزركش بالرسوم. جلست آنا على الأريكة وذقنها فوق يدها وإحدى رجليها مطوية

تحتها وهي تراقبني ببرود أتفاوض مع والدها صغير الحجم. بخلاف معظم الأشخاص صغيري الحجم، لم يكن يخاف على الإطلاق من التعامل معنا نحن الأشخاص كبار الحجم، وبدا فعلاً أنه قد عثر لدي على مساحة من الطمأنينة، واستمر بإلحاح بالاقتراب مني، بكل تودد؛ مرّت لحظات بينما كان يعرض الثمار اللامعة من عمله الناجح، حتى بدا كأنه قد يقفز ويستقر بكل ارتياح في حضني وبين ذراعي. عندما ذكر اهتماماته التجارية للمرة الثالثة، سألته عن عمله الذي كان قد عمل به والتفت نحوي بنظرة صريحة لا تشوبها شائبة، وحدقتا السمكة تلكما تلمعان.

قال، وهو يحاول كبح ضحكته: «في مجال المعدات الثقيلة».

استعرض تشارلي مسيرة حياته بسرور ومن المؤكد ثمة تعجب من حقيقة إفلاته من العقاب بهذه السهولة. فقد كان محتالاً وربما خطيراً، وغير أخلاقي على الإطلاق. كانت آنا تنظر إليه باحترام متسامح ومؤسف. كان حصول مثل هذا الرجل الضئيل على ابنة قوية للغاية لغزاً غامضاً. عندما كانت صغيرة كانت تبدو الأم المتسامحة وكان هو الرجل الطفل الفاتن المتمرد. ماتت والدتها عندما كانت آنا في الثانية عشرة من عمرها ومنذ ذلك الحين واجه الأب وابنته العالم، كثنائي من مغامري القرن التاسع عشر، وكمقامر في قارب نهري وفتاته. كانت هناك حفلات تقام في الشقة مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. مناسبات صاخبة تتدفق فيها الشمبانيا كقرقرة نهر نتن بعض الشيء. في إحدى الليالي في نهاية ذلك الصيف ونحن عائدون من الحديقة- كنت أحب المشي معها عند الغسق على طول الظلال المغبرة تحت الأشجار التي بدأت أوراقها بالجفاف والسقوط مصدرة حفيفاً ينذر بقدوم الخريف- وقبل أن نتحول نحو الطريق سمعنا أصوات حفل السكر المقام في

الشقة. وضعت آنا يدها فوق ذراعي وتوقفنا. كان شيء ما في الأجواء المسائية يستحضر وعداً كئيباً. التفتت نحوي وأخذت واحداً من أزرار سترتي بين إصبع والإبهام ولوته نحو الأمام والخلف كقرص الخزنة، وبلطافتها المعهودة وبأسلوب غاية في الرقة دعتني لأتزوجها.

طوال ذلك الصيف المرتقب شديد الحرارة بدا وكأنني أتنفس من القمة الضحلة لرئتي كغواص متوازن على أعلى لوح فوق تلك المساحة الصغيرة الزرقاء العميقة جداً تحته.

وها هي الآن قد دعتني آنا بصوت عالٍ لأقفز، أقفز! اليوم، عندما يصبح ثمة اهتمام بزواج بين أدنى طبقات المجتمع وما تبقى من طبقة النبلاء، وكل فرد يتخذ شريكاً له، كما لو كانت الحياة رقصة أو مشروعاً تجارياً، ربما سيكون من الصعب إدراك كم كانت تلك القفزة متهورة والتي ستصبح فيما بعد محنة المرء. كنتُ قد انغمست في عالم آنا وأبيها الجذاب، كما لو أنه عالم آخر خيالي حيث لم تطبق فيه ما عرفته من قواعد، وحيث كانت الأشياء كلها تلمع ولا شيء حقيقي، أو ربما كان حقيقياً لكنه بدا مزيفاً، مثل طبق الفاكهة المثالي في شقة تشارلي. في ذلك الحين كنتُ قد دعيت لأصبح قاطناً في تلك الأعماق الغرائبية المثيرة. ما قدمته آنا لي، هناك في الغسق الصيفي المغبر عند منعطف شارع سلون، لم يكن زواجاً بقدر ما كان فرصة لتحقيق أحلام راودتني.

لقد تقرر إقامة حفل الزفاف تحت خيمة كبيرة مخططة في حديقة القصر الخلفية الفسيحة. كان يوماً من الأيام الأخيرة لتلك الموجة الصيفية الحارة، والهواء يبدو وكأنه زجاج مخدوش، جن جنونه تحت ضوء الشمس. طوال مدة ما بعد الظهيرة استمرت السيارات اللامعة بالتوافد خارجاً وإحضار المزيد من الضيوف، سيدات يشبهن طائر المالك الحزين في قبعاتهن الكبيرة وفتيات يضعن أحمر الشفاه الناصع

ويرتدين أحذية جلدية بيضاء طويلة حتى الركبتين، والرجال يرتدون ثياب مقلمة، شباب بالغي الرقة متجهمين ينفخون ويدخنون بغليون، وكان هناك أيضاً عدد قليل من الأشخاص من فئات عديدة، كمساعدي تشارلي في العمل، الذين كانوا أنيقين، يقظين وجادين، في بدلات وقمصان لامعة مع ياقات ملونة بألوان مختلفة وأحذية قصيرة حتى الكاحل ذات مقدمة حادة مع جوانب مطاطية. كان تشارلي يتجول بين الجميع، ومن قمة رأسه اللامعة، يتدفق الزهو كالعرق. في وقت متأخر من اليوم، وصل حشد من الرجال ذوي العيون الدافئة، بحركتهم الثقيلة وخجلهم، في عمامات وملابس نظيفة. حطّتْ الجلابيب البيضاء بيننا مثل قطيع من الحمام. لاحقاً كانت لاتزال الأرملة البدينة التي ترتدي القبعة في حالة سكر شديد وسقطت وكان لابد من حملها بعيداً بذراعي سائقها الثرثار القوي. عندما تكاثف الضوء بين الأشجار وبدأ ظل المنزل المجاور بالتخييم فوق الحديقة كسقف متحرك، وكان آخر الأزواج المخمورين في ملابسهم اللامعة المضحكة يتجولون حول حلبة الرقص الخشبية المؤقتة للمرة الأخيرة ورؤوسهم ملقاة على أكتاف بعضهم البعض وأعينهم مغمضة وأجفانهم ترفرف، وقفت آنا وأنا فوق الحواف البالية لكل شيء، مع اندفاع غمامة داكنة من طيور الزرزور من مكان ما على علو منخفض لتحلق فوق الخيمة الكبيرة، فيما أصدرت أجنحتها قعقعة حيث كان ذلك أشبه بشوط مفاجئ من التصفيق المفعم بالحيوية الساخرة.

فجأة وجدت نفسي أفكر بشعرها، واللفائف السوداء الطويلة واللامعة منه تنحدر من جبهتها بتموجات جانبية. حتى في منتصف عمرها بالكاد كان هناك خصلة من اللون الرمادي فيه. كنا عائدين في السيارة إلى المنزل قادمين من المشفى ذات يوم عندما رفعت شعرها عن كتفيها وقربته لعينيها وتفحصته خصلة خصلة، وهي متجهمة الوجه.

- سألتْ: «هل هناك طائر يدعى بالديكوت».

- قلت بحذر: «هناك باندیکوت[33]، لكن لا أعتقد بأنه طائر. لماذا تتساءلين؟»

- «من الواضح أني سأصبح صلعاء بالكامل في غضون شهر أو اثنين».

- «من أخبرك بذلك؟».

- «امرأة في المشفى كانت تتلقى العلاج، من نوع العلاج الذي سأخضع له، كانت صلعاء تماماً، لذا فأنا أتوقع معرفتها بذلك».

لمدة وجيزة كانت تراقب المنازل والمتاجر التي كانت تتجاوزنا من نافذة السيارة بتلك الطريقة الخفية غير المبالية، ثم التفتت نحوي مرة ثانية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «لكن ما هو الغرة[34]؟»

- «إنه طير»

ضحكت ضحكة مكتومة.

- «حسناً». سأصبح صورةً طبق الأصل من تشارلي عندما يسقط كل الشعر.

وكانت كذلك.

لقد مات، العجوز تشارلي، بجلطة دموية في الدماغ، بعد أن تزوجنا ببضعة شهور.

حصلت آنا على كل أمواله. لم يكن هناك الكثير منه كما توقعت، ولكن مع ذلك، كان هناك الكثير.

33- حيوان جرابي آكل للحشرات موطنه الأصلي أستراليا وغينيا الجديدة.

34- طائر مائي متوسط الحجم.

الشيء الغريب، هو أن شغفي بالسيدة غريس تلاشى إلى حد بعيد في ذات اللحظة التي وصل فيها إلى ما يمكن وصفه تأليهاً. حدث ذلك بعد ظهيرة يوم النزهة. عندما كنا نتجول في كل الأمكنة معاً، كلوي وميلز وأنا. كم كنتُ أشعر بالفخر عندما يراني الناس برفقتهم فقد كانا في عيني آلهتين، كانا باعتقادي مختلفين عن أي شخص عرفته من قبل. كان أصدقائي السابقون في التجمع السكني، الذين لم أعد ألعب معهم، مستائين من هجراني لهم.

- «يقضي جُلَّ وقته الآن مع أصدقائه الجدد من العائلة الثرية»، سمعتُ أمي ذات يوم تخبر إحدى الأمهات.

- «الصبي كما تعرفين صبي محبوب» أضافت بصوت خفيض.

سألتني لم لا أطلب من عائلة غريس أن تتبناني. قالت: «لن أمانع». «لن أمنعك من فعل ما ترغب به». ورمقتني بنظرة صارمة قاسية، كالنظرة التي كانت ترمقني بها في معظم الأحيان بعد رحيل والدي، كما لو أنها تفصح: «أتوقع بأنك ستكون ثاني شخص يخونني».

وكما توقعتني، كنتُ.

والديّ لم يكونا قد التقيا بالسيد والسيدة غريس، ولم يرغبا بذلك.

لم يختلط قاطني المنزل الراقي بقاطني الأكواخ الخشبية، ونحن لم نتطلع للاختلاط بهم. لم نشرب النبيذ، أو ندعو الناس في عطلة نهاية الأسبوع، أو نترك خرائط سياحية لفرنسا بلامبالاة معروضة في النوافذ الخلفية لسيارتنا- حتى إن القلة القليلة كانوا يملكون سيارة. التكوين الاجتماعي لعالمنا الصيفي كان بتدرجات ثابتة وشاقة كمعبد هرمي.

تأتي أولاً القلة القليلة من العائلات الذين يملكون منازل خاصة، وبعدهم يأتي هؤلاء الذين يستطيعون تحمل نفقات الإقامة في الفنادق- حيث كان فندق الشاطئ مرغوباً أكثر من فندق الجولف- ثم

مستأجرو المنازل، ونحن نأتي بعد كل هؤلاء. جميع العاملين على مدار العام لم يكن لهم اعتبار في هذا التسلسل الهرمي؛ القرويون على نحو عام من أمثال دويجنان صاحب معمل الألبان أو كولفر الأصم جامع كرات البيسبول، أو العانستين البروتستانتيتين في نزل اللبلاب، أو السيدة الفرنسية التي تدير ملعب التنس والتي قيل عنها بأنها تضاجع كلبها الألزاسي[35] على نحوٍ منتظم، كل هؤلاء كانوا فئات منفصلة عن بعضها البعض، وجودهم ليس أكثر من الخلفية المشوبة لأشعة الشمس الأكثر كثافة التي تركز على أفعالهم. تمكنتُ من تسلق مكون اجتماعي شديد الانحدار بدءاً من قاعدته وصولاً إلى ما كان عليه مستوى عائلة غريس، الأمر الذي بدا أشبه بشغفي السري اتجاه كوني غريس، كرمز لتميزها، لكونها المرأة المختارة بين كثيرات غير المرغوب فيهن. لقد أفردتْ لي الآلهة نعمها وأفضالها.

النزهة التي خرجنا بها بعد ظهر ذلك اليوم في سيارة السيد غريس الرياضية بعيداً أسفل الجحر على طول الطريق حتى انتهت الطريق المعبدة. على الفور شعرت بهيجان لذيذ مترافق بشعوري بالجلد المرقط لغطاء المقعد الملتصق بمؤخرة فخذيّ تحت سروالي القصير. جلست السيدة غريس بجانب زوجها في المقدمة، بنصف استدارة نحوه وكوعها يستريح على الجزء الخلفي من مقعدها حيث كان بوسعي إلقاء نظرة على إبطها المثير النابت بشعيرات قصيرة وخشنة، وقد فاحت بين الحين والآخر نفحة من عرقها المبلل برائحة لحم الزباد، عندما كان النسيم القادم من النافذة المفتوحة يعترض طريقي. كانت ترتدي ثوباً، والذي أعتقد أنه حتى في تلك الأيام الرزينة كان يدعى بكل وضوح قميص بلا أكمام والذي لم يكن أكثر من أنبوب صوفي أبيض اللون وضيق، وكاشف

35- سلالة ألمانيا من الكلاب العاملة ذات الحجم المتوسط إلى الكبير.

للغاية للمنحنيات السفلية لنهديها الثقيلين. كانت ترتدي نظارتها الشمسية السينمائية بإطارها الأبيض وتدخن سيجاراً ثخيناً.

ذلك أثار حماسي لمراقبتها وهي تسحب نفساً عميقاً وتترك فمها مفتوحاً على نحو ملتوٍ للحظات، حيث لفائف من الدخان الكثيف معلقة بلا حراك بين تلك الشفاه الملونة بأحمر شفاه قرمزي شمعي. كذلك كانت أظافرها مطلية بالأحمر الدموي الساطع. كنتُ أجلس مباشرة وراءها في المقعد الخلفي، وكلوي في الوسط بيني وبين ميلز. كانت فخذ كلوي الساخنة والنحيلة تضغط دون قصد على ساقي. لقد انخرط الأخ والأخت في واحدة من مشاكساتهم الصامتة والخاصة به، في شجار ومراوغة، يصارع أحدهما الآخر بأصابع كماشة ويحاول كل منهما ركل قصبة ساق الآخر في المساحة الضيقة بين المقاعد. لم أستطع بدوري إدراك القواعد في هذه الألعاب، إذا كان هناك ثمة قواعد، رغم أن الفائز الدائم في نهاية الأمر هو كلوي في معظم الأحيان.

أتذكر، مع شعور ثقيل الوطأة بالشفقة على ميلز المسكين، أولّ مرة شهدت لعبهما على تلك الشاكلة، أو شجارهما، بالأحرى. كانت ظهيرة ماطرة وكنا محاصرين داخل منزل سيدارز. يا لها من همجية قد يبعثها يوم ممطر فينا نحن الأطفال! كان التوأمان يفترشان أرضية غرفة المعيشة، على أعقابهما، قبالة بعضهما البعض، الركبة إلى الركبة، يحدقان في عيون بعضهما البعض، وأصابعهما متشابكة، يتمايلان ويتدافعان بإصرار كزوج من محاربي الساموراي، حتى حدث شيء ما في النهاية، لم أر ما كان ذلك، رغم أنه حسم الأمر بينهما، وأجبر ميلز على الاستسلام دفعة واحدة. انتزع أصابعه من مخالبها الفولاذية وطوق نفسه بذراعيه- كان قابضاً بشدة على ذاته المجروحة أو المهانة- وبدأ بالبكاء في حالة من الإحباط والغضب، مصدراً أنيناً مختنقاً عالي الصوت وشفته السفلى تطبق على شفته العلوية وعيناه مغمضتان وتذرفان

دموعاً غزيرة، كان تأثره الحقيقي والواضح دراماتيكياً للغاية ومقنعاً تماماً. ويا لها من نظرة ماكرة رمقتني بها بشماتة كلوي المنتصرة من فوق كتفها، بوجهها المحتقن بالعدائية، مع بريق في الأسنان والعينين. في تلك المرة، في السيارة، فازت مرة أخرى، وافتعلت شيئاً ما في معصم ميلز الأمر الذي جعله يصرخ. قالت والدتهما بضجر، والتي بالكاد رمقتهما بنظرة: «أوه، فلتتوقفا، أنتما الاثنان». كلوي، التي ماتزال مبتسمة برقة زهواً بالانتصار، ضغطت وركها بقوة أكبر على ساقي، بينما تجهم ميلز، وزمّ شفتيه على شكل حرف o، في هذا الوقت كان قد كبح دموعه وقام بفرك معصمه المحمر.

في نهاية الطريق أوقف السيد غريس السيارة، ورُفعت السلة الكبيرة من صندوق السيارة بما تحتويه من سندويشات، وأكواب شاي، وزجاجات خمر لننطلق سيراً على الأقدام على مسلك عريض من الرمال الخشنة، ميزها سياج من الأسلاك الشائكة الصدئة ونصف المغمورة بالمياه. لم يعجبني أبداً، بل أخافني قليلاً، هذا الامتداد الوحشي من المستنقعات البرية والمسطحات الطينية حيث بدت الأشياء كلها بعيدة عن الأرض الترابية، تحدق يائسة بالأفق وكأنها في بحث صامت عن علامة للنجاة. تألق الطين بزرقته ككدمات حديثة العهد، وكانت هناك دعامات لنبات البردي وآثار منسية لألواح مربوطة إلى أعمدة خشبية متعفنة مغطاة بالوحل. لم يبلغ المد العالي أكثر من بوصات في العمق، في حين كان الماء يجري بين الشقوق سريعاً ولامعاً كالزئبق لا يوقفه شيء. اندفع السيدُ غريس نحو الأمام بيسر، متأبطاً كرسياً قابلاً للطي تحت كل ذراع، وقد مالت قبعة البوكيت المضحكة فوق أذنه. استطلعنا المنطقة ورأينا عبر الممر البلدة متربعةً فوق تلتها، والتي كانت عبارة عن خليط من المساحات المستوية والزوايا تشبه دمية من الخزامى متوجة ببرج. كما بدا بأنه يعرف وجهته انطلق السيد غريس

من المسار الترابي إلى مرج مزدحم بالسراخس الطويلة. لحقنا به، السيدة غريس وكلوي وميلز وأنا. كانت النباتات بعلو رأسي. كان السيد غريس ينتظرنا على ضفة عشبية عند حافة المرج، تحت مظلة من شجر الصنوبر. على نحوٍ غير ملحوظ، أحدث ساق سرخس مكسور ثلماً في الجانب المكشوف من كاحلي فوق الحذاء.

على رقعة من العشب بين الضفة العشبية المنخفضة وحاجز من نبات السرخس وُضِعت قطعة قماش بيضاء اللون. أخرجت السيدة غريس - وهي منحنية، وفي زاوية فمها سيجارة بينما تغلق عين واحدة من الدخان - أغراض النزهة في حين كان زوجها، بقبعته التي مالت أكثر، يصارع لسحب غطاء زجاجة النبيذ الفليني القاسي. كان قد أصبح ميلز بين سيقان السرخس. جلست كلوي كالضفدع على وركها، وهي تتناول سندويشة البيض. أما روز- أين هي روز؟ إنها هناك، في قميصها القرمزي وخفيّ الرقص وسروال الراقصة الأسود الضيق مع أشرطة تربط في باطن قدميها، وشعرها الأسود كجناح الغراب مربوط في ريشة في مؤخرة رأسها الناعم لكن كيف وصلت إلى هنا؟. فهي لم تأت معنا في السيارة. على دراجة هوائية، نعم فأنا أرى دراجة تسللت بين السراخس بهدوء، ثم انقلب مقوديها جانباً وبرزت عجلتها الأمامية في زاوية حرجة إلى حد ما، في تنبؤ ماكر لما سيأتي. قام السيد غريس بمحاصرة زجاجة النبيذ بين ركبتيه وصارع وجاهد، حتى احمرت شحمة أذنيه. إلى الخلف مني جلست روز عند زاوية من زوايا مفرش المائدة، متكئة على ذراع مقبوضة، وخدها بالكاد يستريح فوق كتفها، وساقاها مطويتان على نحوٍ جانبي، في وضع ينبغي أن يسبب لها الإحراج، لكنها لم تكن كذلك. كان بوسعي سماع ميلز يهرول بين السراخس. فجأة اندفع الغطاء الفليني لزجاجة النبيذ مع فرقعة مبهجة أذهلتنا جميعاً.

تناولنا طعام النزهة. كان ميلز يتظاهر بأنّه وحشٌ بريّ واستمر بالركض بين السراخس ثم خطف حفنة من الطعام وابتعد مرة أخرى، مع صراخ وصهيل. احتسى السيد والسيدة غريس نبيذهما وعلى الفور كان السيد غريس يفتح زجاجة أخرى، وهذه المرة بصعوبة أقل. قالت روز إنها لم تكن جائعة، لكن السيدة غريس قالت إن هذا كلام فارغ وأمرتها أن تأكل، وبابتسامة قدم لها السيد غريس موزة. هبت نسمات كثيرة في مدة ما بعد الظهيرة تحت سماء لاتزال صافية. تدلت أغصان الصنوبر الملتوية فوقنا، وفاحت رائحة إبر الصنوبر، ورائحة العشب والسراخس المسحوقة ورائحةٌ نافذةٌ لملح البحر. عندما عبست روز، افترضتُ سبباً لذلك يتعلق بتوبيخ السيدة غريس وبتقديم السيد غريس لتلك الموزة الفاسدة. كانت كلوي منهمكة بتقشير الندبة الحمراء المرقطة أسفل مرفقها مباشرة حيث خدشتها أشواك نبات الزعرور في اليوم السابق. تفحصتُ جرح السرخس على كاحلي، على هيئة ثلم وردي محمر اللون بين الحواف الشفافة للجلد الضارب إلى البياض؛ لم يكن نازفاً لكن في أعماق الثلم كان ثمة تألق واضح لدم الآلهة. جلس السيد غريس منطوياً على نفسه في كرسيه القابل للطي واضعاً ساقاً فوق الأخرى، يدخن سيجارة، مخفضاً قبعته عن جبهته، مظللاً عينيه.

شعرتُ بشيء ناعم يضربني على خدي. كانت كلوي قد تركت نزع القشور عن جرحها وبدأت برمي فتات الخبز نحوي. نظرتُ نحوها ونظرت هي وراءها دونما تعبير وألقت نحوي كسرة خبز أخرى. هذه المرة فاتتها. التقطتُ فتات الخبز من العشب ورميتُه مرة أخرى نحوها، لكنها فاتتني أيضاً. كانت السيدة غريس تراقبنا بلا مبالاة، مستلقية على جانبها أمامي مباشرة فوق المنحدر المسطح قليلاً للضفة الخضراء، ورأسها يستند على يدها. لقد وضعت ساق كأس النبيذ الخاص بها في العشب في زبدية مثبتة بزاوية على الجانب المتدلي لثديها- تساءلتُ، كما في كثير

من الأحيان، إذا ما كان مؤلماً حمل تلك البصلتين الكبيرتين من اللحم الأبيض- ثم لعقت طرف إصبعها ومررته حول الحافة الزجاجية، محاولة إصدار رنين منه، لكنه لم يصدر أي صوت. مضغت كلوي قطعة خبز داخل فمها وبللتها بالبصاق ثم أخرجتها مرة أخرى، عجنتها في أصابعها وكورتها وقذفتها نحوي، لكن العجينة وقعت على مسافة قصيرة. صاحت والدتُها ببعض التوبيخ: «كلوي»، لكن كلوي تجاهلتها وابتسمت في وجهي ابتسامة شماتة ضيقة العينين. لقد كانت كلوي فتاة متحجرة القلب. ذات يوم ولأقوم بتسليتها كنت أمسك بحفنة من الجنادب وأمزق أرجلها الخلفية لمنعها من الهرب وأضع جذوعها المرتجفة في غطاء علبة دهان ثم أغمرها بالبارافين وأشعل النار فيها. كم كانت مستمتعة، وهي تجلس القرفصاء وتضغط بيديها على رقبتيها، وتراقب المخلوقات سيئة الحظ وهي تذوب، وتغلي في شحمها.

كانت تصنع كرة بصق أخرى. حينها قالت السيدة كلوي وهي تتنهد: «كم أنت مقرفة يا كلوي». نهضت كلوي في تململ، ونفضت الخبز من حجرها ومشت عابسة باتجاه ظل شجرة الصنوبر. هل انتبهت كوني غريس لنظراتي؟ هل كانت تلك ابتسامة متواطئة؟ بتنهيدة ثقيلة استدارت واضطجعت على المنحدر ورأسها يميل نحو الخلف على العشب وهي تثني ساقاً واحدة، لذلك وعلى حين غرة كان متاحاً لي رؤية ما تحت تنورتها على طول الخط الداخلي من فخذها حتى جوف حجرها والرابية السمينة هناك المغطاة بالقطن الأبيض المشدود. في الحال بدأ كل شيء بالتراخي. سقط كأسها الفارغ بجذل وسالت آخر قطرة من النبيذ حتى حافة الكأس متدلية بتثاقل حتى سقطت. حدقتُ وحدقتُ، اشتعل جبيني وتعرق باطن يدي. بدا السيد غريس تحت قبعته وكأنه يسخر مني لكنني لم أكترث، كان بوسعه التكلف بابتسامة كلما أراد. أصبحت، زوجته الضخمة، أكبر وأكبر في

هذه اللحظات، كعملاقة مقطوعة الرأس بقدمين ضخمتين اللتين جثمتُ عندهما بحالة من الخوف تقريباً، تلوتْ ورفعتْ ركبتها أكثر، كاشفة عن تجعد على شكل هلال في الجزء الخلفي من ساقها المكتنز باللحم حيث مؤخرتها. كان قرع الطبول في صدغي قد جعل ضوء النهار خافتاً. كنتُ أشعر بلدغة خفيفة في كاحلي المقور. حينئذ جاء صوت بعيد حاد وصاخب من السراخس، كانت نغمة بوساطة أنبوب قديم على هيئة مزمار اخترقت الهواء العليل، وقد تجهمت كلوي، التي كانت فوق الشجرة، كما لو أنها مدعوة لأداء مهمة، ثم انحنت واقتلعت نصل العشب وسحقته بين أصابعها لتنفخه كنغمة جواب من محارة صنعتها بيديها المقعرتين.

بعد دقيقة أو دقيقتين خالدتين، سحبت مليكتي المضطجعة ساقها واستدارت على جانبها مرة أخرى واستسلمت للنوم على نحو فجائي رهيب- كان شخيرها اللطيف كصوت محرك صغير ذي نبرة خفيضة يحاول ويفشل في البدء بالعمل مراراً وتكراراً- ثم نهضتُ، كما لو أن شيئاً ما وضع بحذر في داخلي وقد يتحطم عند أول حركة عنيفة. على الفور انتابني شعور كريه بالخواء. تلاشى لدي الشعور بإثارة اللحظات السابقة، وكان ثمة قيد ثقيل في صدري، وعرق على جفنيّ وأعلى شفتي، وكان الجلد الرطب تحت حزام سروالي لزجاً ومتقداً. شعرتُ بالحيرة، وبامتعاض غريب أيضاً، كما لو كنتُ أنا، وليست هي، الشخص نفسه الذي تعرض للتطفل عليه والإساءة إليه. كان ذلك تعبيراً عن قداسة كنت شاهد عيان عليها بلا شك، غير أن لحظة الألوهية والقداسة تلك كانت مختصرة للغاية. تحت أنظاري التواقة تحولتِ السيدةُ غريس من امرأة إلى شيطان ومن ثم عادت لتصبح مجرد امرأة. في لحظة واحدة كانت كوني غريس، الزوجة والأم، موضوعاً للتبجيل العاجز، ومعبوداً مجهول الهوية، عريقاً وبدائياً استحضرته بقوة رغبتي، ومن

ثم كل شيء قد تلاشى فيها فجأة، غير أني شعرتُ بالاشمئزاز والخجل، ليس خجلاً مني ومما اختلسته منها ولكن، بشعور غامض، سببه المرأة نفسها، وليس بسبب ما فعلته، أيضاً، ولا الهيئة التي كانت عليها، مع الأنين الأجش عندما استدارت واستسلمت للنوم، حيث لم تعد شيطانة مغرية لكنها بحد ذاتها، مجرد امرأة بشرية.

ومع كل ما لدي من قلق حيال الطبيعة البشرية لها، وليست الطبيعة المقدسة، التي تشع بالنسبة لي حتى الآن، مهما تشوه بريقها، بين ظلال الأشياء التي رحلت. لها صورة رمزية خاصة بها في ذاكرتي. أيهما أكثر واقعية، المرأة التي تتكئ على ضفة عشبية في ذاكرتي، أم تناثر غبارها ونقي عظامها الجاف الذي لم تعد تحتفظ الأرض به كله؟ بلا شك بالنسبة لآخرين في أماكن أخرى، هي نسخة عن شكل بشري متحرك بين قوالب شمعية في الذاكرة، لكن نسختهم ستكون مختلفة عن نسختي، ومختلفة عن نسختها فيما بينهم. هكذا في أذهان الكثيرين يتفرع المرء ويتشتت. لا يدوم هذا ولن يدوم، إنها قضية اللا خلود. نحمل الموتى في داخلنا حتى نموت أيضاً، ومن ثم نحن من نُحمل لبعض الوقت، وبعدنا يأتي دور من حملونا، وهلم جر عبر أجيال لا يمكن تصورها. أتذكر آنّا، وابنتنا كلير ستتذكر آنا وتتذكرني، ثم سترحل كلير وسيكون هناك من يتذكرها ولا يتذكرنا، وذلك سيكون اندثارنا الأخير. صحيحٌ، أشياء منا ستبقى هناك، صورة باهتة، وخصلة شعر، والقليل من بصمات أصابعنا، ورذاذ من أنفاسنا في هواء الغرفة التي نفثنا فيها أنفاسنا الأخيرة، رغم أنه لا شيء من ذلك يعبر عما نحن عليه وماكنا عليه، إنما هو فقط غبار الموتى.

وأنا فتى كنتُ متديناً إلى حد بعيد. ليس إيماناً خالصاً، لكنه قسري. الإله الذي كنتُ أعبده هو يهوه*، مهلك الأكوان، وليس يسوع اللطيف الحليم والمتسامح. كانت الألوهية بالنسبة لي تهديداً، استجبتُ لها

بالخوف وبشعور مرافق وحتمي بالذنب. لقد اختبرت الشعور بالذنب في أيام شبابي تلك، وما زلتُ في هذه الأيام وأنا أكبر سناً. أثناء عشائي الرباني الأول، أو، بالأحرى، الاعتراف الأول الذي نقدمه، حيث يأتي قسيس كل يوم إلى مدرسة الدير لتجنيد أفراد صفنا من الصغار التائبين في تعقيدات الكولونيلة المسيحية. لقد كان نحيلاً، وشاحباً متعصباً، مع بقع بيضاء معندة عند زوايا شفتيه. أتذكر بجلاء استثنائي خطاباً مبهجاً ألقاه علينا ذات صباح رائع في مايو عن خطيئة النظر. نعم، خطيئة النظر. لقد تلقينا تعليمات عن أصناف مختلفة من الخطايا، المقترفة عمداً وسهواً، الخطايا التي تغتفر والتي لا تغتفر، والخطايا السبعة القاتلة التي تقود كل منها إلى جهنم، والخطايا المروعة التي قيل إن الأسقف فحسب يمكنه التكفير عنها، ولكن هنا على ما يبدو ثمة نوع جديد من الخطايا: إنها خطيئة الإذعان. هل حدث أن فكرنا، سأل الأبُ فرومفليك بسخرية، وهو يتجول بعجالة من الباب إلى النافذة، ومن النافذة إلى الباب، ورداؤه الكهنوتي يتموج ونجمة من الضوء تتلألأ على جبينه الضيق المتقشر كأنها انعكاس لروح إلهية، هل فكرنا أن الخطيئة لابد أن تنطوي دائماً على أداء فعل؟ النظر بشهوة أو حسد أو كراهية هو شهوة وحسد وكراهية؛ الرغبة التي لا يتبعها أداء فعل تترك أثراً مكافئاً على الروح. هنا صرخ الأب متحمساً لموضوعه، أليس الرب بحد ذاته من قال في تعاليمه إن الرجل الذي ينظر إلى امرأة بقلب شهواني زان هو على حد سواء مع من ارتكب فعل الزنا؟ في تلك الأحيان كان قد نسي أمرنا تماماً، حيث كنا نجلس كمجموعة صغيرة من الفئران التي كانت تحدق فيه في حالة من عدم فهم مليئة بالرهبة والعجب. على الرغم من كل شيء كانت هذه بمنزلة أخبار بالنسبة لي كما كانت بالنسبة لكل شخص آخر في الصف- ما هو الزنا، أهو خطيئة لا يرتكبها سوى الكبار البالغون؟- لقد فهمت ذلك بما يكفي، على طريقتي،

وتلقيته برحابة صدر، حتى وأنا في السابعة من عمري كنتُ خبيراً، أو لعلي أشك بذلك، في التجسس على أمور لم يكن من المفترض أن أشهدها، وكنت أعرف جيداً اللذة القاتمة في استحواذ الأشياء بالنظر وبعار أشد قتامة كان يعقبه. لذلك عندما نظرت كفايتي، وتشبعت بالنظر، نحو الامتداد الفضي لفخذ السيدة غريس وحتى انفراج لباسها الداخلي، وذلك التجعد من الجزء العلوي الممتلئ من ساقها تحت مؤخرتها، كان من الطبيعي أن استكشف على الفور خوفاً من أن كل ذلك ينظر إليه شخص ما بدوره وهو ينظر إليّ. ميلز الذي خرج من السراخس، كان مشغولاً بنظرات روز الغرامية، وكانت كلوي لاتزال هائمة في خيالها العقيم تحت شجرة الصنوبر، لكن ماذا عن السيد غريس، في ذلك الحين، هل كان يراقبني، منذ البداية، من تحت حافة قبعته تلك؟ كان يجلس كما لو كان متكوماً على نفسه، ذقنه على صدره وبطنه المكسو بالشعر يبرز من قميصه المفتوح، وكاحله العاري لايزال فوق ركبته العارية؛ لذا كان بوسعي رؤية الجزء الداخلي من ساقه، أيضاً، وصولاً إلى الكتلة الكبيرة في سرواله الكاكي المحشورة إلى حد بروزها بين فخذيه السميكين. في كل تلك الظهيرة الطويلة، بينما مدت شجرة الصنوبر ظلها الأرجواني عميقاً على نحوٍ متزايد فوق العشب من جهته، بالكاد ترك كرسيه القابل للطي إلا لملء كأس نبيذ زوجته أو إحضار شيئاً ليأكله- بوسعي رؤيته، يسحق نصف شطيرة لحم خنزير بين أصابعه كلها وإبهامه وحشو العصيدة الناتجة عنها دفعة واحدة في الحفرة الحمراء في لحيته.

بالنسبة لنا آنذاك، في ذلك العمر، كان جميع البالغين متقلبي المزاج، وحمقى بعض الشيء، لكن كارلو غريس تطلب مراقبة حذرة خاصة. كان قد تعرض لضربة مفاجئة، هجوماً غير متوقع. وهو جالس على كرسيه وهائم في جريدته، سدد ضربة سريعة بيده كضربة ثعبان إلى كلوي التي كانت تمر بالقرب، وأمسك أذنها وحفنة من شعرها وشدها بقوة وعلى

نحو مؤلم، دون أي ينبس بأي كلمة أو يتوقف عن القراءة، كأنما ذراعه ويده قامتا بذلك من تلقاء نفسيهما ودون تدخل منه. لقد انقطع عمداً في وسط الحديث عن شيء ما وبقي صامتاً كتمثال، يداً متدلية، تحديقاً فارغاً في اللا شيء أبعد من كتف المرء المرتعش العصبي كما لو كان يستحضر بعض الإنذارات المرعبة أو البعيدة، التي يسمعها وحده، ومن ثم فجأة افتعل قبضة زائفة على حنجرة شخص وضحك هسهسة من بين أسنانه. كان قد تشارك مع ساعي البريد، الذي كان على وشك أن يصبح نصف أبله، في جدال مهم حول توقعات الطقس أو النتيجة المحتملة لمباراة قادمة في كرة القدم، يومئ ويعبس ويمشط لحيته بأصابعه، كما لو كان ما يسمعه من أنقى لآلئ الحكمة، وبعد أن يغادر رفيقه البائس المزهو بنفسه، وهو يصفر بفخر، كان يلتفتُ نحونا ويبتسم، مع حواجب مرفوعة وشفتين مزمومتين يهز رأسه بمرح صامت. رغم أن جلّ انتباهي قد بدا منصبّاً على الآخرين، فأنا أعتقد حالياً أن أول فكرة استنتجتها من كارلو غريس هي أنني كنت في حضرة الآلهة. رغم عزلته ولامبالاته الظريفة فقد كان الوحيد الذي اتضح وكأنه يتحكم فينا جميعاً، الإله الضاحك، الإله بوسيدون إله الصيف، الذي أشرف على تنسيق عالمنا الصغير طاعة له بوساطة أحداث هذا العالم وتفاصيله الجزئية.

لا يزال ذلك اليوم من التساهل والإغراء غير المشروع مستمراً ولم ينته بعد. مثلما تمددت السيدة غريس هناك على الضفة المعشوشبة، تواصل الشخير بلطف، خيم الفتور والنعاس المتواصل على بقيتنا في ذلك الوادي الصغير، وأوقعنا بشرك خفي من التراخي الذي يخيم على الرفاق عندما ينفصل أحد أفرادها ويستسلم عميقاً في النوم. كان ميلز مستلقياً على بطنه فوق العشب بجانبي، لكنه يتجه نحو الجانب المعاكس، وهو لايزال يحدق نحو روز حيث كانت ماتزال تجلس خلفي على زاوية مفرش المائدة، سارحة الذهن كعادتها، بنظرات عينيه المستديرتين. كانت كلوي

ماتزال واقفة في ظل شجرة الصنوبر، تمسك شيئاً بيدها، ووجهها مرفوع، تنظر باهتمام إلى طائر، ربما، أو نحو تشابك أغصان مرتفعة نحو السماء، ونحو تلك القطع البيضاء من الغيوم التي بدأت بالتقدم ببطء في طريقها من البحر. أكان ذلك الشيء الذي استغرقت في تأمله على نحوٍ واضح، هو ذلك المخروط الصنوبري؟- بين يديها، ونظرتها الثاقبة ثابتة بين الأغصان التي يتخللها ضوء الشمس. فجأة، أصبحت المحور في المشهد، ونقطة الزوال التي تلاقت عندها كل الأشياء، فجأة أصبحت الغاية من تلك الأشكال وتلك الظلال التي نُسقِت ببراعة متناهية الدقة: ذلك المفرش من القماش الأبيض فوق العشب الناعم، والشجرة المائلة، ذات اللونين الأزرق والأخضر، والسراخس المزركشة، حتى تلك الغيوم الصغيرة، محاولة ألا تتحرك، نحو الأعلى في سماء بحرية لامحدودة. ألقيت نظرة سرية على السيدة غريس النائمة، نظرة ازدراء على ما أعتقد. فجأة لم تكن أكثر من جذع كبير وقديم لا حياة فيه، كما لو كانت تمثالاً مهملاً للآلهة التي لم يعد أحد يعبدها في القبيلة وقد ألقيت بعيداً في مكب النفايات، الذي أصبح هدفاً لصبية القرية بمقالعهم وأقواسهم وسهامهم.

فجأة، كما لو أنها استيقظت من لمسة باردة لازدرائي لها، نهضت والتفتت حولها بنظرة غير واضحة، وهي ترمش بعينيها. حدقت داخل كوب نبيذها وبدت متفاجئة لاكتشافه فارغاً. قطرة النبيذ تلك التي سقطت على صدارتها النسائية البيضاء تركت أثراً ورديا، فركتْه بأطراف أصابعها، مع طقطقة بلسانها. ثم نظرت حولها نحونا مرة أخرى وتنحنحت وطلبت منا أن نلعب معاً لعبة المطاردة. حدق الجميع بها، حتى السيد غريس.

«أنا لن أطارد أحداً»، قالت كلوي من مكانها تحت ظل الشجرة، وضحكت مع شخير مستنكر، وحينها قالت والدتها ينبغي عليها فعل ذلك، ولقبتها بالفتاة المعكرة للمزاج، جاءت ووقفت إلى جوار كرسي

والدها وأحنت كوعها فوق كتفه وركزت بعينيها نحو أمها، فيما طوق السيد غريس، الإله العجوز المبتسم، وركيها وضمها لحضنه الكثيف بالشعر. التفتت السيدة غريس نحوي وقالت: «سوف تلعب أليس كذلك؟»، «و روز، أيضاً».

أرى اللعبة كسلسلة من اللوحات المفعمة بالحيوية واللحظات الخاطفة من الاندفاع وتورد البشرة: روز انطلقت تسابق من نقطة في الوسط بين السراخس مرتدية قميصها الأحمر، رأسها مرفوع وشعرها الأسود يتطاير خلفها. بينما ميلز، كان جبينه ملطخاً بخط من عصارة السراخس مثل طلاء الحرب، يحاول التملص من قبضتي عندما كنتُ أحفر بمخالبي عميقاً في لحمه وقد شعرت بكرة من عظم كتفه تنسحق في تجويفها؛ صورة أخرى عابرة لروز وهي تركض، هذه المرة على الرمال القاسية وراء الأرض الجرداء، حيث كانت تطاردها السيدة غريس التي تقهقه عالياً، كانتا حوريتين عاريتي القدمين محاصرتين بين جذع شجرة الصنوبر وأغصانها، وخلفهما بريق فضي باهت للخليج والسماء المتجانسة العميقة بزرقتها على طول الطريق الممتد نحو الأفق، ها هي السيدة غريس في أرض خالية من السراخس جاثمة على ركبة واحدة كعداءة في انتظارها للانطلاق، وعندما كنت أباغتها، بدلاً من الفرار، كما ينبغي أن تفعل حسب ما تقول قواعد اللعبة، كانت تومئ لي بإلحاح وتجعلني أنحني إلى جوارها، وتطوقني بذراعها، وتجذبني نحوها حتى كان بوسعي الشعور بارتفاع صدرها وسماع دقات قلبها وشم رائحة الحليب والخل منها.

«إش»، تقول وتضع إصبعاً على شفتي- شفتي أنا وليست شفتها. مرتعشة، هادرة بضحكها المكبوت. لم أقترب للغاية من امرأة بالغة منذ كنت طفلاً بين ذراعي أمي، ولكن عوضاً عن شعوري بالرغبة في هذه اللحظة، أشعر فقط بنوع من الرهبة الحانقة.

هناك تعثرُ علينا روز رابضين، وتتجهم.

السيدة غريس، التي قبضت على يد الفتاة لتسحبها للأعلى، بدلاً من ذلك سحبتها نحو الأسفل فوقنا، وهناك بدأ الاشتباك بالأيدي والسيقان مع شعر روز المتطاير، فيما بعد تمددنا نحن الثلاثة، متكئين على أكواعنا ولاهثين، متلاصقين بأخامص أقدامنا لنشكل نجمة فوق العشب المسحوق. اندفعتُ للنهوض على قدمي، بخوف مفاجئ من أن السيدة غريس، معشوقتي السابقة، سوف تعرض صدرها نحوي مرة ثانية، وتضع يدها لتظلل عينيها وننظر نحوي بابتسامة غامضة قاسية وباردة. وأيضاً تنهض روز فجأة، وهي تنفض قميصها، بتمتمة غاضبة لم أفهمها وتخطو خطوات واسعة داخل السراخس. تهز السيدة غريس كتفيها.

تقول: «أنت متوقد»، ثم تأمرني بإحضار علبة سجائرها، وفجأة تعلن، كأنها تحتضر ذلك بسبب شعورها بالتعب الشديد.

عندما عدنا إلى الضفة العشبية وشجرة الصنوبر لم تكن كلوي ووالدها هناك.

حيث اتخذت فضلات النزهة، المبعثرة على المفرش، مظهراً متعمداً، كأنها رُتبت هناك كرسالة مشفرة علينا فكها. «يا للروعة»، قال السيدة غريس على نحو فج وتابعت: «لقد تركوا مهمة التنظيف لنا». خرج ميلز من بين السراخس مرة أخرى وانحنى ليقطف نصلاً من العشب وهو ينفخ نغمة أخرى بين أصبع وآخر، ساكناً ومغموراً كأنه تمثال الإله فون من الجص، وضوء الشمس يتوهج على شعره الباهت، وفي لحظات جاءه من بعيد جواب كلوي، بصافرة عالية نقية اخترقت الجو كصوت إبرة في نهار صيفي شاحب.

في الشأن المتعلق أن تراقب وتكون مرَاقباً، فلا بد لي أن أشير إلى الرجل الطويل الأبله والمحبط، الذي رأيته في صورتي على مرآة غرفة

الاستحمام هذا الصباح. في العادة هذه الأيام لا أقضي وقتاً أطول مما ينبغي أمام مرآتي. لقد انقضت أوقات كنتُ فيها تام الرضا عما رأيته في المرآة، لكن لم يبقَ شيء منها بعد. والآن، أنا مندهش، وأكثر من مندهش، من الوجه الذي يظهر فجأة هناك، أبداً لم يكن وجه الرجل الذي أتوقعه. لقد نحيت جانباً بمحاكاة ساخرة من نفسي، على هيئة شخص أشعث مثير للشفقة يرتدي قناع الهالوين المصنوع من المطاط المترهل بلون رمادي مائل للوردي والذي لا يحمل أكثر من شبه عابر لصورتي التي أصرُ على الاحتفاظ بها في رأسي.

وأيضاً، ثمة إشكال لدي مع المرايا. تلك الحقيقة، فأنا أعاني من العديد من المشكلات مع المرايا، لكنها في معظم الأحيان ذات طبيعة ميتافيزيقية، في حين أن ما أتحدث عنه موضوعي تماماً. كانت بسبب حجمي المبالغ به والزائد عن الحد المعقول، حيث تتموضع مرايا الحلاقة وما في حكمها على الحائط دائماً على مستو منخفض جداً بالنسبة لي، مما يضطرني إلى الانحناء لأتمكن من رؤية وجهي بالكامل. في الآونة الأخيرة عندما أرى إطلالتي في المرآة، منحنياً بذلك الشكل، مع ذلك التعبير عن الذهول الغريب والخوف الثقيل الذي يلازمني دائماً الآن، والفم مترهل والحاجبان مقوسان كتعبير عن دهشة مرهقة، أشعر بأنها قد اتخذت هيئة رجل مشنوق. عندما جئت إلى هنا أول ما فكرت فيه هو إطلاق لحية، للابتعاد عن الإحساس بالنقص الذاتي أكثر من أي شيء آخر، ولكن بعد ثلاثة أو أربعة أيام لاحظت أن الزغب لها قد أصبح بلون صدأ داكن غريب- الآن أدركتُ كيف تمكنت كلير أن من اكتساب شعر رأس أحمر اللون، والذي لا يشبه الشعر على فروة رأسي، والمرقط بخصل فضية اللون. هذا الشيء الضارب للحمرة، الخشن كورق الصنفرة، والمتناغم مع تلك النظرة المراوغة المحتقنة بالدم، حولني إلى شخص مدان في مسلسل فكاهي، تدور قصته عن قصة

حقيقية للغاية، لشخص لم يشنق بعد ربما ولكنه بالتأكيد ضمن فئة المحكوم عليهم بالإعدام. كان صدغيّ، حيث تناثر الشعر الأبيض، مرقطين بالنمش، نمش صيفي، أو نمش شيخوخة، على ما أعتقد، أيّاً كان، فأنا أدرك جيداً، بأنه قد يتفشى في لحظات بسبب نزوة من خلية مارقة. كما ألاحظ أيضاً أن العد الوردي قد انتشر بسرعة لدي. على نحوٍ ملحوظ كانت البشرة على جبيني مملوءة بالبقع الحمراء وكان ثمة طفح جلدي مهتاج على جانبي أنفي، وحتى على خدي كان الطفح قد تطور ليصبح توهجاً أحمر بشع.

كانت تخبرني نسختي الجليلة والمتداولة من قاموس بلاك ميديكال الطبي، بتأليف القدير الهادئ ويليام إي آر طومسون، دكتور في الطب- وطباعة آدم وتشارلز بلاك، لندن، الإصدار الثلاثين منه، بـ 441 رسم توضيحي بالأبيض والأسود، أو الرمادي الفاتح والرمادي الغامق، وأربع لوحات ملونة التي لا تكف أبداً عن إثقال تغضنات قلبي- أن العدّ الوردي، يا له من اسم لطيف لشكوى غير سارة، ينتج عن احتقان مزمن في المنطقة المتهيجة في الوجه والجبهة، مما يؤدي إلى تكوين حطاطات حمراء[36]؛ والنتيجة هي تبقع الجلد السطحي، وهو الاسم الذي يطلقه الأطباء على احمرار الجلد، الذي يزداد وينقص التكاثر والانحسار فيه لكنه أخيراً يصبح مستديماً، وربما، يحذر الطبيب الصريح من أن يصاحبه تضخم كبير في الغدد الدهنية، مما يؤدي إلى تضخم عام بحجم الأنف والذي يعرف بالأنف النحاسي أو براعم الضفدع[37]. التعبير المتكرر هناك- التورم المفرط... التورم المفرط- تعبير تعيس غير معهود في

36- الحطاطة: بثرة أو تورم صغير مرتفع وصلب، في معظم الأحيان ما يشكل طفحاً جلدياً وقد يكون ملتهباً لكنه لا ينتج صديداً.

37- أزهار الضفدع شبكة من الأوعية الدموية المنفجرة على الوجد، ولاسيما أنف من يشرب الخمرة بكثرة.

أسلوب الدكتور طومسون الذي عادة ما يكون مبتذلاً وإن كان إلى حد ما أسلوباً نثرياً قديماً. أتساءل عما إذا كان يقوم بزيارات منزلية لمرضاه. سوف يكون حريصاً على اتباع أسلوب مريح بجانب السرير مع امتلاكه لمورد غزير من المعلومات في مواضيع كثيرة، وليست كلها ذات صلة بالصحة. الرجال العاملون في المجالات الطبية يملكون قدرات أكبر من تلك التي منحت لهم. كانت روجيت في قاموس روجيت الموسوعي طبيباً معالجاً، قامت بأبحاث مهمة حول الغاز المثير للضحك وأضراره، وبلا شك فقد عالجت المريض الغريب، في تسويقها لذلك. لكن أزهار الضفدع، الآن، ذلك هو الشيء الذي نتطلع إلى علاجه الآن.

عندما أتأمل وجهي في المرآة هكذا أفكر تلقائياً بتلك الدراسات الأخيرة التي أجراها بونارد عن نفسه في مرآة غرفة الاستحمام في لا بوسكيه قبيل نهاية الحرب بعد أن ماتت زوجته- يصف الخبراء هذه بالصور المثيرة للشفقة، رغم أني لا أرى سبباً ينبغي الشعور بالشفقة حيالها- لكن في الحقيقة أكثر ما تذكرني به مرآتي، الأمر الذي أدركته للتو، هو صورة فان كوخ الشخصية، ليست صورته المشهورة مع ضمادة وغليون وقبعة بالية، لكنها صورة من سلسلة صور أكثر قدماً، في باريس عام 1887، كان فيها عاري الرأس في قميص ذي ياقة عالية وربطة عنق بروفانس زرقاء اللون بأذنين سليمتين، وكان يبدو كأنه خرج للتو من شكل من أشكال الغطس التأديبي، الجبين منحدر والناصية منحسرة والخدان كأنهما مجوفان من الجوع؛ كان ينظر بعيداً خارج إطار الصورة جانبياً، بحذر مع تنبؤ مشؤوم، وتوقع للأسوأ، كما ينبغي له.

هذا الصباح، أكثر ما أذهلني هي الحالة التي وجدتُ عليها عيني، والبياض المتصدع بتلك الشعيرات الدموية الدقيقة، وقد التهب الجفنان السفليان الرطبان الملتهبان وارتخيا بطريقة فضفاضة من المقلتين. ألاحظ، أنه لم يتبق لدي أية أهداب تقريباً، أنا الذي

كنت أتمتع في صغري بأهداب حريرية ربما حسدتني الفتيات عليها. لقد ظهر عند الطرف الداخلي للجفن العلوي نتوء صغير قبل الوصول لمؤق العين، التي كانت صافية نوعاً ما لولا ذلك الاصفرار الدائم في طرفها، كأنها عين رجل مريض. ثم ماذا عن هذا البرعم في مؤق العين نفسه، ما هو الغرض منه؟ لا شيء في سيماء الإنسان يحتمل هذا الفحص الدقيق الطويل. المنطقة الشاحبة ذات اللون الوردي من خدي، والتي أخشى أنها كالمنطقة الشاحبة والغائرة لدى المسكين فنسنت، أصبحت أكثر وضوحاً وشحوباً بفضل السطوع المنعكس عن الجدران البيضاء وميناء الحوض. هذا السطوع لم يكن انعكاساً لتوهج شمس الخريف الشمالي، لكنه بدا أشبه بالتوهج الجاف القاسي الذي لا يطاق في أقصى الجنوب. حيث تلألأ على المرآة أمامي وغرق في الطلاء الطباشيري للجدران، ليمنحها مسحة جافة وهشة كعظم الحبار. وقد انعكست الحزمة الساقطة منه على المغسلة نحو الخارج في كل الاتجاهات كغمامة مترامية الأطراف. وأنا واقف هناك في صندوق الضوء الأبيض ذاك، الذي حملني للحظات إلى شاطئ بعيد بعض الشيء، لا أدرك إن كان ذلك على نحو حقيقي أو متخيل، مع ذلك كانت التفاصيل بالغة الروعة أشبه بالحلم، هناك كنتُ جالساً تحت ضوء الشمس على حافة صلبة من الرمال الصخرية أمسك بين يدي حجراً كبيراً مسطحاً أملسَ أزرق اللون. كان الحجر جافاً ودافئاً، تراءى لي أنني أضغطه على شفتي، وقد تبينتُ مذاقه المالح كمذاق أعماق البحر وأغواره، فيما كانت الجزر البعيدة، والأماكن المجهولة تحت السعف المائلة، والهياكل العظمية للأسماك الضعيفة، تتحطم وتتعفن. كانت الموجات الصغيرة أمامي عند حافة الماء تكلمني بصوت مفعم بالحيوية، تثرثر لي بحماس عن بعض الكوارث القديمة، كحصار طروادة، ربما، أو غرق

أتلانتس. كل الحواف هناك كانت مالحة ولامعة. وحبيبات الماء تتشظى وتتهاوى على شكل خيط فضي من طرف المجذاف. أرى السفينة السوداء من بعيد، تلوح في الأفق على نحو خفي وتقترب أكثر وأكثر في كل لحظة. ها أنا ذا هناك، أستمع لأغنيتك صفارة الإنذار[38]. ها أنا ذا هناك، حقاً هناك.

38- تتحدث أسطورة صفارات الإنذار عن مخلوقات لديها موهبة الغناء على نحوٍ جميل لدرجة أنها تصل بالرجال إلى نشوة منومة. ومع ذلك فإن غناءهم يقودهم أخيراً إلى الموت. لهذا السبب تسمى أغاني صفارات الإنذار بالخدع القاتلة.

الجزء الثاني

كانت حياتنا اليومية تبدو وكأننا قضينا معظمها في البحر كلوي وميلز وأنا. سبحنا تحت الشمس والمطر؛ في الصباح بينما كان البحر ثقيلاً كالحساء، وعند المساء، بينما كانت المياه تتدفق فوق سواعدنا أشبه بقماش من الساتان الأسود؛ ذات ظهيرة مكثنا في المياه أثناء عاصفة رعدية، وضربت شوكة البرق سطح البحر بالقرب منا حتى سمعنا فرقعته وشممنا الهواء المحترق. لم أكن سبّاحاً ماهراً. كان التوأمان يخضعان لدروس في السباحة منذ كانا رضيعين وكانا يشقان الأمواج دونما عناء، أشبه بزوج من المقصات اللامعة. ما افتقرتُ إليه من مهارة ورشاقة استعضتُ عنه بالقدرة على التحمل. تمكنت من الذهاب لمسافات طويلة دون توقف، ومرارًا قمتُ، بغض النظر عن وجود أي جمهور، بالخوض قدماً بسباحة جانبية حتى استنفذتُ ليس نفسي فقط، وإنما صبر المتفرجين على الشاطئ الرملي أيضاً.

حدث ذلك عند نهاية إحدى تلك العروض الاحتفالية البسيطة والبائسة حيث انتابني شك أول مرة تغيرات طرأت على اهتمام كلوي تجاهي، أو ما يجدر بي قوله، شك أنها كانت مهتمة بي وأن تقلبات طرأت على ذلك الاهتمام. في وقت متأخر من المساء، كنتُ قد سبحت مسافة- لا أدري أهي مئة أو مئتي ياردة؟- بين اثنين من المصدّات الخرسانية المغطاة بالطحالب التي قُذفت في البحر قبل وقت طويل في محاولة يائسة لوقف التآكل الزاحف للشاطئ. تخبطتُ خارج الأمواج لأكتشف أن كلوي تنتظرني على الضفة، طوال الوقت الذي كنتُ فيه في الماء. وقفت منكمشةً في منشفة السباحة، ترتجف بشدة؛ كانت

شفتاها بلون الخزامى. قالت بفظاظة: «أنتَ تعلم، أنه ما من حاجة للاستعراض». قبل أن أتمكن من الرد- وماذا عساي أن أقول، على أية حال؛ لأنها كانت محقة، فقد كنتُ أقوم بالاستعراض- قفز ميلز فجأة عن الكثبان الرملية فوقنا على ساقين متدحرجتين ورشنا نحن الاثنين بالرمل وفي الحال تخيلتُ كلوي، بوضوح تام وإثارة مريبة، كما رأيتها أول مرة في ذلك اليوم عندما قفزتْ عن حافة ذلك الكثيب الآخر باتجاه مركز حياتي. آنذاك ناولتني منشفتي. نحن الثلاثة كنّا الوحيدين على الشاطئ. وكان الجو الكئيب السديمي في المساء يشي برائحة رماد مبلل. استدرنا وسرنا نحو الفجوة في الكثبان الرملية التي تقود إلى ستيشن رود. يزحفُ طرفٌ من منشفة كلوي في الرمال. أمضي قُدماً بمنشفتي الملقاة فوق كتف واحد وشعري المبلل المنسدل نحو الأسفل، كسيناتور روماني صغير القامة. ويتقدمنا ميلز. لكن من هو ذاك الذي يتسكع هناك على الشاطئ الرملي في الضوء الخافت، قريبًا من البحر المعتم الذي يبدو كأنه يقوس ظهره كالوحش بينما يتقدم الليلُ سريعًا من الأفق السديمي؟ أي شبح مستنسخ مني هو الذي يترصدنا- ويترصدهم- هؤلاء الأطفال الثلاثة- وهم يزدادون ضبابية في ذلك الطقس السديمي ومن ثم يساقون عبر الفجوة التي ستضعهم خارجاً على طريق ستيشن رود؟

لم أصف كلوي بعد. في المظهر لم يكن اختلاف كبير بيننا، هي وأنا، في ذلك العمر، أعني في صفاتنا الخاصة بنا التي يمكن مقارنتها. حتى شعرها، أصهب اللون تقريباً لكنه داكناً عندما تبلل ليصبح بلون القمح القشيب، بالكاد كان أطول من شعري. صففته على طريقة بيج بوي، مع غُرّة في المقدمة تتدلى على جبهتها الجميلة ذات القبة المرتفعة والمحدبة على نحو غريب- هذا الشبه الملحوظ بينها وبين تلك الشخصية الشبحية المرئية في الصورة الجانبية التي تحوم عند حافة لوحة بونارد (طاولة أمام

النافذة[39]، كان مفاجئاً لي. المشهد مع سلطة الفاكهة والكتاب والنافذة، كأنه لوحة قماشية مرئية من الخلف مسنودةٌ على حامل؛ كل شيء كان يبدو مختلفًا بالنسبة لي، ذلك ما ألاحظه على نحو متزايد. أحد الأولاد الأكبر سنًا من المجمع السكني أكد لي بضحكةٍ مكتومة أن غرّة الشعر كغرة كلوي كانت علامة واضحة لفتاة كانت تلهو مع نفسها. لم أدرك ما الذي كان يعنيه. لكني لمستُ بالتأكيد أن كلوي لم تكن تلهو، مع نفسها أو أي شيء آخر. ولا حتى ألعاب الكرة أو المطاردة التي استمتعتُ باللعب بها سابقاً مع الفتيان الآخرين في المجمع السكني. وكم سخرتْ، وهي تفتح منخاريها على آخرهما، عندما أخبرتها عن وجود فتيات من عمرها بين العائلات في المجمع السكني مازلن يلعبن بالدمى. لقد تعاملتْ مع العديد من قريناتها بازدراء شديد. لم تكن كلوي تلهو، إلا مع ميلز، وما فعلاه معاً لم يكن لهواً حقيقياً.

الفتى الذي أشار لناصية شعرها، أتخيله فجأة، كأنه ماثلٌ أمامي الآن، هو شخص يدعى جو، فتى ضخم البنية بعظام عريضة، وأذنين كأذني جرّة ماء وشعر خشن- قال أيضاً أن لكلوي أسنان خضراء اللون. كنتُ مستاءً، لكنه كان على حق؛ فقد رأيتُ، في الأوقات اللاحقة حين أتيحت لي الفرصة لإلقاء نظرة عن كثب، مسحةً باهتةً على مينا قواطعها التي اخضرّ لونها بالفعل، لكنه اخضرار شاحب اللون ورطب بعض الشيء، يشبه الضوء المبلل تحت الأشجار بعد المطر، أو ظل ثمار التفاح الباهت من الجهة السفلية للأوراق منعكساً في المياه الراكدة. التفاح، نعم، كان لأنفاسها أيضاً رائحة التفاح. فقد كنّا كائنات صغيرة، نشم بعضنا بعضاً.

لقد أحببتُ على وجه الخصوص، عندما أتتني الفرصة في وقت ما لتذوقها، الرائحة الجبنية النافذة في شقوق مرفقيها وركبتيها. أنا مضطر

39- طاولة أمام النافذة لوحة لبيير بونارد.

للاعتراف، بأنها لم تكن الأكثر نظافة بين الفتيات، وإجمالاً فقد أصدرت بقوة أكبر مع تقدم الأيام، رائحة محيرة وسطحية، تشبه تلك الفواحة، والتي تفوح عادةً من علب البسكويت الفارغة في المتاجر- أما زالتِ المتاجر تبيع البسكويت اللين من تلك العلب المربعة الكبيرة؟ يداها، عيناها. وأظافرها المتآكلة. كلُّ هذا أتذكره، وأتذكره بشدة، رغم أنها أشياء متفرقة، لا أستطيع جمعها ضمن إطار واحد. بالمحاولة ما استطعت، والتظاهر ما استطعت، أعجز عن استحضارها كما استحضر والدتها، مثلاً، أو ميلز، أو حتى جو صاحب الأذنين البارزتين من المجمع السكني. لا أستطيع باختصار تخيلها. فهي تترنح أمام عدسة ذاكرتي على مسافة ثابتة، ودائماً خارج نطاق التركيز، تتحرك نحو الخلف بنفس القدر تماماً الذي أتقدم به نحو الأمام. لم يعد بإمكاني مواكبتها فقد بدأت تتضاءل أكثر وبوتيرة أسرع، لماذا لا أستطيع اللحاق بها؟ حتى لازلت أراها في الشارع أحياناً، أعني شخصاً قد يكون هي، بنفس الجبين المقبب والشعر الشاحب، بالتهور نفسه مع تردد مريب، وبمشية كمشية الحمامة، لكنها على الدوام يافعة للغاية، ويافعة بالسن. هذا هو اللغز الذي حيرني آنذاك، ويحيرني حتى اللحظة. كيف يمكنها أن تكون معي في لحظة ما وفي اللحظة التالية لا؟ كيف يمكنها أن تكون في مكان آخر، على نحو مطلق؟ ذلك ما لم أستطع فهمه، والتوافق معه، ولاأزال. حين تغيب عن ناظري ينبغي أن تتحول إلى مجرد مخيلةٍ خالصة، ذكرى من ذكرياتي، حلمًا من أحلامي، لكن كل الأدلة أثبتت لي أنها رغم ابتعادها عني بقيت كما هي بنفس القوة، والعناد، على نحو لا يمكن فهمه. ومع ذلك فإن البشر يرحلون، ويتلاشون. ذلك هو اللغز العظيم؛ بل الأعظم. أنا أيضاً قد أذهب، أجل، عند إشعار لحظي قد أرحل كما لو أنني لم أكن، غير أن عادة العيش المديد تجعلني غير مستعد للموت، كما يقول الدكتور براون.

«أنت صبور» قالت لي آنا ذات يوم قبيل موتها. «ذلك وصف غريب. يجدر بي القول، إني لا أتحلى بالصبر على الإطلاق.»

لا أستطيع التذكر- متى بالضبط تحولتْ مشاعري من الأم إلى الابنة- كم أنا مغرم بهذه التعابير البالية!. هناك تجسدت تلك اللحظة من الإدراك والزخم في النزهة مع كلوي، تحت شجرة الصنوبر، لكنها طغت بالجمال عوضاً عن الهيام أو الشهوانية. لا أتذكر لا لحظة التسليم والإقرار المهولة، ولا انزلاق يد كلوي بخجل داخل يدي، ولا العناق الفجائي العاصف، ولا الاعتراف المتلعثم بحب سرمدي. تلك هي، حيث بلا شك حدثت بعض تلك الأشياء أو كلها، المرة الأولى التي تلامست فيها أيادينا، وتعانقنا، وتصارحنا، لكن هذه الأوقات الأولى تضيع في ثنايا ماض سريع الزوال. حتى في ذلك المساء عندما خرجتُ من البحر بأسنان تصطك ووجدتها تنتظرني بشفاه مزرقة عند الشاطئ الرملي في الغسق لم أعان من الصخب الصامتُ الذي من المفترض أن يحدثه الحب في قلب فتى غير عرضة للتأثر ربما. رأيتُ كم كانتْ تشعر بالبرد، وأدركتُ كم انتظرت طويلاً، ولاحظتُ كذلك الأسلوب الرقيق الودي في سحبها لذيل المنشفة فوق ضلوعي الهزيلة المقشعرة، ولفها فوق كتفي، لكني رأيتُ وأدركتُ ولاحظتُ مع توقد متزايد لشعور بالمتعة، كما لو أن أنفاساً حارةً قد نفخت على لهب مشتعل داخلي في مكان ما مجاور لقلبي وجعلته يتوهج لمدة وجيزة. أيضاً فإن تحول المشاعر، كي لا أقول استحالتها، قد حدث بلا شك، على نحو سري.

أتذكر قبلةً، واحدة بين تلك القبلات الكثيرة التي نسيتها. لا أعرف إن كانت قبلتنا الأولى أم لا. كانت القبلات تعني الكثير آنذاك، بمقدورها التحكم في سير كل الأشياء، في المشاعل والمفرقعات النارية، في النوافير، وتدفق الينابيع الحارة، وفي الكثير. حدثت هذه القبلة- اللا متقطعة-

واللا متصلة، بالتعبير الأدق، في دار السينما الجوالة من ألواح الحديد المموج، والتي كانت مقامة طوال الوقت وعلى نحو خفي من أجل هذا الغرض بالذات بين العديد من التلميحات الخبيثة والمتعددة التي أوردتها عبر هذه الصفحات. كانت شبيهة بالإسطبل على جزء صغير من أرض بور مهملة بين كليف رود والشاطئ. تمتعت بسقف شديد الانحدار وبلا نوافذ، ولها باب جانبي فقط، مغطى بستارة طويلة من الجلد، على ما أعتقد، أو بقماش ثقيل نوعًا ما، وذلك كي لا تصبح الشاشة بيضاء عند دخول الوافدين لمشاهدة العرض الصباحي أو عند المساء عندما تطلق الشمس أشعتها الأخيرة الثاقبة من وراء ملاعب التنس. للجلوس خُصِصت مقاعد خشبية هناك- سميناها القوالب- وكانت الشاشة عبارة عن قطعة مربعة كبيرة من الكتان والتي يزيحها أي تيار هوائي عابر، مانحاً تموجاً إضافياً لأوراك بعض البطلات اللواتي يرتدين الحرير أو ارتجافاً غير متناسق ليد الممثل الشجاع التي تحمل السلاح. كان مالكها السيد ريكيت، أو رايكيت، رجلاً صغير القامة يرتدي سترة من طراز فير آيل، يساعده ولداه اليافعان الوسيمان كبيرا القامة، اللذان كانا خجولين بعض الشيء، حين فكرتُ، في مشروعهم العائلي، بتفاهة استعراضاته العرض وخلاعيته. هنالك كان كشاف ضوئي واحد فقط، وهو عبارة عن شيء مزعج قابل لارتفاع كبير في الحرارة- كلي ثقة أني ذات مرة رأيتُ دخاناً يتصاعد من أحشائه- لذلك فإن العرض بأكمله يتطلب تغيير بكرتين على الأقل. في هذه الاستراحات، السيد ريكيت، والذي كان مختصاً بعرض الأفلام أيضاً، لم يرفع شدة الإضاءة- على سبيل التوفير- وعلى نحوٍ متعمد، أنا واثقٌ، أن سينما ريكيت أو رايكيت قد حظيت بسمعة سيئة- كما حظي العديد من الثنائيات، حتى من هم تحت السن القانوني، بفرصة لمدة دقيقة أو دقيقتين من اللمسات الجنسية المثيرة والخفية في الظلام الدامس.

بعد ظهر ذلك اليوم، ظهر يوم السبت الممطر لتلك القبلة الرائعة التي على وشك أن أصفها، كنا، كلوي وأنا، جالسين في منتصف المقعد في المقدمة، قريبين للغاية من الشاشة التي بدت وكأنها تخيم فوق رأسينا من الأعلى حتى أن أكثر الأطياف السوداء والبيضاء رقة قد تماوجت عبرها بهوس جنوني. كنتُ قد أمسكتُ بيد كلوي وقتاً طويلاً حتى توقفت عن الشعور بها في يدي- لم يكن بوسع اللقاء الأولي دمج جسدين تماماً كما فعل ذلك التشابك الطفولي للأيادي- وبالتزامن مع التأرجح والترنح انطفأت الشاشة وارتجفت أصابعها كالأسماك كما ارتجفت أصابعي أيضاً. فوقنا احتفظت الشاشة بتوهج رمادي خافق شبيه بالظل استمر قليلاً قبل تلاشيه، وشيء ما بدا مستمرّاً حتى عندما اختفى، إنه طيف الطيف. في العتمة هناك كان الصخب المعتاد مع صفير وصوت مدو لارتطام الأقدام بالأرضية. عندما حانت شارة النهاية، تحت مظلة الصخب هذا، أدرنا كلوي وأنا رأسينا في آن واحد، وبخشوع كسكيرين متدينين، انغمس وجه كل منا بوجه الآخر حتى تلاقت شفاهنا. لم نعد نرى شيئاً، تزاحمت مشاعرنا كلها. شعرتُ كما لو كنا نحلق في الحلم بكل يسر رويداً رويداً، عبر الظلام الداكن والهش. أمست الضوضاء حولنا بعيدة للغاية آنذاك، مجرد غمغمات من صخب بعيد. كانت شفتا كلوي باردتين وجافتين. لقد تذوقتُ أنفاسها المتسارعة. أخيراً وبنتهيدة غريبة يخالطها شيء من صفير خافت، أشاحت بوجهها عني عبرني دفقٌ وامضٌ على طول عمودي الفقري، كأنه شيء حار سال فجأة وشق قناته الطويلة الجوفاء. عندئذ أعاد السيد ريكيت أو رايكيت- أو ربما كان روكيت؟ جهاز العرض إلى عمله الحيوي مرة ثانية واستقر الجمهور في حالة من الهدوء نوعاً ما. توهجت الشاشة باللون الأبيض، وقعقع الفيلم بين المشاهدين، وفي الثانية قبل أن تبدأ صوت الشارة سمعت المطر الغزير الذي كان ينقر على سقف الحديد فوقنا وقد توقف فجأة عن الهطول.

كانت السعادة في الطفولة مختلفة تماماً. كثيراً ما كانت آنذاك قضية بسيطة لتراكم، واكتساب الأشياء- تجارب جديدة، وأحاسيس جديدة- ورصفها كالعديد من صفائح القرميد المصقول لتصبح في يوم من الأيام خيمة للذات مشغولة على نحو رائع. وكان للشك أيضاً دور كبير في الحصول على السعادة، أعني ذلك العجز المفرط عن الإيمان بفرصة حصول المرء على السعادة البسيطة. هنالك كنتُ، فجأة، مع فتاة بين ذراعي، بالمعنى المجازي على الأقل، أفعل الأشياء التي فعلها الكبار، أمسك يدها وأقبلها في الظلام، وعندما انتهى العرض، وقفتُ جانباً، وتنحنحتُ بتهذيب شديد، لأسمح لها بالمرور قبلي تحت الستارة الثقيلة وعبر البوابة لتخرج إلى ضوء الشمس المغسول بالمطر في أمسية صيفية. كنتُ أنا نفسي وفي الوقت ذاته كنتُ شخصاً آخر، شخصاً آخر تماماً، شخصاً جديداً تماماً. بينما كنتُ أسير خلفها وسط الحشد المتثاقل باتجاه مقهى ستراند لمستُ شفتي بأطراف أصابعي، الشفتين اللتين قبلتها بهما، متوقعًا إلى حد ما أن أجد فيهما تغييرًا في بعض التفاصيل الدقيقة للغاية لكنها بالغة الأهمية. توقعت لكل شيء أن يتغير، كحال اليوم نفسه، الذي كان غائماً وماطراً ومتدلٍ بغيوم ذات بطون كبيرة عندما كنا ندخل إلى دار السينما في مدة ما بعد الظهيرة وبعد ذلك وعندما حل المساء كان كل شيء يغمره ضوء الشمس الذهبي والظلال المائلة، والعشب مندى باللآلئ وزوق شراعي أحمر على الخليج تستدير مقدمته وتنطلق نحو الأفق في الغسق الأزرق البعيد.

في المقهى، ها نحن في المقهى.

كانت أمسية كتلك تمامًا، أمسية يوم الأحد عندما أتيت للاستقرار هنا، بعد أن ماتت آنّا أخيراً. رغم أنه الخريف وليس الصيف، كان السطوع الذهبي الداكن للشمس والظلال الحبرية الطويلة والممتدة على شكل سروات مبتورة، متشابهة، وكان ثمة انطباع مماثل عن كل

شيء مشبع وحقيقي وبذات البريق اللازوردي على سطح البحر. شعرتُ بخفة مبهمة؛ كان الأمر كما لو أن المساء، بكل تشبعه واحتقانه بالشجن المخادع، قد انتزع مني على نحو آنيّ شحنة الأسى والحزن. منزلنا، أو منزلي، كما هو الحال المفترض له، لم يباع حتى ذلك الحين، لأني لم أكن أتمتع بعد بقوة قلب لأعرضه للبيع في سوق العقارات، لكني لم أستطع البقاء هناك لحظة أخرى. بعد موت آنّا صار أجوف، وتحول إلى غرفة واسعة للصدى. كانت ثمة عدائية بعض الشيء في الأجواء، كذلك، الغضب الهادر لكلب عجوز غير قادر على استيعاب أين ذهبت سيدته الأثيرة مع شعوره بالاستياء من السيد الذي لايزال هنا. لم تسمح آنا بإخبار أي شخص بمرضها. توقع الناس أن شيئاً ما قد حدث، لكنهم لم يكونوا على حق، وحتى الشوط الأخير، وكان بالنسبة لها اللعبة بحد ذاتها. حتى كلير تُرِكت لتخمن أن والدتها تموت. والآن انتهى ذلك كله، وبدأ شيء آخر، والذي أصبح بالنسبة لي، المهمة الدقيقة المتمثلة في بقائي على قيد الحياة.

تحمست الآنسة فافسور مع تحفظ عند وصولي، توهجت بقعتان مستديران صغيرتان أشبه بقطعتين من قماش الكريب الوردي أعلى خديها المتجعدين بخطوط رفيعة وقد استمرت بتشبيك يديها أمامها وزم شفتيها لتمنع نفسها من التبسم. عندما فتحت الباب كان الكولونيل بلوندن هناك، متمايلاً خلفها في الرواق، مرة عند كتفها هذا ومرة عند كتفها الآخر؛ استطعتُ الإدراك حالاً أن رؤيتي لم ترق له. أتفهم ذلك؛ فقد أصبح زعيم المكان هنا قبل أن أصل وأطرده من منصبه. مواصلاً الحملقة باستياء مباشرة نحو ذقني، التي كانت على مستوى نظره، بسبب قصر قامته رغم انتصابه الشديد، هزَّ يدي وتنحنح، بكل مكر ورجولة مع تعليقات بصوت عالٍ عن الطقس، مؤدياً دور الجندي المسن، على ما أعتقد. تلك الأشياء التي تتعلق به لم

تكن متوافقة تماماً. شيءٌ ما شديد اللمعان، وشيءٌ ما لائق للغاية. حذاء بروغ اللامع ذاك، والسترة صوفية من ماركة هاريس مع قماش جلدي على الكوعين وإسوارتي الأكمام، والصدرية الصفراء الكناري التي يرتديها وهو يمارس الرياضة في أيام الاستراحات الأسبوعية، تبدو جميعها أشياء بسيطة وجيدة جداً ليكون معافى. يتمتع ببراعة مصقولة لممثل لعب نفس الدور لمدة طويلة. أتساءل إذا كان حقّاً رجل جيش متقاعد. يبلي حسناً بإخفاء لكنته البلفاستية لكن دلالات عنها تستمر بالإفلات منه، أشبه برياح محتجزة. ومهما يكن، لماذا يخفيها، ما الذي يخشى إخبارنا به؟ تؤكد الآنسة فافسور أنها شاهدته في أكثر من مناسبة متسللاً نحو الكنيسة في يوم الأحد لتأدية قداس مبكر. أهو كولونيل كاثوليكي من بلفاست؟ أمره عجيبٌ؛ وإلى حدٍّ بعيد.

عند ناصية النافذة في الردهة، غرفة المعيشة سابقاً، أُعدِت طاولة الصيد[40] لشرب الشاي. كانت الغرفة كبيرة كما تذكرتها، أو بانت كأنها كانت كما تذكرتها؛ لأن الذكريات حريصةٌ باستمرار على مجاراة أنفسها بكل سلالة مع أشياء وأماكن من ماض أعيد النبش فيه. نُسِقت الطاولة على نحوٍ رائع، أكانت تلك الطاولة حيث وقفت السيدة غريس تنسق الزهور في ذلك اليوم، في اليوم الذي قضاه الكلب مع الكرة؟ إبريق شاي فضي كبير مع مصفاة مناسبة، وأفضل طبق خزف صيني، ومقشدة عتيقة، وملقط خاص بمكعبات السكر، إضافة للمفارش. ارتدت الآنسة فافسور الزي الياباني، وكان شعرها على هيئة كعكعة كبيرة وقد اخترقها دبوسان كبيران متصالبان، الأمر الذي دفعني للتفكير، على نحو غير ملائم، بتلك المطبوعات الإباحية اليابانية من القرن الثامن عشر التي

40- طاولة الصيد صُمِمت هذه الطاولات للاجتماعات بعد صيد الثعالب لتناول المشروبات وللطعام، وقد صنعت على شكل حدوة حصان لسهولة التقديم.

تظهر فيها السيدات البدينات بوجوههن الخزفية يكابدن بهدوء الملاطفات البذيئة لرجال عابسين بأعضاء كبيرة، وأصابع رشيقة لافتة للنظر حين دهشتُ عند رؤيتها.

لم نواصل الحديث فيما بيننا. فالآنسة فافسور مازالت متوترة حتى ذلك الحين ومعدة الكولونيل كانت تقرقر. أعمى السطوع المتأخر للشمس المنتشر خلال شجيرة خارجاً في الحديقة الهائجة، أعيننا وجعل الأشياء على الطاولة تبدو وكأنها تهتز وتتحرك. شعرتُ بقلق مبالغ به، لامعنى له، أشبه بمراهق جانح أرسله والداه فاقدي الأمل منه إلى الريف ليتعهده زوجان من الأقارب الأكبر سنّاً. أكان الأمر برمته خطأ شنيعاً؟ هل ينبغي أن أتذرع بحجة ما وأهرب إلى فندق لقضاء الليلة، أو أعود إلى المنزل، بالأحرى، وأكابد الفراغ والأصداء؟ حينئذ فكّرتُ مليًا أنني أتيتُ إلى هنا تحديدًا ولذا ينبغي أن يكون تصرفاً خاطئاً وأخرقًا، وغير سديد، على حد تعبير آنّا. قالت كلير: «أنت مجنون، ستموت من الضجر هناك». أجبتها بالمقابل أن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لها، فقد حصلت على شقة جديدة ورائعة- ومن دون إضاعة للوقت، ثم لم أضف شيئاً آخر. قالت: «إذن تعال وعش معي، هناك متسع يكفي لشخصين». أعيش معها! وثمة متسع لشخصين! لكن اكتفيتُ بشكرها وقلتُ لا، حيث إني تمنيت البقاء وحدي. لا أستطيع تحمّل الطريقة التي تنظر بها نحوي هذه الأيام، بحنان وتودد طفولي غامرين، رأسها مسنود على جانب واحد على الشاكلة التي اعتادت على فعلها آنّا بالضبط، بحاجب واحد مرفوع وجبينها متغضن باهتمام. أنا لا أريد الاهتمام. أريد أن أغضب، وأن أشتم، وأن أبطش. أنا أشبه رجلاً يعاني من آلام مبرحة في أسنانه وعلى الرغم من الألم يشعرُ بمتعة انتقامية في دفع رأس لسانه مرة تلو مرة عميقاً داخل الحفرة النابضة بالألم. أتخيلُ قبضةً تحلقُ من عدمٍ وتلكمني بدقة على وجهي، كأنني

أشعر بالارتطام وأسمع عظم أنفي يتكسر، حتى التفكير في ذلك يمنحني نوعاً من الطمأنينة المحزنة. بعد مراسم الدفن، عندما عاد الناس إلى المنزل- الذي أصبحَ مريعاً، ولا يحتمل على ما أعتقد- أمسكتُ بكأس نبيذ بقوة حتى سحقته في قبضتي. باستمتاع، راقبتُ دمي كما لو كان دماً يسيل من عدوي الذي جرحته بطريقة وحشية.

«إذاً أنت تعمل في مجال الفن، أيضاً» قال الكولونيل بحذر. «هناك الكثير من المكاسب فيها، أليس كذلك؟»

ما عناه هو المال. عبست الآنسة فافسور في وجهه بشفاه مزمومة وهزت رأسها مستنكرة. قالت هامسةً، بالعةً الكلمات فور النطق بها: «هو فقط يكتب عن الفن»، كأنها بتلك الطريقة تجنبني سماعها.

نظر الكولونيل سريعاً مني إليها وعاد ثانية وأومأ رأسه بصمت. يتوقع أنه فعلَ شيئاً على سبيل الخطأ، فهو معتاد على ذلك. يتناول كوب الشاي وإبهامه معقود. الإبهام من يده الأخرى معقوف ومسطح بصفة دائمة على راحة يده، تلك تعد متلازمةً، ليست شائعة، لقد نسيت اسمها؛ تبدو مؤلمةً لكنه يقول إنها ليست كذلك. يؤدي بتلك اليد، إيماءات فظيعة بذيئة ومراوغة، كقائد أوركسترا يدعو للعزف على آلات النفخ الخشبية أو يحث الجوقة على رفع أصواتهم. لديه رعشة طفيفة أيضاً، أكثر من مرة اصطك كوب الشاي بأسنانه الأمامية، والتي كانت طقماً من الأسنان بلا شك، ناصعة البياض وعلى سوية واحدة. جلده الأجعد والأسمر واللامع الذي يكسو وجهه المسفوع وظاهر يديه، أشبه بالورق البني اللامع الذي أُستخدِم لتغليف أشياء يصعب تغليفها.

قال: «أنا أرى» دون أن يرى على الإطلاق.

ذات يوم عام 1893 راقب بيير بونارد فتاةً تترجل من قطار باريس، وانجذب إلى جمالها الرقيق والشاحب، لحق بها إلى مكان عملها، في

مكتب دفن الموتى، حيث كانت تقضي أيامها في خياطة اللؤلؤ على أكاليل الزهور الجنائزية. هكذا كان الموت منذ البداية ينسج عصابته السوداء داخل حياتهما. سرعان ما تعرّف عليها- أخمن أن هذه الأمور تدار بسهولة وهدوء في الزمن الجميل- وبعد ذلك بوقت قصير تركت عملها وكلّ الأشياء الأخرى في حياتها، ورحلت لتعيش معه. أخبرته أن اسمها كان مارثي دي ميلغني، وأنها كانت في السادسة عشر من عمرها. في الحقيقة، مع أنه لم يكتشف الأمر إلا بعد مرور ثلاثين عاماً عندما تقدم للزواج بها أخيراً، أن اسمها الحقيقي كان ماريا بورسين، وأنها عندما تقابلا لم تكن في السادسة عشر من عمرها، بل كانت بعمر بونارد، في منتصف العشرينيات من عمرها. كان عليهما البقاء معاً في السراء والضراء، أو بالأحرى، في الضراء والأكثر ضرراً، وحتى وفاتها بعد ما يقارب الخمسين عاماً فيما بعد. استدعى تيدي ناتانسون[41]، وهو أحد الرعاة الأوائل لبونارد، في مذكرات الرسام، بإيقاع انطباعي رشيق شبح مارثا، متحدثًا عن نظرتها الجامحة وسيرها على رؤوس أصابعها كطائر بري. كانت متكتمة وغيورة وشديدة التملك، تعاني من عقدة الاضطهاد، وكانت مراقبة عظيمة ومتأصلة. في عام 1927 اشترى بونارد منزلاً، لابوسكيه، في بلدة صغيرة غير مشهورة من (لو كانيه) في (كوت دازور)[42]، حيث عاش برفقة مارثا، ملتزماً معها بأوقات متقطعة من العزلة المؤلمة، حتى وفاتها بعد خمسة عشر عاماً. في لابوسكيه بدأت بممارسة عادة قضاء ساعات طويلة في غرفة الاستحمام، وفي حوض استحمامها ذاك رسمها بونارد، مرة تلو مرة، مستكملاً السلسلة حتى بعد أن فارقت الحياة. تمثل لوحات أحواض الاستحمام الإنجاز الأهم في

41- تيدي ناتانسون جامع أعمال فنية وصحفي فرنسي (1868-1951).

42- كوت دازور: منطقة الريفيرا الفرنسية في جنوب شرق فرنسا.

حياته المهنية. بدأ رسم لوحته (عارية في حوض الاستحمام، مع الكلب)[43] عام1941، قبل سنة من وفاة مارثا ولم يكملها حتى عام 1946، حيث ترقد هناك، بين الوردي والبنفسجي والذهبي، كإلهة للعالم العائم، واهنة، دائمة الشباب، حية كما هي ميتة، بجانبها على البلاط يربض كلبها البني الصغير، وهو كلبها الألماني الأليف، على ما أعتقد، متكورًا ويقظًا على حصيرته أو ما كانت ربما مساحة من ضوء الشمس المتشظي والمتساقط من نافذة غير مرئية. ترتعش الغرفة الضيقة التي تشكل ملاذاً لها، وتنبض بألوانها. قدمها اليسرى مشدودة عند نهاية ساقها الطويلة اللا معقولة، بدت كأنها تدفع حوض الاستحمام خارج إطاره وتصنع فيه انتفاخًا عند النهاية اليسرى، وتحت الحوض من هذا الجانب، وعلى ذات الوتيرة، كانت الأرضية منزاحة خارج إطارها أيضًا، ولا تبدو كأرضية عند نقطة الانسكاب في الزاوية، على الإطلاق، إنما بركة متحركة من المياه المرقطة. يتحرك كل شيء هنا بسكون، وبصمت متماه. يسمع المرء تقطر الماء، والخرير، والتنهدات المرتعشة قد تكون بقعة صدأ حمراء في الماء بجانب الكتف الأيمن للمستحمة صدأً أو دمًا قديمًا حتى يدها اليمنى تستريح على فخذها في وضعية استرخاء، وأنا أفكر بيديّ آنّا على الطاولة في ذلك اليوم الأول عندما عدنا من زيارة السيد تود، تمتد يداها العاجزتان المفتوحتان للأعلى كأنها تستجدي شيئًا ما من شخص ما قبالتها لم يكن حاضراً هناك.

هي أيضاً، عزيزتي آنّا، عندما مرضت، راحت للاستغراق بالتمدد في حوض الاستحمام لمدد طويلة في المساء. قالت: إنها قد خففت آلامها. طوال خريف وشتاء ذلك العام بشهوره الاثني عشرة من موتها البطيء عزلنا أنفسنا بعيدًا في منزلنا المطل على البحر، تماماً كما فعل بونارد

43- لوحة عارية في حوض الاستحمام: لوحة مشهورة رسمها بونارد لزوجته مارثا ميليني.

وزوجته مارثا في لابوسكيه. كان الطقس معتدلاً، طقساً صيفياً منيعاً على ما يبدو يمهد الطريق على نحو غير محسوس لنهاية عام من سكون يخيم عليه الضباب كالذي يحدث ربما في أي موسم كان. كانت آنّا تخشى من قدوم الربيع، ومن كل ذلك الصخب والضجيج اللذين لا يطاقان، كما كانت تقول، ومن كل مظاهر الحياة فيه. ساد حولنا صمتٌ قاتم وغامض، ناعم وكثيف أشبه بالطمي. لقد تحلّتْ بهدوء تام، هناك في غرفة الاستحمام الواقعة عند منعطف الطابق الأول، حيث أصبت بالذعر في بعض الأحيان. تخيلتُ أنها انزلقت بلا صوت في حوض الاستحمام القديم الواسع ذي الأرجل حتى صار وجهها تحت سطح المياه ولفظت آخر أنفاسها. كنتُ أتسلل إلى الطابق السفلي وأقف عند المنعطف، دون أن أصدر صوتاً، أبدو معلقًا هناك، كما لو أني الشخص الغارق تحت سطح المياه، أنصت بيأس من خلال دفتي الباب لأصوات الحياة. من صميم قلبي الذي يسود بعض أجزائه الخيانة والشر، كنت أتمنى بالطبع أن تفعل، وأن ينتهي كل هذا، من أجلي ومن أجلها، بالمثل. فيما بعد كنتُ سأسمع صوتاً خافتاً لتراشق الماء وهي تتحرك، وصوتاً لدفق ناعم وهي ترفع يدها لتناول الصابون أو المنشفة، وسأبتعد عائداً لغرفتي وأغلق الباب ورائي ثم أجلس على مقعدي وأحدق في ضوء المساء الرمادي، محاولاً ألا أفكر في أي شيء.

قالت لي ذات يوم: «انظر لحالك، أيها البائس ماكس، فلتنتبه لكلماتك ولتكن لطيفاً طوال الوقت». كانت في دار الرعاية في ذلك الحين، في غرفة عند النهاية البعيدة للجناح القديم مزودة بنافذة ركنية أطلتْ على عمود استناد خشبي من عشب أشعت غزير، وأيكة هائجة من أشجار خضراء داكنة طويلة القامة كانت أمام عيني. لقد حلّ ورحل الربيعُ الذي كانت تخشاه، وقد نال منها المرض حتى أصبحت عاجزة للغاية عن الاكتراث بهيجانه وانفعالاته، وبعده جاء الصيف

الحار الرطب واللزج، الصيف الأخير الذي شهدته. قلتُ: «ماذا تقصدين بـ(عليك أن تكون لطيفاً)؟»، لقد قالت الكثير من الأشياء الغريبة في الآونة الأخيرة، كما لو كانت بالفعل في مكان آخر، بعيدًا عني، حيث حتى للكلمات كان لها معنى مختلف. حركت رأسها على الوسادة وابتسمت في وجهي. لقد اكتسب وجهها، الذي أصبح نحيلاً حتى العظم تقريباً، مسحة جمالية مخيفة. قالت: «لن يُسمح لك أن تكرهني ولو قليلاً، بعد الآن، كما كنتَ مُعتاداً». نظرتْ نحو الأشجار لبرهة من الوقت ثم التفتتْ نحوي مجدداً وابتسمت مجدداً وربتت على يدي. قالت: «عليك ألا تقلق كثيراً، فأنا أيضاً كرهتك قليلاً، نحن بشر، في نهاية الأمر». بحلول ذلك الوقت كان الماضي هو الشيء الوحيد الذي حرصت على تذكره.

استفسرت الآنسة فافسور: «هل ترغب في رؤية غرفتك الآن؟».

آخر دفقات من ضوء الشمس التي اخترقت مشربية النافذة أمامنا كانت تتساقط كشظايا من الزجاج في مبنى مشتعل. كان الكولونيل يمسح على نحو عرضي على مقدمة صدريته الصفراء حيث سكب القليل من الشاي. بدا منزعجاً. على الأرجح كان يتحدث معي بشيء ما ولم أكن منصتاً له. شقت الآنسة فافسور طريقها في البهو. لقد كنت متحفزاً لهذه اللحظة، التي سأدخل فيها المنزل، وأقيم به، كما لو كان شبيهاً بشيء ما ارتديته في حياة أخرى قبل القدوم لهذه الحياة، على سبيل المثال، قبعة من طراز مألوف، وزوج أحذية عفا عليه الزمن، أو بدلة زفاف تفوح منها رائحة النفتالين ولم تعد مناسبة عند الخصر وتحت الذراعين لكنها منتفخة بالذكريات في كل جيب. لم أستطع تمييز البهو على الإطلاق. إنه قصير وضيق وسيئ الإضاءة، والجدران منقسمة أفقيًا بسكة مزخرفة ومغطاة في جزئها السفلي بورق جدران تقليدي منقوش يبدو كأنه بعمر مئة عام أو أكثر. لا أتذكر وجود رواق هنا.

اعتقدت أن الباب الأمامي ينفتح مباشرة نحو- حسناً، أنا لستُ على يقين هل كان مفتوحاً نحو المطبخ؟

بينما كنتُ أسير بخطى خفيفة خلف الآنسة فافسور والحقيبة في يدي، أشبه بقاتل حسن الأخلاق في فيلم إثارة قديم بالأبيض والأسود، اكتشفتُ أن نموذج المنزل المحفور في ذاكرتي، يحاول أن يطابق نفسه مع نموذجه الحقيقي، مستمراً في مواجهة مقاومة عنيدة.

كل شيء كان خارج النطاق قليلاً، وكل الأركان كانت خارج نطاق الحقيقة قليلاً. كان الدرج أكثر انحدارًا، وأضيق، نافذة التواليت لم تكن مطلة على الطريق، كما ينبغي حسب اعتقادي، إنما نحو الحقول من الخلف. لقد اختبرت الشعور بالهلع إلى حد بعيد عندما استولت الحقيقة الساذجة على أشياء اعتقدت أني تذكرتها وحشرتها في قالبها الخاص بها. ثمة شيء ثمين كان يذوب وينسكب بين أصابعي. رغم سهولة القبض عليه، لكني في نهاية المطاف، سمحت له بالرحيل. هو الماضي، أعني الماضي الحقيقي، ومسائل بأهمية أقل مما ندعي.

عندما تركتني الآنسة فافسور في مكان سيكون من الآن فصاعدًا غرفتي، رميت معطفي فوق كرسي وجلست على جانب السرير وتنفست بعمق رائحة البؤس القديم في الهواء، شعرت بأنني سافرت لمدة طويلة، ولسنوات عديدة، وأخيرًا وصلت إلى وجهتي حيث المكان الذي طوال الوقت، ودون أن أعرف، كنت مرتبطاً به، وأنه المكان الذي يجب عليّ البقاء به؛ لأنه حالياً، المكان الوحيد والملاذ الوحيد المتاح بالنسبة لي.

ظهر أبو الحناء طائري اللطيف منذ لحظة في الحديقة، وفجأة أدركت ما هو الشيء الذي ذكرني به نمش أفريل في ذلك اليوم من لقائنا في ساحة دويجنان. كعادته يقف الطائر على الغصن الثالث في أجمة أشجار الهولي ويتأمل الوضع على الأرض بعين حادة متلألئة

وجارحة. طيور الحناء سلالة مشهورة بالشجاعة، وهذا يبدو غير مبالٍ تماماً بينما يتقدمُ قطُّ التيدلس[44] من الجوار يتقفى الأثر في العشب الطويل، ويصدر صوتاً ما أشبه بزقزقة ساخرة وينفش ريشه وينفخ صدره بلونه الدموي المائل للبرتقالي، كأنه يُبرهن بطريقة مستفزة كم سيكون لقمة شهية ودسمة، إذا ما تمكنت تلك القطط من الطيران. لدى رؤية الطائر يحط هناك تذكرتُ في الحال، مع شعور من الألم المفاجئ كان بحجم الطائر تمامًا واستثنائياً مثله، العش في شجيرات الجولق الذي سُرِق. كنتُ مهتمّاً بالطيور إلى حد بعيد وأنا صبي. لم أكن معنياً بترصد الطيور، فانا لستُ مترصدّاً على الإطلاق، ولم تكن لدي اهتمامات بالاكتشاف والتتبع والتصنيف، كل ذلك أبعد ما يكون عني، وكان يضجرني أيضًا؛ بالكاد استطعت تمييز أحد الأصناف عن غيرها، وعرفتُ القليل واهتممت بصورة أقل بتاريخها وعاداتها. مع هذا، كنتُ أستطيع العثور على أعشاشها، فذلك كان من تخصصي. كانت مسألة صبر ويقظة وحدة نظر، وشيء آخر، يتمثل بالقدرة على التوافق مع المخلوقات الصغيرة التي كنت أتعقب مخابئها. هناك عالِمٌ نسيت اسمه في هذه اللحظة كان قد طرح تفنيدًا لشيء ما مؤكدًا أنه من المستحيل على الإنسان أن يتخيل تمامًا ماذا سيكون عليه الأمر عندما يصبح خفاشًا. أتقبّل وجهة نظره على نحو عام، لكني أعتقد أنه قد كان بالإمكان منح وصف دقيق لمثل هذا المخلوق عندما كنت يافعاً وكنت لا أزال بحد ذاتي جزءاً من حيوان.

لم أكن قاسياً، ولم أقتل طائراً أو أسرق بيضه، بالتأكيد لا. ما دفعني كان الفضول، والشغف البسيط لمعرفة شيء من أسرار الكائنات الأخرى.

44- قطط التيدلس تعرف بقطط المحطة كانت تعيش في لندن وتشتهر بالسمنة.

الشيء الذي أدهشني هو التباين بين العش والبيضة، أعني التحضير المسبق للعش، لا يهم إن كان تصميمه جيداً أو جميلاً، واكتمال الأخير، هو ملائمته الفطرية للبيضة. منذ البداية تكون البيضة نهاية حتمية. إنه تعريف عميق للاحتواء الذاتي. كنتُ أمقت أن أرى بيضة مكسورة، تلك مأساة بالغة الصغر. وفي حال اعتقادي أني قد قدت شخصاً ما إلى العش سيكون ذلك من غير قصد. كان واقفاً في أجمة من نبات الجولق على سفح مائل وسط الحقول المفتوحة، كان من السهل رؤيتي وأنا متجه إليه، كما فعلت لأسابيع، لذلك فقد اعتادت الدجاجة التي تعيش هناك على رؤيتي. ما نوعه، طائر السمن، أم طائر شحرور؟ على أية حال، هو من هذه الأصناف الكبيرة. فيما بعد وصلت ذات يوم وكان البيض قد اختفى. سرقت بيضتان وكانت الثالثة محطمة على الأرض تحت الشجرة. كل ما بقي منها بقعة دبقة من خليط صفار وبياض وبعض فتات من قشرة البيضة، تشوبها نقاط من بقع صغيرة بلون بني داكن. ينبغي ألا أبالغ في وصف هذه اللحظة، أنا متيقن أني كنتُ متحجر القلب كالصبي الذي أصبحت عليه، لكني أستطيع حتى الآن رؤية أشجار الجولق، وأستطيع استنشاق العطر الناعم لأزهارها، وأستطيع تذكر المسحة الدقيقة لتلك النقط البنية، التي تشبه كثيراً النقط على الخدود الشاحبة لأفريل وعلى جسر أنفها. لقد احتفظت بذكرى تلك اللحظة على مدار نصف قرن كامل، وكأنها رمز لشيء ما نهائي، وثمين ولا يمكن استرجاعه.

آنّا تميل جانبًا عن سرير المشفى وتتقيأ على الأرض، وجبينها المحترق يضغط على راحة يدي، منتفخاً وناعم الملمس كبيضة نعامة.

ها أنا في مقهى ستراند، برفقة كلوي، بعد السينما وتلك القبلة التي لا يمكن نسيانها. جلسنا على طاولةٍ بلاستيكيةٍ نشربُ عصيرنا المفضل، كوبًا طويلاً من البرتقال الغازي مع قليلٍ من مثلجاتٍ بنكهة الفانيليا

عائمةٍ فيه. عندما أنعمُ النظر، أتمكن من رؤية صورتنا هناك بوضوح ملحوظ. حقّاً، قد يحيا المرء حياته من جديد، إذا كان بإمكانه بذل جهد كافٍ للتذكر. كانت طاولتنا بالقرب من الباب المفتوح حيث سقطت حزمةٌ عريضةٌ من أشعة الشمس على أقدامنا. بين الحين والآخر، جالت نسمة قادمة من الخارج شاردة الذهن، ناثرةً هسيسًا من الرمال الناعمة على الأرض، أو حاملة معها ورقة حلوى فارغة تقدمت نحو الأمام وتتوقف، ثم تقدمت ثانية، مصدرةً صوت خشخشة. قلةٌ كانوا في المكان، بعض الفتية، أو بعض الشبان، على الأصح، كانوا في ركن من الخلف يلعبون الورق، وخلف عدّادة النقود كانت زوجةُ المالك، امرأة كبيرة الحجم ذات شعر أشقر، ليست قبيحة، محدقة عبر الباب بعينين حالمتين فارغتين. ارتدت ثوباً أو مئزراً من الأزرق الباهت بحافة بيضاء مزخرفة. ماذا كان اسمها؟ ماذا كان. لا، لن يخطر في ذهني- الكثير لتذكر ميموري الاستثنائية. السيدة ستراند، هكذا سأطلق عليها السيدة ستراند، إذا كان لابد من تسميتها. كانت تتمتع بأسلوب خاص في الوقوف، بالتأكيد أتذكر ذلك، قوتها وشكلها المربع الصلب، ذراعها الطويلة الممتلئة بالنمش وقبضة اليد التي تضغط بالبراجم نحو الأسفل على السطح العلوي لماكينة دفع النقود. لقد طفا على كأسينا من مزيج الآيس كريم والبرتقال طبقة من الرغوة الثقيلة. كنّا نشفطُ العصيرَ بمصاصات ورقية، مُتجنبَيْن النظر أحدنا نحو الآخر بدافع جديد من الخجل. غمرني شعور باستقرار عذب هائل وشامل، كملاءة فُرِدت ووُضعِت على سرير، أو كخيمة طويت في محفظتها الهوائية الخاصة بها. وقيعة تلك القبلة في عتمة دار السينما- أجزم أنها كانت قبلتنا الأولى- توطدت بيننا كشيء عجيب، بعمق لا يمكن تجاهله. كان لكلوي مسحة شقراء خفيفة لشاربها، شعرتُ بملمسه الرملي على شفتي. في ذلك الحين كان قد فرغ كأسي تقريباً

وكنت أتحاشى أن تصدر آخر رشفة من العصير حشرجتها المحرجة في مصاصة الورق. نظرتُ خلسة تحت جفوني المرتخية إلى يديّ كلوي، واحدةً تستريح على الطاولة والأخرى تحمل كأسها. كانت أصابعها سمينة حتى مفاصلها الأول ومنها كانت مدببة حتى أطرافها: كما هي يديّ أمها. كان مذياع السيدة ستراند يصدح بأغنية ما ذات لحن طربي دندنت معه كلوي بذهن شارد. حظيت الأغاني بأهمية بالغة آنذاك، أنيناً من الشوق والضياع، وألماً حاداً بسبب ما اعتقدنا أنه الحب. في الليل وأنا مستلقٍ في سريري في الكوخ الخشبي كانت الألحان تصل إلى مسامعي، بصدى نحاسي خافت يحمله نسيمُ البحر من قاعات الرقص في فندق الشاطئ أو الجولف، وكنتُ أفكر في الثنائيات، الفتيات ذوات الشعر المتموج في الأزرق الهفهاف والأخضر الصارخ، والشبان ذوي الشعور المضفورة في سترات رياضية منتفخة وأحذية بنعال بسماكة بوصة، يتراقصون معاً هناك في الظلمة الحارة والمغبرة. يا ضوءَ القمر الوحيد العاشق والمعشوق الذي يقبّلُ القلبَ والروح!. وخلف كل ذلك، في الخارج اللامرئي، الشاطئ غارق في العتمة، والرمال باردة من السطح ومحتفظة بدفء النهار في أعماقها، والخطوط الطويلة من الأمواج البيضاء المتكسرة على الخلجان، مضاءة من داخلها بطريقة ما، وفوق كل شيء، يخيم الليل، بصمتٍ وسريّة وحزم.

«كان ذلك العرض تافهاً»، قالت كلوي. قرّبت وجهها لحافة الكأس، وتدلّت أهدابها بانسيابية. كان شعرها باهتاً كضوء الشمس الساقط على الأرض عند قدميها... ولكن مهلاً، هذا غير صحيح. هذا لا يمكن أن يكون يوم القبلة. عندما غادرنا السينما الجوالة كان قد حلَّ المساء، مساء ما بعد المطر، والآن هو منتصف الظهيرة، حيث ضوء الشمس الناعم ذاك، وذاك النسيم المتسكع. أين ميلز؟ كان معنا في السينما، أين سيذهب؟ وهو الذي لم يغادر خاصرة أخته مالم تدفعه بعيدًا، حقاً، يا

سيدة ميموري، أنا أتراجع عن كل ثنائي، إذا كان السبب يعود إلى أن ميموري هي التي تدير العمل هنا وليست امرأة أخرى، فقد كانت مستغرقة في تأملات أكثر خيالية. عبرت كلوي عن تذمرها قائلة: «كأنهم لم يدركوا أن اللص كانت امرأة».

نظرتُ إلى يديها مرة أخرى. اليد التي حملت الكأس من الأعلى ثم انزلقت نحو الأسفل لتطوق قاعدته، في بقعة متشابكة من الضوء الأبيض النقي المتقد بازدياد، بينما اليد الأخرى التي تلوي مصاصة الورق نحو شفتيها بحرص بين الإبهام والسبابة، تلقي بظلال باهتة على الطاولة على شكل رأس طائر بمنقار وبقمة من الريش. مجدداً فكّرتُ بوالدتها، وهذه المرة شعرتُ لمدة وجيزة بشعور حاد وحارق في صدري، كما لو أن إبرة ساخنة قد أصابت قلبي.

أكان وخز الشعور بالذنب؟ بسبب ما ستشعر به السيدة غريس، وما ستقوله، إذا كانت تقوم بالتجسس عليّ هنا عند هذه الطاولة وأنا أحدّقُ بالمسحة البنفسجية في غمازتي ابنتها وهي تشفطُ آخر ما تبقى من صودا الآيس كريم؟ لكني لم أكن مكترثًا بحق، ولم أشعر في قرارة نفسي، بشعور الذنب العميق وما يشبهه من مشاعر الحب، كما نطلق عليه، إذ يميل للتحول من تلقاء نفسه، بوساطة خداع موارب وضيع، ومن جانب مشرق إلى آخر أشد إشراقًا، في أكثر الظروف غير المناسبة. كم هي كثيرة أيام الزفاف التي انتهت بالسُكر وبالعريس الذي يعاني من عسر الهضم وهو يحدق بنظرة بائسة نحو الأسفل في عروسه البكر الجديدة تقفز تحته على سرير شهر العسل الكبير ويرى وجه صديقتها المقربة، أو وجه أخت لها أجمل منها أو حتى، فليغفر الرب لي، وجه والدتها اللعوب؟

نعم، وقعت في حب كلوي- لقد وقعت، وانتهى الأمر بالفعل. تملكني ذلك الشعور من النشوة المتلهفة، والسعادة، والتعثر بلا حول ولا قوة، وهو ما يتعين على المرء إدراكه أنه شعور يمس قلب العاشق دائماً،

في البدايات المتهورة. حتى في مثل هذا السن الصغير أدركتُ أن ثمّة عاشق ومعشوق دائماً، وأدركتُ أي منهما سأكون، في هذه الحالة. تلك الأسابيع مع كلوي كانت بالنسبة لي مسلسلاً من الخضوع المبهج إلى حد ما. تقبلتني كمتضرع في مقامها المقدس مع شعورها بالرضا المتعجرف والمقلق. في أكثر حالاتها اضطرابًا ستتكرم عليّ بالكاد بالتفاتها لحضوري، وحتى عندما منحتني أقصى اهتمامها كان ناقصاً على الدوام، بسبب الانشغال، والغياب. لقد عذبني هذا الغموض المتعمد وأثار غضبي، ولكن الأسوأ من ذلك هو احتمالية ألا يكون ذلك مُتعمّداً. ما تفعله ربما لإغاظتي كان بوسعي تقبله، والترحيب به، بمتعة غامضة حتى، لكن التفكير في أني قد تلاشيتُ في نظرها بكل بساطة حتى تحولتُ إلى صورة شفافة، بالمطلق، لم يكن محتملاً. في معظم الأحيان، عندما كنتُ أقتحمُ أحد أوقات صمتها، كانت تهرع بخفة وتنظر حولها سريعاً، نحو السقف أو ركن من الغرفة، أو أي مكان ما عداي، في عملية بحث عن مصدر الصوت الذي كان يخاطبها. أ كانت هذه إغاظة جبانة منها أم كانت تلك لحظات من خواء حقيقي؟ بغضب لا يُحتمل كنت أمسكها من كتفيها وأهزها، أطالبها بأن تراني وأنا فقط، لكنها كانت تتراخى بين يدي وتتملق بعينيها وتترك رأسها يتهادى كدمية من قماش، وتضحك من حنجرتها لتصدر صوتاً مزعجا مثل ميلز، وعندما كنتُ أدفعها عني بقسوة في حالة من الاشمئزاز، كانت تقع مجدداً على الرمال أو الأريكة وترقد ممددة أطرافها وتتظاهر بطريقة هزلية وبغيضة أنها ميتة.

لماذا كنتُ أتحمّلُ أهواءها، وتصرفاتها المتعالية؟ وأنا الذي لم أكن مطلقًا شخصًا يتحمل الاستخفاف بسهولة، وكنتُ دائماً حريصًا على الانتقام، حتى ممن أحببتهم، أو ممن أحببتهم على وجه الخصوص. كان تسامحي في حالة كلوي ناجماً، باعتقادي، من شعور برغبة قوية بحمايتها. اسمحوا لي بالاستفاضة، فذلك أمر ممتع، أعتقد أنه ممتع.

كان ثمة لطف ولباقة وطرافة في سير الأحداث في هذه المرحلة؛ لأنها أصبحت الفتاة التي وقع اختياري عليها، أو اختيرت، لأمنحها حبي بسخاء، فلابد أن تكون مصانة خالية من العيوب قدر الإمكان، معنوياً وفعلياً. كان إلزامياً أن أحميها من نفسها ومن عثراتها. لقد وقعتِ المهمة على عاتقي بطبيعة الحال لأن زلاتها كانت موجودة، ومن غير المتوقع أن تتمكن من تجنب آثارها السيئة بمحض إرادتها. ولا يجب فقط أن تنجو من هذه الأخطاء وعواقبها على سلوكها، بل لابد من التغاضي عن الاطلاع عليها، قدر الإمكان. وليست الأخطاء العملية فقط هي المشكلة، بل أيضًا الجهل، وعدم القدرة على التبصر والشعور الباهت بالرضا عن النفس، مثل هذه الأشياء أيضاً يجب أن تختفي، وأن تمنع مظاهرها. على سبيل المثال حقيقة عدم معرفتها أنها تأتي ثانيًا في قلبي بعد والدتها، بين الناس كافة، جعلتها تبدو هشة على نحو يرثى له في نظري. مع لفت النظر، أن القضية لا تتجلى في حقيقة وجودها ثانياً في وجداني، وإنما تجاهلها لتلك الحقيقة. إذا كانت بطريقة ما كشفت سري فمن المحتمل أن تشعر بالخذلان حسب تقديرها الخاص، وستظن نفسها حمقاء لأنها لم تدرك ما شعرتُ به اتجاه والدتها، وربما ستميل إلى الشعور أنها كانت في المرتبة الثانية بعد والدتها في اختياري الثاني. وذاك مالا يجب أن يكون.

في حال ينبغي أن أبدو ما أقحمت به نفسي في أداء دور محب للخير واضحًا، فإني أسارع بالقول إن قلقي واهتمامي بموضوع كلوي وعيوبها لم يكن لمصلحتها وحدها. كان احترامها لذاتها أقل أهمية بكثير بالنسبة لي من احترامي لها، رغم أن الأخير كان مشروطاً بالأول. إذا كان تقديرها لذاتها ملوثاً بالشك أو الشعور بالغباء أو نقص الفطنة، فإن تقديري لها سيكون بحد ذاته ملوثاً. لذلك لا يجب أن تكون هناك صدامات، ولا إرشادات قاسية، ولا إفشاء سر لحقائق رهيبة. ربما أهزها من كتفيها

حتى تخشخش عظامها، وقد أرميها على الأرض بنفور، لكن لا يجب إخبارها أني أغرمت بوالدتها قبل أن أغرم بها، وأن رائحة بسكويت فاسد فاحت منها، أو أن ذاك الفتى جو من المجمع السكني قد لاحظ المسحة الخضراء لأسنانها. عندما مشيتُ بخضوع خلف قامتها المتبخترة، مركزًا بنظراتي المحبة والمفعمة بعذاب الحب فوق الفاصلة الشقراء من الشعر عند مؤخرة عنقها والشقوق الدقيقة في المؤخرة البيضاء المصقولة لركبتيها، شعرت كأنني أحمل بداخلي قارورة من أكثر المواد غلاء وقابلية للاشتعال. لا، وبلا حركات مباغتة، وبلا شيء على الإطلاق.

هناك سبب آخر من أجله وجب أن تبقى مصانة، غير ملوثة بالكثير من الإدراك الذاتي المفرط للغاية أو بالأحرى، الإدراك العميق لي. كان هذا ما يميزها، بفضلها كانت أولى تجاربي في الاختلاف المطلق للآخرين. ليس مبالغاً إذا قلت- حسنًا، إنه قول مبالغ به، لكني سأقوله على أية حال- وهو أن العالم مع كلوي كان مرئياً لأول مرة ككيان موضوعي. لا أمي ولا أبي، لا أساتذتي ولا أولاد آخرون ولا كوني غريس نفسها، لا أحد كان حقيقيًا على الشاكلة التي كانت عليها كلوي. وكما أصبحت حقيقية، هكذا، وعلى حين غرة، أصبحت أنا. أعتقد أنها كانت المصدر الحقيقي للوعي الذاتي في داخلي. من قبل، كان هناك كيان واحد وكنتُ جزءاً منه، والآن هناك أنا وكل ما لم يكن متعلقاً بي. ولكن هنا أيضاً ثمة جدل، عبارة عن شبكة من التعقيد، وذلك بعزلي عن العالم وجعلي أحرر نفسي في كائن منسلخ هكذا، قامت بطردي من ذلك الإحساس بمجاراة كل الأشياء، كل الأشياء التي كانت قد احتوتني، والتي عشت بها حتى ذلك الحين، في تجاهل سعيد إلى حد ما. من قبل، كنتُ في المأوى، والآن صرتُ في العراء، في مساحة خالية، دون أي مأوى في الأفق. لم أكن أعلم أني لن أعود إلى الداخل مرة أخرى، بوساطة تلك البوابة التي ضاقت أكثر من أي وقت مضى.

لم أعي أبداً أين وصلت معها، أو نوع المداواة لأتوقعه بين يديها، وأعتقد أن هذا قد شكّل جزءاً كبيراً من جاذبيتها بالنسبة لي، فهذه هي طبيعة الحب الخارقة. ذات يوم عندما كنا نسير على طول الشاطئ عند حافة المياه بحثاً عن نوع معين من الصَدَف الوردي الذي كانت تحتاجه لتصنع قلادة توقفت فجأة واستدارت، ودون الالتفات إلى وجود السباحين في المياه والمتنزهين على الرمال، قبضت على مقدمة القميص وسحبتني نحوها وقامت بتقبيلي بقوة هرست شفتي العليا على أسناني الأمامية حتى شعرتُ بمذاق الدم، وحتى أصدر ميلز، الذي كان خلفنا، ضحكة خافتة. بعد قليل دفعتني بعيداً، بازدراء شديد، كما كان واضحاً، وحثتني على السير، وهي عابسة، وعيناها كما من قبل تجولان بنظرات حادة على امتداد حافة المياه حيث كانت الرمال الناعمة المحتشدة والشرهة تستنشق عبور كل موجة زاحفة بتأوه راشف. التفتُ حولي بقلق. ماذا لو كانت والدتي هناك لترى، أو السيدة غريس، أو روز حتى؟ لكن كلوي بدت لامبالية. لازلت أتذكر الإحساس الحُبيبي كأنه قد طُحِنَ اللبّ الطري لشفاهنا بين أسناننا.

كانت ميالةً للتحدي، لكنها كانت تستاء عندما يُتصدَى لها. في وقت مبكر من صباح ساكن مخيف، مع سحب رعدية في الأفق البعيد والبحر هادئ ورمادي اللون، كنتُ أقفُ أمامها مغموراً حتى الخصر في الماء الدافئ وكنت على وشك الغوص والسباحة بين ساقيها، إذا ما سمحت لي بذلك، وهو ما كانت تفعله أحيانا. «هيا استمر، بسرعة» قالت، محدقة بعينيها، «لقد تبولتُ للتو». لم أستطع إلا أن أفعل ما ألحت عليه، كوني شاباً طموحاً. لكن عندما خرجتُ إلى السطح مرة أخرى قالت بأنني كنتُ مثيراً للاشمئزاز، وانحنت داخل الماء حتى ذقنها وسبحتْ بتثاقل بعيداً.

كانت ميالة للحظات قصيرة من العنف المفاجئ والمثير للأعصاب. أفكر بمدة ما بعد ظهيرة ندية عندما كنا بمفردنا معاً في غرفة المعيشة في سيدارز. كان الهواء في الغرفة رطباً وبارداً، وكانت هناك رائحة حزينة تذكّرني برائحة اليوم الممطر تنبعث من الفحم وستائر الكريتون. دخلت كلوي من المطبخ وعبرت نحو النافذة فنهضتُ عن الأريكة واتجهتُ نحوها، وأنا أتجرأ لأحاول تطويقها بذراعي. حالًا عند اقترابي توقفتْ ورفعتْ يدها في قوس قصير ووجهت نحوي صفعة قاسية على الوجه. كانت صفعة مفاجئة للغاية، ومتقنة جداً، حتى بدت كتوضيح لشيء دقيق وخاص وبالغ الأهمية. سمعت صدى الصفعة يعود مرة أخرى من زاوية في السقف. وقفنا لحظة بلا حراك، أنا بوجهي الموارب، وهي وقد اتخذت خطوة نحو الوراء، وقهقهت، ومن ثم عبست باستياء وتقدمت إلى النافذة، حيث التقطت شيئًا ما عن الطاولة ونظرت إليه بعبوس شديد.

حدث في نهار على الشاطئ أن ركزت على فتىً ريفياً لتشاكسه. في مدة ما بعد ظهيرة غائمة عاصفة قبيل نهاية العطلة، وملامح الخريف قد بدأت تلوح في الجو، وكانت هي ضجرة وفي مزاج عدواني. كان الفتى الريفي شاحباً يرتجف في سروال سباحة أسود اللون مترهل، بصدر مقور وحلمات متورمة متبقعة نتيجة للبرد. أحطنا به، ثلاثتنا، خلف مَصدِّ موجٍ خرساني.

كان أطول من التوأم، لكني مع ذلك كنتُ الأطول، ولحرصي على إثبات نفسي أمام فتاتي، قمت بدفعه بقوة وسحقه نحو الوراء على الجدار المغطى بالطحالب، ثم تسمرت كلوي أمامه تطالبه بإلحاح ليعرّفَ عن اسمه وماذا كان يفعل هنا. حدق بها في حيرة بلهاء، غير قادر على ما يبدو فهم سبب احتجازه، أو ماذا كنا نريد منه، الأمر الذي

لم نكن ندركه أيضاً. «حسناً؟» صاحت كلوي، ويداها على خصرها وتنقر على الرمل بقدم واحدة. ابتسم بريبة، محرجاً أكثر من كونه خائفاً منها. قال بتلعثم أنه جاء، بوساطة القطار، لقضاء اليوم برفقة والدته. «حسناً، مع والدتك، أليس كذلك؟» قالت كلوي بسخرية، كأنها أعطت إشارة فتقدم ميلز وصفعه بقوة على جانب رأسه بظهر يده، مصدرا صوتاً حاداً لامعاً. «هل رأيت؟» صرخت كلوي بصوت عال. «هذا جزاؤك لأنك كنت ماكراً معنا!» نظر الفتى الريفي، ببلادته التي كان عليها، مذهولاً فحسب، ثم رفع يده وتحسس وجهه كأنه يتحقق من تعرضه المريع للضرب. هنالك سادت لحظة مثيرة من السكون حيث كان من الممكن أن يحدث خلالها أي شيء. ولا شيء حدث. فقط أبدى الفتى الريفي شيئاً من التغاضي الحزين المستكين ومشى بتثاقل بعيدًا، ويده لاتزال مرفوعة إلى فكه، ثم ألقت كلوي نحوي نظرة غير هيابة لكنها لم تقل شيئًا، بينما اكتفى ميلز بالقهقهة.

ما بقي معي من هذه الحادثة لا حملقة كلوي ولا سخرية ميلز، بل كانت النظرة التي رمقني بها الفتى في النهاية، قبل أن ينصرف بحزن. كان يعرفني، ويعرف أنني ريفي، مثله، مهما حاولت أن أظهر عكس ذلك. إذا كان في تلك النظرة اتهام بالخيانة، أو غضب لانحيازي مع الغرباء ضده، أو أي شيء من هذا القبيل، فإني لن أكترث به، بل سأشعر بالاستمتاع، ولو على استحياء هكذا. ما أزعجني هو التعبير عن التسليم في نظراته، وعدم الدهشة من غدري له. تملكتني رغبة للإسراع خلفه ووضع يد على كتفه، ليس للاعتذار ربما أو لمحاولة التبرير لنفسي على قيامي بالمساعدة في إذلاله، وإنما لجعله ينظر نحوي مجدداً، أو بالأحرى، لجعله يستعيد تلك النظرة، لمحوها، ومحو سجلها من عينيه. فقد اكتشفتُ أنها فكرة لا تطاق في أن أكون معروفاً على النحو التي بدا وكأنه يعرفني به. أفضل مما عرفت نفسي، أو أسوأ.

في حين كرهتُ أن تُلتَقط صورٌ لي، غير أني كرهتُ بشدة أن تُلتقط لي من قبل آنّا. أدركُ، أن من الغرابة قول ذلك، لكنها عندما وقفت خلف الكاميرا كانت أشبه بشخص أعمى، وقد اختفى شيءٌ ما في عينيها، وانطفأ فيهما النور الحقيقي. بدت لا ترنو إلى هدفها بوساطة العدسة، بل تحدق في أعماق روحها، في بحث عن شيء منظور محدد وجوهري. كانت تمسك الكاميرا بثبات عند مستوى الرؤية وتدفع رأسها جانبًا كرأس النسر ثم تحدق لثانية على نحوٍ مبهم، لعلها كانت عملية لنسخ ملامح شخص ما على طريق برايل وقد تمكنت من قراءتها عن بعد؛ عندما ضغطت المغلاق بدا ذلك أقل أهمية، وليس أكثر من إيماءة لإراحة الجهاز. في أيامنا الأولى معاً كنتُ أحمقَ بما فيه الكفاية لأسمحَ لها بإقناعي للوقوف أمام الكاميرا في عدة مناسبات؛ كانت النتائجُ تنمُّ عن قلة خبرة ووضوح فاضحين. في تلك النصف دزينة من لقطات الرأس والكتفين بالأبيض والأسود التي سلبتها مني- وسلبتها هي التعبير المناسب هنا- بدوتُ همجياً في المنظر أكثر مما سأكون عليه في صورة بالطول الكامل وأنا عار لا أرتدي أي ثوب. كنت شاباً دمثاً غير وسيم- لبساطتي- لكن في تلك الصور الفوتوغرافية بدوت كقزم مفرط النمو. لم تكن المسألة في أنها أظهرتني قبيحاً ومشوهاً. الأشخاص الذين شاهدوا الصور تملقوني. لم أكن شخصاً متملقاً، كنتُ غير ذلك. في الصور ظهرتُ كأنه قُبِض عليّ وأُمسِك بي حالاً في لحظة الفرار، مع صرخات تدوي حولي وتطالبني بالتوقف، أيها اللص!. كانت تعابيري جذابة وممتعة، أسلوب وغد يخشى أنه على وشك أن يُتهَمَ بجريمة يعلم أنه ارتكبها ولا يمكنه التذكر تماماً، فقط يعدُّ تبريراته وأعذاره بأية طريقة كانت. يا لها من ابتسامة يائسة ومتوسلة تظاهرت بها، ابتسامة خبيثة، خبيثة جدًّا. لقد قامت بتدريب كاميرتها على وجه جديد متفائل لكن

الصور التي التقطتها كانت لقطات ساذجة لمحتال عجوز واثق ومتعب. ومستباح، نعم، ذلك هو الوصف المناسب أيضاً.

تلك كانت هديتها الخاصة، النظرة الخائبة والمخيبة للأمل. أفكر في الصور التي التقطتها في المشفى، في البداية، بداية النهاية، عندما كانت تخضع للعلاج ولديها قدرة كافية للنهوض من سريرها بلا مساعدة. طلبتْ من كلير البحث عن كاميرتها، فقد مرت سنواتٌ منذ أن استخدمتها. منحني الشعور باحتمالية العودة لهذا الهوس القديم إحساساً قوياً وغير مفهوم بالخوف. وجدته مقلقاً أيضاً، رغم أني ومجدداً لم أستطع قول ما هو السبب تماماً، حقيقة أن كلير، وليس أنا، هي التي طلبت منها إحضار الكاميرا، وفي حالة إدراك ضمني، أيضاً، أني لم أكن معنياً بسماع ذلك. ماذا عنت كل هذه السرية والهرج والمرج؟ كلير، التي عادت مؤخراً لمدة وجيزة من دراستها في الخارج- فرنسا، في البلدان الواطئة، في فوبلن- صُدمت عندما وجدت والدتها مريضة للغاية، وغضبت مني، بالطبع، لعدم استدعائي لها على عجل. لم أخبرها أن آنّا فقط من لم تكن راغبة في عودتها إلى الوطن. هذا أيضاً كان غريباً، في الماضي في حين كانتا مقربتين. أتراني شعرت بالغيرة؟ نعم، قليلاً، في الحقيقة ولأكن صادقاً، أكثر من القليل. أعي ماكنتُ أتوقعه، وما أتوقعه، من ابنتي، ومن أنانيتها وشعوري بالأسف لذلك. فأشياء كثيرة يمكن توقعها من نسل الرجل المحب للفن. ستفعل مالم أستطع فعله، وستصبح باحثة عظيمة، إذا ما كنتُ أملك رأياً في هذا الأمر، وهذا هو ما أراه. تركت لها أمها بعض المال، لكنه ليس كافياً. فأنا هي الإوزة الكبيرة الدسمة، والمكتنزة بالبيض الذهبي.

بالمصادفة ضبطتُ كلير وهي تهرّب الكاميرا من المنزل. حاولتْ تمريرها بغير تكلف، لكن كلير لا تصلح لأن تكون غير متكلفة. ليس لأنها أدركت، أكثر مما أدركتُ أنا، لماذا يستوجب إبقاء الأمر سرّاً.

تمتعت آنّا بأسلوب مراوغ في التعامل مع أبسط الأشياء، إنه على ما أعتقد، التأثير المستمر لوالدها وحياتهما الأولى والصاخبة معاً. كان لشخصيتها جانب طفولي. أعني أنها كانت عنيدة ومتكتمة وشديدة الاستياء من أدنى تدخل أو اعتراض. أعرف أنه يمكنني التحدث عن ذلك. أعتقد أننا كنا طفلين وحيدين. ذلك يبدو مستغرباً. أعني أن كل منا كان طفلاً وحيداً لوالديه وذلك يبدو غريباً، أيضاً. هل بدوت بأني غير موافق على محاولاتها لتصبح فنانة، إذا كان بالإمكان اعتبار التقاط الصور الفورية عملاً فنيًا؟ في الواقع، أبديتُ القليل من الاهتمام لصورها وليس لديها مبرر سبب للاعتقاد أني سأحتفظ بالكاميرا من أجلها. الأمر برمته محير للغاية.

على كل حال، بعد يوم أو يومين من القبض على كلير مع الكاميرا، أُستدعيت من قبل المشفى الإعلامي بلهجة صارمة أن زوجتي تلتقط صوراً للمرضى الآخرين وكانت هناك شكايات لذلك. احمررتُ خجلاً نيابة عن آنّا، ووقفت أمام طاولة رئيسة الممرضات وقد انتابني شعور أشبه بتلميذ أُستدعى ليحاسب على أفعال شخص آخر. يبدو أن آنّا كانت تتجول بين العنابر، حافية القدمين، في ثوبها الأبيض الخاص بالمشفى، تقود حامل التغذية بالتنقيط الخاص بها- والذي أطلقت عليه اسم «النادل الغبي»- لتبحث عن الحالات الأشد خطورة وضرر بين زملائها المرضى، كانت توقف حامل التنقيط بجوار سرير أحدهم وتخرج كاميرتها من طراز لايكا وتلتقط صورًا فورية حتى رُصدِت من قبل واحدة أو أخرى من الممرضات وتطالب بالعودة إلى غرفتها.

«هل أخبروك من اشتكى؟» سألتني بكآبة. «ليس المرضى، بل أقاربهم فحسب، وماذا يعرفون؟»

جعلتني أحضر الفيلم لصديقها سيرج ليقوم بتحميضه. صديقها سيرج، الذي ربما كان في وقت ما من الماضي البعيد أكثر من مجرد

صديق، هو صديق قوي البنية، مع علة في قدمه وعرفٌ من الشعر الأسود الجميل يلقيه للخلف من مقدمة رأسه بمسحة رشيقة من يديه الكبيرتين الثقيلتين. يملك استوديو في أعلى إحدى المنازل القديمة الضيقة الشاهقة في شارع شيد Shade، بجانب النهر. يلتقط صور الأزياء والموضة وينام مع قوالبه. يدّعي أنه لاجئ من مكان ما أو آخر، ويتحدث بلكنة تتميز بلثغة والتي قيل إن الفتيات لا يستطعن مقاومتها. هو لا يستخدم لقب عائلته، وحتى سيرج، على حد علمي، ربما كان اسماً لآلة تصوير. هو صنف من الأشخاص الذين اعتدنا على التعرف إليهم، آنّا وأنا، في الأيام الخوالي، التي كانت حديثة العهد آنذاك. لا أستطيع التفكير الآن كيف احتملته؛ لا شيء يشبه التورط في استعراض الرخص والخداع في حياة أحدهم، حياة أحدهم السابقة.

يبدو أن سيرج وجد فيّ شيئاً مضحكاً على نحو لا يقاوم. يواصل بسيل من النكات التافه السمج، وأنا على قناعة أنها ذريعة له ليضحك دون أن يبدو وكأنه يسخر مني. عندما أتيت للحصول على الصور الفوتوغرافية المحمضة، أخذ في البحث عنهم وسط الفوضى النابضة بالحياة في الاستوديو- لن أتفاجأ إذا رتب الفوضى، كما يرتب واجهة محل- يشق طريقه برشاقة تقريبًا على قدميه الناعمتين على نحو غير متناسق برغم الانحراف العنيف إلى جهة الشمال في كل خطوة يخطوها. يرتشفُ القهوة من قدح يبدو عميقاً جدّاً ويتحدث معي من فوق كتفه. القهوة سمة أخرى من سماته، إلى جانب الشَعَر والعرج والقمصان البيضاء الفضفاضة من ماركة تولستويان التي كان يفضلها.

سألني: «كيف حال آني الجميلة؟» حدق بي جانباً وضحك. في حين ناداها بـ آني، حيث لا أحد آخر فعلها؛ أقمع تفكيري أنه لربما هو لقبها القديم المحبب لديه. لم أخبره بمرضها-لماذا ينبغي أن أفعل؟ كان يخربش في الفوضى على الطاولة الكبيرة التي يستخدمها كطاولة

للعمل. خرشت الرائحة الكريهة لسائل التحميض القادمة من الغرفة المظلمة أنفي وعيني. «أية أخبار عن آني» تمتم لنفسه، مُحدِثاً جلجلة، ومُصدراً ضحكة أخرى كتومة من أنفه. وجدتُ نفسي راكضاً نحو الأمام أصرخ وأدفعه نحو النافذة وأرفعه برأسه إلى أسفل نحو الشارع المرصوف بالحصى. أصدر نخرة الانتصار وخرج مع مظروف مانيلا سميك، لكن عندما وصلتُ لآخذه أمسك به مرة أخرى، وهو ينظر لي بنظرة متأملة مرحة، وقد حنى رأسه جانباً. «هذه الأشياء التي تهمك، إنها بعض الصور» قال وهو يثبت المظروف بيد واحدة ويرفرف بالأخرى الملتوية نحو الأعلى والأسفل بطريقته التي درسها في أوربا الوسطى. من خلال الكوة التي كانت فوقنا سطعت شمس الصيف فوق طاولة العمل، لتجعل الأوراق المتناثرة من ورق التصوير الفوتوغرافي متقدة بوهج أبيض حار. هز سيرج رأسه وهسهس بلا صوت من خلال شفتيه المزمومتين. «بعض الصور!»

من سريرها في المشفى رفعت آنا يدها متلهفة، بأصابع مفلطحة طفولية وانتزعت المغلف من يدي دون أن تنبس بكلمة. كان الجو حارّاً ورطباً للغاية في الغرفة وقد علت طبقة رقيقة مبللة ولامعة من العرق جبينها وشفتها العليا. بدأ شعرها بالنمو مرة ثانية، على نحو بطيء كأنه من المعلوم بأنه لن تكون هناك حاجة إليه لمدة أطول، نما في خصلات سوداء اللون وخفيفة، وذات مظهر دهني، أشبه بفراء ملعوق لقط. جلستُ على طرف السرير وراقبتها وهي تمزق بأظافرها بصبر نافذ لسان الظرف. ما الذي يجعل غرف المشفى مغرية إلى هذا الحد، رغم كل ما يدور فيها؟ هي ليست كغرف الفنادق. غرف الفنادق، حتى الفاخرة منها، أماكن غامضة، وليس فيها من يعتني بالضيوف، لا سرير، ولا خزانة للمشروبات الباردة، ولا حتى مكوى للبنطلونات منتصبٌ هكذا بجلالٍ شديد، وظهره على الحائط. بالرغم

من كل جهود المهندسين المعمارين والمصممين والإداريين، فإن غرف الفنادق تجعلنا نشعر بالضجر والرغبة في مغادرتها،على النقيض منها، ودون أي جهد من أحد، فإن غرف المشفى تقام هناك لجعلنا نرغب في البقاء، ونشعر بالرضا. إنها توفر أشكالاً لطيفة من الرعاية، كل ذلك الطلاء الكريمي السميك على الجدران، والأرضيات المغلفة بمادة مطاطية، وحوض المغسلة الصغير في الركن بمنشفة صغيرة متواضعة على سكة تحتها، والسرير بالطبع، بعجلاته وأذرعه، والذي يشبه سرير أطفال يطوى على نفسه، حيث يمكن أن ينام المرء ويحلم، ويكون مُراقباً، وتحت الرعاية، دون أن يموت أبداً. أتساءل إذا كان بالإمكان استئجار غرفة، غرفة في مشفى، لتصبح مقر عملي، وإقامتي أيضاً. وسائل الترفيه ستكون مدهشة. ستكون هناك دعوة مبهجة للاستيقاظ في الصباح، ووجبات مقدمة مدعومة بالحديد بانتظام، وسرير المرء مرتب وأنيق كمظروف أبيض طويل، وفريق طبي كامل على أهبة الاستعداد يقف بالقرب للتعامل مع أي أمر طارئ. نعم، يمكنني الشعور بالاحتواء هناك، في واحدة من تلك الغرف البيضاء، ومن نافذتي المسورة بالقضبان، لا، ليست مسورة، سأسترسل بعيدًا، هي نافذتي المطلة على المدينة والمداخن والطريق المزدحمة والمنازل المقببة وكل الكائنات الصغيرة المهرولة إلى ما لانهاية، ذهاباً وإياباً.

نشرت آنّا الصور حولها على السرير وتأملتها بشغف، توهجت عيناها، اللتان غارتا آنذاك، لتبرزا من هيكل الجمجمة. كان أول ما أدهشني استخدامها لفيلم ملون؛ لأنها دائماً كانت تفضّلُ الأبيض والأسود. بعد ذلك أدهشتني الصور بحد ذاتها. لربما أُلتقِطت في حديقة المشفى في زمن الحرب، أو في جناح الجرحى في مدينة مهزومة ومدمرة. كان هناك رجل عجوز مع ساق مبتورة من أسفل الركبة، وخط سميك من الغرز أشبه بسحاب مغلق يعبر الجذع اللامع المبتور.

امرأة بدينة في منتصف العمر كانت بلا ثدي، وكان اللحم، الذي أُزيل مؤخرًا، مجعدّاً ومنتفخاً، كمحجر عين مارد. صورة لأصابع ملتهبة المفاصل لامرأة عجوز اُلتقطِت عن قرب، كانت مقبوضة ومعقودةً أشبه بجذور الزنجبيل. صورة لصبي مع آفة جلدية بارزة على خده، ملتفةً كالماندالا، كان يبتسم للكاميرا، وقد رفع قبضتيه وأعطى إشارة بإبهاميه، وقد تدلى لسانه السمين بخفة. كانت هناك حقنة موضوعة في زاوية سفلية لصندوق معدني فيه جلطات وخيوط من لحم رطب قاتم مجهولة الهوية ألقيت داخله-

أكانت تلك قمامة من المطبخ، أم من غرفة العمليات؟

أكثر ما أثار دهشتي في الأشخاص الذين صُوروا. طريقتهم الهادئة في الابتسام التي استعرضوا بوساطتها جراحهم وغرزهم وتقيحاتهم. أتذكر على وجه الخصوص صورة كبيرة وعادية من الوهلة الأولى، في قماش من البلاستيك الوردي والأحمر والرمادي اللامع، التي اُلتقطِت من أسفل السرير، لامرأة عجوز بدينة مرتخية بشعر هائج وسيقان مرفوعة ذات عروق زرقاء، وركبتين متباعدتين، تظهران ما افترضت أنه رحمٌ متدلٍ. كان الترتيب لافتاً للنظر، معروضاً بعناية، كأنه واجهة كتاب من كتب بليك التنبؤية. المساحة المركزية، مثلثٌ مقلوب محاطٌ من الجانبين بساقي المرأة المنتصبين ومن الأعلى حاشية ثوبها الأبيض المشدود والممتد من الركبة إلى الركبة، ربما كانت رقعة فارغة من قماش نفيس بانتظار نقش ناري، يبشر ربما بخروج ذلك الشيء الوردي والأرجواني الذي برز بالفعل من جحرها. فوق هذا المثلث، بدا رأس ميدوسا للمرأة بوساطة خداع بصري مقطوعاً ومرفوعاً إلى الأمام وموضوعاً على نحو مباشر في نفس مستوى ركبتيها، والجذع الأملس لرقبتها يبدو متوازناً فوق الخط المستقيم لطرف فستانها الذي شكل القاعدة المقلوبة للزاوية الثلاثية. رغم الموقف الذي فرض نفسه كان الوجه براحة تامة، وربما كانت

تبتسم، بطريقة احتجاجية فكاهية، مع بعض الرضا، وبعض الفخر الواضح. تذكرت السير برفقة آنا في الطريق ذات يوم بعد أن تساقط شعرها بالكامل وكانت تراقب أثناء عبورها بالقرب من الرصيف المقابل امرأة كانت صلعاء أيضاً. لا أعرف إذا لاحظت آنا أني التقطت النظرة التي تبادلتها الامرأتان، بعيون فارغة وفي ذات الوقت حادة ومتواطئة. طوال ذلك العام بشهوره الاثني عشر اللامتناهية من مرضها لا أعتقد أني شعرت بالبعد عنها أكثر مما شعرت به في تلك اللحظة، وأنا أُتعرض للدفع جانباً من قبل مجموعة من نساء منكوبات.

«حسناً» قالت حينها، مواصلةً النظر إلى الصور دون تكبد عناء النظر نحوي. «بماذا تفكر؟»

لم تكن لتكترث بما أفكر به. بحلول ذلك الوقت كانت قد تجاوزتني وتجاوزت آرائي.

«هل ستريهم لكلير؟» سألتها. لماذا خطر ذلك الشيء في ذهني أولاً؟

تظاهرت بأنها لم تسمع، أو ربما بالفعل لم تكن سمع. دق جرس في مكان ما في المبنى، أشبه بألم بسيط دائم يمكن سماعه.

«هذا ملفي» قالت: «و لائحة إدانتي»

«لائحة إدانتك؟» قلتُ بعجز، مع شعور غامض. «إدانتك بماذا؟».

هزت كتفيها. «بكل شيء» قالت بهدوء: «بكل شيء».

كلوي، وحدّتها. الشاطئ. السباحة في منتصف الليل. حذاؤها المفقود، تلك الليلة عند مدخل قاعة الرقص، حذاء سندريلا. كل شيء انتهى. كل شيء ضاع. ليست بمشكلة. وأنا متعب، متعب وثمل. لا يهم.

مررنا بعاصفة. استمرت طوال الليل وحتى منتصف الصباح، لم تكن أمراً معتاداً، فأنا لم أشهد مثلها على الإطلاق، في هذه المناطق المعتدلة، بسبب عنفها ومدتها. استمتعتُ بها على نحو سيئ، وأنا جالسٌ في

سريري المزخرف كأنني على نعش، إذا كان ذلك هو الوصف المناسب الذي أريده، والغرفة تومض حولي، والسماء تُسحن صعوداً وهبوطاً في غضب، وتطحن عظامها. أخيراً، على ما أعتقد، وصلت الأشياء درجةً من التوهج لتوافق اضطرابي الداخلي!! شعرت بتحول، شعرت كأني أحد أنصاف آلهة فاغنر، أرتفع فوق السحاب المرتعد وأقود التوليفات الموسيقية الصادحة العظيمة وتشابكات الصنجات السماوية. في هذا المزاج من النشوة المسرحية، وفوران وسكون أبخرة زجاجة البراندي، تأملت مكاني في الوهج الجديد والمتفجر. أعني مكاني على نحو عام. لدي قناعة مطلقة، مخالفة لكل المبادئ العقلانية، حيث إنه في بعض اللحظات المستقبلية غير المحددة ستكون إعادة سردية حياتي، بكثير من سوء فهمها، وزلاتها وعثراتها، مرفقةً بتلك الدراما الحقيقية التي كنت أستعد دائماً بجدية لخوضها وقد خضتها في النهاية. هي حالة من الوهم الشائع، وأنا أعلم، أن كل شخص استمتع بها. ومع ذلك في الليلة الأخيرة، في وسط ذلك العرض المذهل لفالهالان العابس، تساءلتُ إذا كانت لحظة وصولي وشيكة، أو لحظة رحيلي، إذا جاز التعبير. لا أعرف كيف ستكون تلك، القفزة الدراماتيكية في خضم الحدث، أو ما هو متوقع الحدوث بالضبط على خشبة المسرح. ومع ذلك أتوقع تمجيداً من نوع ما، ونقطة تحول رئيسة عظيمة بعض الشيء. أنا لا أتحدث هنا عن احتمالية الآخرة، أو عن إله قادر على استعراضها. بافتراض أنه من خلق العالم، فإن الإيمان به سيكون معصية لله. لا، ما أنا أتطلع إليه هي لحظة تعبير دنيوية. ذلك هو بالضبط: أن يُعبَر عني تماماً. أن أُوصَل، كخطاب ختامي نبيل. سأُذكّر، بكلمة واحدة. أليس هذا هو هدفي الدائم، أم لا، الهدف السري لنا جميعاً، ألا نصبح أجساداً مجدداً إنما نتحول تماماً إلى ثرثرة أرواح لا تعاني؟ فرقعة، تصادم، ارتجاف، الجدران بحد ذاتها ترتجف.

بالمناسبة: السرير، سريري. تصر الآنسة فافسور أنه في حين كان هنا. عائلة غريس، كان خاصاً بالأم والأب، هل هنا، حيث ناما، في هذا السرير بالذات؟ يا لها من فكرة، لا أعرف ماذا أفعل بها. الأفضل والأقل إزعاجًا التوقف عن التفكير بها. هذا كل شيء.

أسبوع آخر انتهى. كيف يمضي الوقت سريعاً مع تقدم الفصول، والأرض تندفع عبر أخاديدها داخل الالتواء السنوي الأخير الذي يتناقص على نحو حاد. رغم استمرار اعتدال الطقس، يشعر الكولونيل بقدوم الشتاء. كان يعاني من المرض مؤخراً، وقد أصيب بما يقول عنه أنفلونزا في الكلى. أخبرته أن هذه إحدى شكاوي والدتي- واحدة من شكاياتها العديدة، في الحقيقة، لم أضيف- بينما ينظر نحوي نظرة شاذة، معتقداً أني أسخر منه، ربما، أو ربما كنت كذلك. ماهي الانفلونزا في الكلى، على أية حال؟ لم تكن أمي أكثر دقة من الكولونيل في وصف الموضوع، وحتى بلاك ميديكال ليس بوسعها تقديم أي إيضاح. ربما يريدني أن أفكر أنه هو سبب كثرة ذهابه إلى دورة المياه ليلاً ونهاراً وليس الشيء الأكثر خطورة الذي أظن. «لستُ بحال أفضل»، يقول، «وتلك هي حقيقة». اعتاد ارتداء كاتم صوت في أوقات الوجبات. يتأمل طعامه بفتور ويرحب بأخف محاولة للسخرية بروح طيبة، ونظرة معاناة يلقيها بضجر مصاحبة لتنهد خافت يكاد أن يكون أنيناً. هل وصفت لكم أنفه المتلون بألوان متعددة؟ إنه يبدل درجة تلونه في أوقات النهار ومع أدنى اختلاف في الجو، من لون الخزامى الباهت مروراً باللون العنابي وحتى الأرجواني الداكن. أهذه هي الرينوفايما[45]، أتساءل على نحو مفاجئ، أهذه بثور الدكتور طومسون المعروفة الناتجة عن الإفراط

45- الرينوفايما مرض يصيب الأنف ويسبب تورمه واحمراره يسمى الأنف المتضخم، ويحدث لدى المدمنين على الخمر.

بالشرب؟ تتشكك الآنسة فافسور حيال معاناته، وتنظر نحوي بتعابير تهكمية عندما يكون منحرفاً بنظره. أعتقد أنه يرهق قلبه في محاولاته للتودد لها. في تلك الصدرية الصفراء، في حين كان الزر السفلي مفكوك، وحاشية القماش مفتوحة فوق كرشه الصغير الناعم، إنه قوي وحذر كذكر طير من عائلة الطيور الريشية، كالطاووس أو الديك الدراج، الذين يراقبون على مسافة بطريقة جذابة للغاية، بنظرات متحرقة لكنهم يتظاهرون بعدم الاكتراث، بينما تنقر الدجاجة السمراء الحصى بحثًا عن الديدان. تتلقى الآنسة فافسور مجاملاته الخجولة الثقيلة بخليط من الانزعاج والشعور بالإحراج. أخمن من نظراته المجروحة نحوها، أنها منحته بعض أسباب الأمل سابقاً والتي انتزعتها منه حالاً عندما أتيت لأكون شاهداً على حماقتها، وأنها الآن ترسم إشارة الصليب، وتحرص لأكون مقتنعاً كما ينبغي أن ما تَحَمَّلهُ لترغيبها ربما لم يكن حقًا أكثر من استعراض مجاملة احترافية لصاحبة الأملاك.

في معظم الأحيان عند وقوعي في الحيرة لمعرفة ما علي فعله بوقتي، أُعد جدول مواعيد ليوم الكولونيل النموذجي. فهو يستيقظ باكراً؛ لأنه شحيح النوم، مومئاً لنا بصمت معبر وشفاه مطبقة ينفض عن كتفيه مجموعة من كوابيس ساحة المعركة التي من شأنها أن تمنع الاستسلام للنوم، على الرغم من ذلك أفكر أن الذكريات السيئة التي تؤرقه لم تكن محتشدة في المستعمرات المتناثرة البعيدة إنما في مكان ما أشد قربًا للديار، على سبيل المثال في الطرق الممهدة والمحفورة من الجوانب في جنوب أرماغ. فطور يتناوله بمفرده على طاولة صغيرة في ركن المدفأة في المطبخ- لا، لم أتذكر الركن، ولم أتحدث عن المكان المنعزل- حيث يشكل الانعزال الحالة المفضلة لديه ليتناول وجبة يقول عنها على نحو متكرر أنها أهم وجبة في اليوم. ترغب الآنسة فافسور في عدم إزعاجه،

وتقدم له شريحة من لحم الخنزير والبيض والبودينغ الأسود بهدوء شديد. بينما يحتفظ بمؤونة خاصة به من التوابل، عبارة عن زجاجات غير موسومة من أشياء راكدة فيها ملونة بالبني والأحمر والأخضر الداكن، والتي يضيفها لطعامه بمقادير خيميائية دقيقة. هناك أيضاً وجبة يحضرها بنفسه، يسميها تصبيرة، وهي أنشوجة متبلة لزجة بلون الكاكي، مع مسحوق الكاري وكمية كبيرة من الفلفل، وأشياء أخرى بلا اسم، تفوح برائحة نقانق غريبة. يقول: «هو مسحوق مطهر رائع للحقيبة». استغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك أن هذه الحقيبة التي يتحدث عنها كثيرًا، أثناء غياب الآنسة فافسور، هي المعدة وتوابعها. وأنه لايزال على قيد الحياة نظرًا للحالة التي تتمتع بها هذه الحقيبة.

بعد الإفطار يأتي السير الصباحي على الأقدام، يمارسه في كل الأجواء على ستيشن رود وعلى طول ممشى الجروف مارّاً بحانة بيير هيد ويعود أدراجه على الطريق الطويل الملتف حول أكواخ المنارة والجيم، حيث يتوقف لشراء صحيفة الصباح ولفافة من النعناع الحار للغاية التي يمصها على مدار اليوم، فيما تعمُّ المنزل رائحة كريهة خافتة. يمضي بخطوات سريعة، مع ثقتي أنه يتعمد أن يتخذ سلوكاً عسكريًا، رغم أنه في الصباح الأول الذي رأيته فيه بحث السير لاحظت على نحو صادم كيف في كل خطوة يؤرجح قدمه اليسرى في انحناءة جانبية طفيفة، تماماً كما اعتاد والدي المتوفى على فعله منذ زمن طويل.

في الأسبوع الأول أو الأسبوعين منذ بداية إقامتي هنا، كان يحضر أشياء رمزية بعد قدومه من هذه المسيرات على الطريق من أجل الآنسة فافسور، أشياء ليست خيالية، ولا تافهة، باقة من أوراق مائلة للحمرة أو غصن أخضر، لا شيء لا يمكن إحضاره كمجرد عنصر للعناية البستانية، التي يضعها بلا تعليق على طاولة الردهة بجانب قفازاتها

الخاصة بالبستنة وحزمتها الكبيرة من مفاتيح المنزل. في الوقت الحالي يعود خالي الوفاض، باستثناء جريدته ونعناعه ؛ ذلك هو صنيعتي، فوصولي قد وضع حدّاً لمراسم أكاليل الزهور.

تستهلك الجريدة ما تبقى من صباحه، يقرأها من الصفحة الأولى وحتى الأخيرة، كأنه يجمع المعلومات الاستخبارية، دون أن يفوته شيء. يجلس جوار المدفأة في الردهة، حيث تدق الساعة على رف الموقد ببطء وعجز، وتتوقف مؤقتًا عند تدريجة النصف والربعين لتؤدي بنفسها قرعة واحدة خافتة وعاجزة ولكنها على مدار الساعة هي نفسها تحافظ على ما يبدو صمتاً انتقامياً. لديه كرسي بذراعين، ومنفضة سجائر زجاجية لغليونه، وصندوق سجائره من نوع سوان فيستاس، فضلاً على ذلك مسند لقدمه، وحمالة الورق خاصته. هل يلاحظ تلك الحزم النحاسية من ضوء الشمس الساطعة عبر الإطار المعدني للنافذة المطلة على الخليج، والحدبة الجافة من زرقة البحر والنبتة المتسلقة برؤوس مزهرة التي تحتل بهدوء المشبك المعدني للنافذة حيث حتى الآن لم تكن هناك حاجة لإشعال النار الأولى لهذا الموسم؟ هل يلاحظ أن العالم الذي يقرأ عنه في الجريدة لم يعد العالم الذي يعرفه؟ ربما في تلك الأيام، كرس كل طاقاته، مثلي، للاجتهاد في عدم الملاحظة. لقد أمسكت به على نحو خفي يرسم إشارة صليب عندما يصلنا قرع الصلاة من الكنيسة الحجرية بمحاذاة ستراند روود.

في وقت الغداء، يجب علينا، الكولونيل وأنا، خدمة أنفسنا، حيث تعود الآنسة فافسور إلى غرفتها كل يوم بين الظهيرة والساعة الثالثة، لتنام، أو تقرأ، أو تكتب في مذكراتها، لا شيء من ذلك من شأنه أن يدهشني. يجتر الكولونيل الطعام اجتراراً. يجلس على طاولة الطعام في قميص بأكمام وكنزة صوفية قديمة بلا أكمام يقضم بصوت طاحن شطيرة رديئة الإعداد- يخترق قطعة الجبن أو شريحة اللحم البارد بين

نهايتين مسدودتين ملطختين بصلصته الخاصة به، أو مدهونتين بصلصة كولمان الحارة، أوفي بعض الأحيان كليهما في حال شعوره بالحاجة إلى تأثير أكبر- ويحاول التظاهر برغبته في الحديث معي، أشبه بقائد ميداني بارع يبحث عن ثغرات في دفاعات العدو. يتحدث بالمواضيع المحايدة، كالطقس، والمباريات الرياضية، وسباق الخيول رغم تأكيداته أنه ليس رجل مراهنات. بصرف النظر عن عدم الثقة بالنفس فإن شعوره بالضيق واضح: تقلقه تلك الساعات الفارغة، بعد الظهيرة، كما تقلقني ليالي الأرق. هو لا يستطيع إبعادي، ويرغب بمعرفة ما الذي أفعله هنا حقًّا، أنا الذي قد أكون في أي مكان آخر، إذا ما اخترتُ ذلك، وكما هو الحال عليه في اعتقاده. من يستطيع تحمل الجنوب الحار- «رجل الشمس الوحيد في سبيل الآلام والأوجاع» هكذا عبّر الكولونيل عن نفسه- أتراه رغب بالمجيء ليمارس حزنه في سيدارز؟ لم أخبره عن الأيام الخوالي هنا، وعن عائلة غريس، وعن كل الأشياء تلك. ماعدا كل الأشياء الجلية. أستيقظ لأغادر- «للعمل» أقولها بطريقة جادة- ويرمقني بنظرة بائسة. حتى أن صحبتي غير المتوقعة تصبح مفضلة لديه على غرفته ومذياعه.

أثار ذكر ابنتي مصادفة ردة فعل حماسية. فهو لديه ابنة أيضاً، متزوجة، ولديها طفلتان صغيرتان، كما يقول. سيأتون لزيارتنا عما قريب، الابنة، وزوجها المهندس، والفتاتان اللتان تبلغان من العمر سبع سنوات وثلاث سنوات. أتمتع بهاجس اتجاه الصور الفوتوغرافية وكلي ثقة أن المحفظة البارزة من الجيب الخلفي والصور الفورية الظاهرة، هي لامرأة شابة سمراء بسحنة مستاءة والتي لاتشبه الكولونيل على الإطلاق، وفتاة صغيرة في فستان أفراح تشبهه لسوء الحظ. يبدو الصهر بابتسامته العريضة على الشاطئ مع رضيعة بين ذراعيه رجلاً حسن المظهر على نحو غير متوقع، بكتفين عريضين وهيئة جنوبية بشعر

دهني وعينين محاطتين بالهالات، كيف عثرت الآنسة بلوندن المحتشمة لنفسها مثل هذا الرجل؟ من بيئة أخرى، وقوم آخر. على نحو مفاجئ يصبح الحديث عنهم مبالغاً به بالنسبة لي، ابنة الكولونيل، وزوجها وابنتيهما، وأنا أستعرض الصور على عجل، أهز رأسي. يقول الكولونيل: «حسنًا، أنا آسف، أنا آسف» ويتنحنح بشعور من الحرج. يعتقد أن الحديث عن الأسرة يثير الشجون بالنسبة لي، ولكنه ليس هذا، أو ليس هذا فقط. في تلك الأيام كان لابد من تجرع العالم برشفات صغيرة ومدروسة بعناية، إنه نوع من علاج مثالي أخضع له، رغم عدم ثقتي بالقصد المرجو من هذا العلاج. لعلي أتعلم العيش بين الأحياء مرة أخرى. أعني، التمرن على ذلك. لكن لا، الأمر ليس كذلك. وجودك هنا هو مجرد وسيلة كي لا تكون في أي مكان آخر.

الآنسة فافسور، في شدة حرصها على أمور أخرى تخص رعايتها لنا، غريبة الأطوار، إن لم نقل مستبدة، في المسائل التي لا تتعلق بوجبة الغداء فقط إنما بما يتعلق بكل الوجبات عامةً، والعشاء خاصة في سيدارز الذي قد يكون وجبة طعام غير متوقعة. ربما يوضع أي شيء على الطاولة، ويؤتى به. الليلة على سبيل المثال قدمت لنا سمك الإفطار مع البيض المسلوق والكرنب المطهو. يمسك الكولونيل، مستنشقاً، زجاجات البهار بتباهٍ ويقلبها أشبه بفنان بقعة البازلاء. على احتجاجاته الصامتة هذه يكون رد الآنسة فافسور رداً حازماً لشخصية أرستقراطية شاردة الذهن بازدراء. بعد تناول السمك المدخن قدمت قطع الكمثرى المعلبة في مادة رمادية سميكة ساخنة والتي لو تسعفني ذاكرة الطفولة فإني أعتقد أنها كانت سميداً.

السميد، يا إلهي. عندما بدأنا بالتهام هذا الطعام، دونما شيء فقط النقر بأدوات المائدة لمقاطعة الصمت، لقد تخيلت نفسي فجأة كشيء

ما كبير وأسود اللون من فصيلة القرود سقط هناك عند الطاولة، أو ليس كشيء ما إنما كل شيء، أو بالأحرى، فجوة في الغرفة بفراغ واضح، وظلام مرئي. كان ذلك غريباً للغاية. رأيت المشهد كما لو أني خارج نفسي، في غرفة الطعام المضاءة على نحو نصفي بمصباحين عاديين، والطاولة القبيحة ذات الأرجل المخيفة، والآنسة فافسور غائبة عن المشهد والكولونيل انحنى فوق طبقه كاشفًا عن جانبٍ واحدٍ من أسنانه العلوية أثناء مضغه للطعام، وأنا هذا الشكل المظلم المبهم الكبير، أشبه بشكل لا يراه أحد في المشهد حتى تُحمَض صورة الداجيروتايب. أعتقد أني تحولت إلى شبح.

بعد العشاء، ترفع الآنسة فافسور الأطباق عن المائدة بخفة يد عجيبة- هي ماهرة جدّاً بالإجمال بهذا النوع من المهام الروتينية التافهة- بينما نجلس الكولونيل وأنا في ضيق مبهم ننصت لجسدينا يبذلان قصارى جهدهما للتعامل مع الأضرار التي أُلحقت بهما للتو.

بعد ذلك تشق الآنسة فافسور طريقها بجلال إلى غرفة التلفاز. هذه الغرفة الكئيبة، ذات الإضاءة السيئة، تتمتع بجو خانق بعضَ الشيء، وكانت رطبة وباردة. للمفروشات أيضًا مظهرٌ بالٍ، أشبهَ بأشياءَ جيء بها هنا على مر السنين من مكان ما أكثر سطوعاً في الأعلى. تتمدد أريكة مغطاة بقماش قطني مطبوع في حالة مريعة، طُرحت ذراعاها أرضاً وترهلت وسائدها، وهناك كرسي بذراعين نُجِد بقماش الترتان، وطاولة صغيرة بثلاثة أرجل تحمل نبتة بوعاء مترب، التي أجزم أنها نبتة ورق الصالون، التي تشبه شيئاً لا أدري في أي وقت مضى قد رأيته. يقف بيانو الآنسة فافسور المنتصب بغطائه المغلق قبالة الحائط الخلفي كما لو كان في حالة استياء شديد من منافسه المتوهج، جهاز عرض دقيق رمادي داكن اللون تنظر إليه صاحبته بمزيج من الفخر

ودهشة خجولة. في هذا الجهاز نشاهد العروض الكوميدية، بتفضيل لتلك العروض التي يعاد عرضها منذ عشرين أو ثلاثين عامًا مضت. نجلس بصمت، بينما يضحك الجمهور في الصندوق بالنيابة عنا. يلعب الضوء الملون المرتعش القادم من الشاشة فوق وجوهنا. نستغرق، بلا تفكير كالأطفال. تلك الليلة عُرض برنامج عن مكان في إفريقيا، أعتقد أنه كان سهل سيرينجيتي، بقطعانه من الفيلة الضخمة. يا لها من حيوانات مدهشة، وثيقة الصلة بزمن قديم سابق لزمننا، عندما كانت أفراس النهر أكثر ضخامة من تلك التي زأرت واهتاجت عبر الغابات والمستنقعات. في سلوكهم حالة من الكآبة ومع ذلك يبدون في استمتاع خفي، كما كان واضحًا لنا. يتحركون بتثاقل وهدوء في طابور واحد، طرف الخرطوم لأحدهم التف بلطف حول الذيل الصغير المضحك لابنة عمه أمامه. اليافعون منهم، ذوو الأوبار الأكثر كثافة من أكبرهم، يهرولون بسعادة بين أقدام أمهاتهم. إذا ما شرع المرء بالبحث بين شركائنا من المخلوقات، الذين يعيشون على اليابسة على الأقل، بين من هم على النقيض منا تمامًا، فإنه لن يحتاج بكل تأكيد للنظر أبعد من الفيلة. كيف سمحنا لهم بالبقاء على قيد الحياة لمدة طويلة؟ يبدو أن تلك العيون الصغيرة الحزينة الواعية تدعو المرء لارتكاب حماقة. نعم، عليك أن تمرر رصاصة كبيرة هناك، أو في إحدى تلك الأذنين المرنة والضخمة والغريبة. أجل، أجل، لإبادة كل الوحوش، اقطعها عن شجرة الحياة حتى يبقى الجذع بمفرده واقفًا، ثم بشغف خذ الساطور للقيام بذلك أيضاً، وقم بإنهاء كل شيء.

أيتها الغبية، أيتها الغبية الساقطة، كيف استطعتِ الذهاب وتركي هكذا، متخبطًا في قذارتي، ولا أحد معي لينقذني من نفسي. كيف استطعت فعل ذلك.

بالحديث عن غرفة التلفاز، أدرك بغتة أني لا أفكر لماذا لم يصدمني الحديث عنها قبل الآن، من الواضح، أن ما تذكرني به، وما يذكرني به المنزل برمته، في ذلك الخصوص، وهذا لابد أنه السبب الحقيقي لقدومي هنا للتخفي في المكان الأول، الشقة المستأجرة التي سكنا فيها والدتي وأنا، حيث اضطررنا للعيش بها طوال سنوات مراهقتي. بعد رحيل والدي كانت مجبرة بالبحث عن عمل لإعالتنا ودفع تكاليف تعليمي، وهذا ما حدث. انتقلنا إلى المدينة، هي وأنا، حيث اعتقدت أنها ستحظى هناك بالكثير من الفرص بكل تأكيد. لم تكن تتمتع بأية مهارات، فقد تركت المدرسة في سن مبكر وعملت لمدة وجيزة كبائعة قبل أن تلتقي بوالدي وتتزوجه لتهرب من عائلتها، مع ذلك كانت مقتنعة أن ثمة موقع مثالي بانتظارها، وظيفة من الوظائف، الوظيفة التي كانت مخصصة لها ولها فقط ولكنها بكل سخط لم تسطع العثور عليها أبداً. هكذا ارتحلنا من مكان إلى مكان، من نُزل إلى نُزل، وقد بدا أن وصولنا إلى المكان الجديد في كل مرة موافقاً لمساء يوم أحد شتوي رذاذي المطر. كانت تلك الشقق متشابهة، أو أنها هكذا على الأقل في ذاكرتي. فيها أريكة بذراع مكسور، ومشمع أرضية مرقع، وموقد الغاز الأسود القصير متجهم في ركنه تفوح منه وجبات العشاء المقلية للنزيل السابق. كان المرحاض أسفل البهو، بمقعد خشبي متكسر وبقعة صدأ بنية وطويلة على الجزء الخلفي من الحوض وحلقة سحب المياه مفقودة من السلسلة.

كانت الرائحة في البهو كرائحة أنفاسي التي زفرتها واستنشقتها في قعر يديّ لأعرف كيف يشعر المرء عندما يكون مختنقاً. كان لسطح الطاولة التي تناولنا الطعام عليها ملمساً دبقاً تحت الأصابع بغض النظر عن مدى القوة التي فركتها بها. بعد تناول الشاي، كانت ترفع أغراض الشاي وتنشر البريد المسائي فوق الطاولة تحت الوهج الأصفر للمصباح ذي الستين واط وتتعقب بوساطة دبوس الشعر أعمدة

الإعلانات عن الوظائف، واضعة علامة قبالة كل إعلان وتتمتم بغضب همساً. «الخبرة السابقة أساسية...التوصيات مطلوبة...لابد أن يكون متخرجًا من الجامعة...امم!» ثم يأتي دور حزمة أوراق اللعب الملساء، وأعواد الثقاب المقسمة إلى كومتين بالتساوي، ومنفضة السجائر المعدنية تفيض بأعقاب سجائرها، وشراب الكاكاو خاصتي وكأس الخمر المحضر منزلياً من أجلها. كنا نلعب بالورق لعبة العجوز، وجين رومي، ولعبة هيرتز. بعد ذلك حان الوقت لفتح سرير الأريكة وسحب الجزء تحت الملاءة الرطبة بقوة، وتثبيت البطانية بطريقة ما من السقف لتتدلى على امتداد الجزء الجانبي من سريرها مراعاة لخصوصيتها. كنتُ أضطجعُ وأستمع بغضب عاجز لتنهيداتها، وشخيرها، وقرقرات غازات البطن المتقطعة التي تطلقها. في كل الليالي الأخرى، على ما يبدو، كنتُ أستيقظ لسماعها وهي تنوح، وبراجم أصابعها مشدودة على فمها ووجهها مدفون في الوسادة. نادراً ما كان يُذكر والدي بيننا، إلا إذا تأخر في إرسال الحوالة البريدية الشهرية. لم تكن لتجبر نفسها على نطق اسمه؛ كان الجنتلمان جيم، أو سيادته، أو إذا ما كانت في واحدة من موجات غضبها العارم أو بعد تناولها الكثير من النبيذ الأحمر، كانت تدعوه بفيل عازف الفلوت، أو حتى فارت عازف الكمان الأحمق. في تصورها كان يستمتع بنجاح باهر، هناك، نجاح رفض أن يشاركنا به كما ينبغي عليه وكما نستحق. تحمل مغلفات الحوالات المالية القادمة - بلا رسائل، فقط بطاقة في عيد الميلاد أو في عيد ميلادي، التي كانت منقوشة في لوحة نحاسية مشغولة بعناية، فقد كان فخورًا بها - طوابع بريدية تصور الأماكن التي زارها، والتي لا تزال تشير إلى الطرق السريعة التي ساعد في إنشائها في أثناء عمله، وتستفز في داخلي خليطاً من مشاعر الحزن، والغضب أو ما يتبعهما، وتحركُ توقاً غريباً يشبه الحنين، الحنين لمكان لم أزره من قبل. واتفورد. كوفنتري. ستوك. هو

أيضاً اختبر الغرف القذرة، والمشمع على الأرضية، وموقد الغاز، والروائح في الردهة. فيما بعد وصلت الرسالة الأخيرة، من السيدة الغريبة- التي كانت تدعى مورين سترينج- لتبلغنا أخباراً حزينة للغاية ينبغي إخباركم بها. كانت دموع والدتي غزيرة بسبب الغضب كما هي من الحزن. صاحت: «أمورين هذه؟» والورقة المفردة ذات الخط الأزرق تهتز. «هي من دمرته» قالت وهي تكز على أسنانها. «دمرته العاهرة، أخيراً» في مخيلتي رأيته للحظة، في المنزل الخشبي، كما كان يحدث في الليل، عائدًا من الباب المفتوح في الوهج الأصفر القوي لمصباح البارافين ومحدقاً نحوي بنظرة تهكمية غريبة، مبتسمًا بالكاد، وبقعة ضوء من المصباح تشع على جبهته وخلفه خلال الباب المفتوح يحل ظلام سطحي مخملي لليلة صيف.

آخر المطاف، عندما توشك قنوات التلفاز على الانغماس ببرامجها المرعبة غير المستساغة والليلية المتأخرة، أُطفِئ الجهاز نهائيًا ويتناول الكولونيل شاي الأعشاب الذي تعدّه له الآنسة فافسور. يخبرني أنه يكره مذاقه- «لا تخبرها بذلك، هي وجهة نظر!»- لكنه لا يجرؤ على رفضه. تقف الآنسة فافسور فوق رأسه وهو يشرب. تصر أنه سيساعده على النوم؛ هو على قناعة أن العكس هو الصحيح، ومع ذلك لا يحتج، ثم يبتلع الكأس بانطباع المغلوب على أمره. ذات يوم أقنعتُه ليرافقني إلى حانة بيير هيد لاحتساء كأس نبيذ، لكن ذلك كان تصرفاً خاطئاً. كان يشعر بالقلق برفقتي- لم ألمه، فأنا قلق في قرارة نفسي- وقد تململ مع غليونه وكأسه الملآن وواصل ثني كمه خلسة ليراقب الوقت في ساعته. بعضٌ من السكان المحليين الذين كانوا هناك حملقوا فينا، ثم غادرنا في الحال، عائدين أدراجنا إلى سيدارز بصمت تحت سماء أكتوبر الهائلة بنجومها وقمرها المحلق وغيومها المشرذمة. معظم الليالي أحتسي الشراب وحدي كي أنام، أو كمحاولة لذلك، مع نصف دزينة من كؤوس البراندي المترعة من زجاجة

نبيذ من أفضل الأنواع النابوليونية أحتفظ بها في غرفتي. يفترض بي أن أمنحه بعضاً منه، لكني لم أفكر بذلك. فكرة الأحاديث المتبادلة مع الكولونيل في وقت متأخر من الليل عن الحياة والقضايا المتعلقة بها غير جذابة. كما إن الليل طويل، وقدرة تحملي ضئيلة.

هل حدثتكم حقًّا عن طريقة احتسائي للشراب؟ أنا أحتسي كالسمكة. لا، ليس كالسمكة، فالأسماك لا تحتسي الشراب، هي تتنفس فقط بطريقة تنفس خاصة بها. أما أنا فأحتسي كشخص ترمل مؤخرًا، وصار أرملاً، شخصاً ذا موهبة شحيحة وطموحاً أكثر شحّاً، شابَ شعره بمرور السنين، متردداً وضالاً وبحاجة إلى العزاء ولمدة راحة قصيرة من الشرب للسلوان. كنت سأتعاطى المخدرات لو أمكنني الحصول عليها، لكني لم أفعل، ولا أعرف كيف لازمتني الوساوس للحصول على شيء منها. أراهن بأن باليليس ستتفاخر بتاجر مخدرات. ربما بوسع بيكر ديفيركس مساعدتي. بيكر هو زميل مخيف بضخامة أكتافه وصدره المستدير مع وجه مسفوع خشن وكبير وأذرع غوريلا. وجهه الضخم حُفِّر على اتساعه ببعض حب الشباب القديم أو من الجدري، حفراً متأصلة وعميقة، بتبقعاتها من الأوساخ السوداء اللامعة. اعتادَ أن يبحر في أعماق البحار، وقيل إنه اضطر لقتل رجل. يملك بستاناً، حيث يعيش في كرفانة بلا عجلات تحت الأشجار مع كلبته الهزيلة من نوع ويبيت. إنه يبيع التفاح وعلى نحو سري، يبيع خمرةً مهربة عكرة ذات طعم لاذع مصنوعة من الثمار الساقطة بفعل الريح والتي يحملها شبان من القرية الصاخبة في ليالي السبت. لماذا أتحدث عنه بهذه الطريقة؟ ماذا يعني بيكر ديفيريكس بالنسبة لي؟ في هذه المناطق يلفظ الإكس x، ديفيريكز، كما يقولون، لا يمكنني الكف عن الكلام. كيف تسير النزوات المنفلتة بتوحش.

إذا جاز لي التعبير، فقد ابتهج نهارنا لهذا اليوم، بزيارة بون صديقة الآنسة فافسور، التي انضمت إلينا على غداء يوم الأحد. أتيتُ نحوها ظهراً عندما كانت في الردهة، تملأ كرسيًا بذراعين من الخيزران عند النافذة المطلة على الخليج، متراخية كما لو أنها بلا حول ولا قوة وتلهث بصوت خافت. كان المكان الذي جلست فيه مكتظ بضوء الشمس الدخاني. في البداية بالكاد استطعت استلطافها، مع أنها في الحقيقة جديرة بذلك كملكة التونغا الأخيرة. إنها كائن بدين، بعمر غير محدد. ارتدت سترة توید ملونة وفضفاضة مربوطة بإحكام من المنتصف، الأمر الذي جعلها تبدو كما لو أنها نفخت لتنفجر عند الصدر والوركين، وقد برزت أمامها سقاها القصيرتان المتينتان، الملونتان بالبني الفاتح أشبه ببزلين عملاقين نافرين من المنطقة السفلية. وجه جميل رقيق، حساس الملامح ومتوهج باللون الوردي، متوضع وسط اللفائف الكبيرة الشاحبة من رأسها، هي الملامح الباقية، المصانة على نحو رائع، للفتاة التي كانت عليها ذات يوم، منذ زمن بعيد. وقد صففت شعرها الرمادي والذهبي على طراز قديم، بتجزيئه من المنتصف وسحبه مرة أخرى على شكل كعكة. ابتسمت لي وأومأت بتحية، وشحوم عنقها الملساء تهتز. لم أعرف من هي، وفي اعتقادي لابد أنها كانت ضيفةً وصلت مؤخراً- لدى الآنسة فافسور نصف دزينة من الغرف الشاغرة للإيجار في غير موسم الذروة. عندما ترنحت على قدميها أصدر كرسي الخوص طلب استغاثة سريع لإسعافه. كانت بالفعل ضخامة مذهلة. تخيلت أنه إذا تمزق مشبك حزامها وحزامها، أطلق جذعها فسوف تتخبط في شكل كروي تمامًا، ورأسها في القمة كحبة كرز كبيرة فوق كعكعة. كان جلياً من النظرة التي رمقتني بها، تعاطفاً واهتماماً بالغين، حيث كانت على دراية بمن أكون وحالة التصدع التي كنت عليها. أخبرتني اسمها، بدا فخماً، مع فاصلة خطية قصيرة، لكني حالاً نسيته. كانت يدها صغيرة وناعمة

ودافئة رطبة، كيد طفل. في تلك اللحظة دخل الكولونيل بلوندن إلى الغرفة، وصحف يوم الأحد تحت ذراعه، ثم نظر نحوها وتجهم. عندما يتجهم هكذا يصبح بياض عينيه المصفر داكناً أكثر ويتخذ فمه شكل سدادة مربعة ممتدة نحو الخارج.

بين تبعات الثكل المؤلمة إلى حد ما شعوري المخجل أني شخص محتال. بعد موت آنّا في كل مكان حضرت إليه، كنتُ محاطاً بالحفاوة، ومحطّ اهتمام خاص. لقد ساد صمت بين أشخاص ممن سمعوا بخسارتي، لذلك لم يكن لدي أي خيار سوى الالتزام بالمقابل بصمت مهيب ومتأمل خاص بي الأمر الذي انتشلني بسرعة كبيرة. بدأت هذه البوادر بالظهور، في المقبرة، إن لم يكن من قبل. بنظرة بتعاطف حدقوا نحوي داخل فتحة القبر، وكم كانوا لطيفين عندما التقطوا ذراعي بحزم في مراسم الدفن، كأنني قد كنتُ في خطر السقوط في حالة إغماء وقذف نفسي بتهور داخل الحفرة. حتى فكرتُ باكتشافي لشيء يستحق التأمل في الدفء الذي عانقتني به بعض النساء، والطريقة الحميمية التي أمسكن بها يدي، وهن يحدقن داخل عيني ويهززن رؤوسهن في مواساة صامتة، بتلك التعابير اللينة التي تتظاهر بها ممثلات التراجيدية القديمات في المشهد الختامي بعد ترنح البطل المكلوم على خشبة المسرح وجثة البطلة بين يديه. شعرت أنه ينبغي التوقف وإمساك يدٍ وإخبار هؤلاء الناس أني لا أستحق تبجيلهم؛ لأن التبجيل مشابه لما كانوا يشعرون به، حيث كنتُ مجرد ممثل ثانوي عابر، بينما كانت آنّا تحتضر. في أثناء الغداء أصرت بون على مخاطبتي بنبرة تنم من اهتمام حار، ورهبة صامتة، وفي محاولة قدر المستطاع ألا أعدل أي نبرة صوت كردة فعل لم تتسم بالشجاعة وعفة النفس. الآنسة فافسور، كما رأيت، كانت تشعر بكل هذا الزخم المقلق على نحو متزايد، وقامت بمحاولات متكررة لتعزيز أجواء أقل توترًا، وأكثر مرحًا على الطاولة، دون أن توفق

بذلك. لم يكن الكولونيل مسانداً لها، على الرغم من محاولته، اقتحام استرسال بون في الحديث عن توقعات الطقس وقصص من الجرائد اليومية، غير أنها صدته كل الوقت. ببساطة لم يشعر بالتناغم مع بون. مُظهِرًا أطقم أسنانه الباهتة في عرض بغيض للابتسامات والتكشيرات، اتخذ هيئة ضبع يتمايل ويتلوى قبل التقدم المتهور من فرس النهر.

تعيش بون في المدينة، في شقة فوق متجر، في ظروف، أطلعتني عليها بالتفصيل، كانت أدنى منها بكثير، كابنة للطبقة الأرستقراطية التي تنتمي لها. إنها تذكرني بواحدة من هؤلاء العذراوات الرقيقات من عصر مضى، الراهبات الخادمات، على سبيل المثال، لرجل دين أعزب أو إقطاعي أرمل. بينما كانت مسترسلة بالثرثرة تخيلتها في ملابس سوداء، وجزمة بأزرار جالسة على درجات من الجرانيت أمام باب خلفي واسع وسط مجموعة متدرجة من خادمات المنازل ذوات العيون الحولاء؛ تخيلتها، كندٍّ للثعالب، في الجاكيت القرمزي التقليدي الخاص بصيادي الثعالب وقبعة مع وشاح، منفرجة الساقين عن خلفية مترهلة لحصان أسود كبير ومتأهب؛ أو هناك حيث كانت في مطبخ ضخم بطاولة ممتدة واسعة ونظيفة وفخذ خنزير متدل، ولتنفذَّ التعليمات تقطع السيدة جروب المسنة والوفية اللحم عليها لتقديمه في العشاء السنوي للاحتفال بعيد الفصح المجيد الثاني عشر. وأنا أشتت نفسي بهذه التخيلات البريئة لم ألحظ تطور المناوشة بينها وبين الآنسة فافسور إلى أن أصبحت واضحة إلى حد بعيد، ولم يكن لدي أيّة فكرة كيف بدأت أو عما كانت تدور. كانت البقعتان الكامدتان كعادتهما فوق عظمتي خدي الآنسة فافسور متوهجتين بشدة، بينما جلست بون، التي بدت وكأنها تنتفخ لحجم أكبر نتيجة تأثيرات داخلية لانفعالها المتزايد، وهي تنظر إلى صديقتها فوق الطاولة بابتسامة ساذجة ثابتة، وأنفاسها الصادرة تنتشر بلهاث قصير وسريع. كانتا تتكلمان بأسلوب سوقي،

تنظران لبعضهما البعض أشبه بثنائي غير متكافئ من أحصنة السباق. حقًّا، فقد أخفقت في إدراك كيف يمكنك قول...هل علي أن أفهم بأنكِ....؟ القضية لا تتمثل بأنني..... القضية هي في أنك لم..... جيدًا....، هي فقط..... بكل تأكيد لم تكن..... اعذريني، إنها بالتأكيد!

نظر الكولونيل، بانزعاج متزايد، من إحداهما نحو الأخرى والعودة مرة أخرى، تنقلت عيناه من جهة إلى جهة في تجويفهما، كما لو كان يشاهد مباراة تنس بدأت بطريقة ودية تمامًا لكنها أصبحت فجأة عنيفة للغاية.

اعتقدتُ أن الآنسة فافسور ستخرج منتصرة بسهولة من هذه المشاحنة، لكنها لم تفعل. فهي لم تقاتل بقوة العتاد الكاملة الذي أجزم أنها تمتلكها. تمكنتُ من فهم الأمر الذي كان يشدها للخلف، والذي أدركته بون جيدًا واستندت إليه بكل ثقلها الاعتباري، وتحقيقًا لمنفعتها منه. رغم انغماسهما في جدال حار أنساهما وجود الكولونيل ووجودي، فإن الخلاصة التي اتضحت تدريجيًا أن انخراطهما في هذا العراك كان إلى حد ما لجذبي، وإقناعي، ولمحاولة استمالتي لطرف دون الآخر. أقول هذا من طريقة بون المحترمة في النظر نحوي بعينيها السوداوين الصغيرتين والمتلهفتين، بينما أحجمت الآنسة فافسور عن النظر اتجاهي ولو لمرة واحدة. كانت بون، كما بدأت أراها، أكثر مكراً ودهاء مما اعتقدت في البداية. يميل المرء للظن أن البدينين أغبياء بلا شك. ومع ذلك استطاعتْ هذه المرأة البدينة أن تفهمني، وفي قناعتي فقد رأتني بوضوح كما كنتُ على حقيقتي. وما الذي رأته؟ لم يشغلني في حياتي أن يعقد قراني على زوجة ثرية، أو ثرية نسبياً. ولدت لأكون هاوٍ للفن، كل ما كان ينقصني هي الوسائل، حتى التقيت آنّا. دونما اكتراث مني بمصدر ثروة آنّا تحديداً، والتي كانت في الأصل لتشارلي فايس وأصبحت الآن لي، ولا بكم ونوع الآليات الثقيلة التي كان على تشارلي شراؤها وبيعها لكسب المال. ما هو المال، في النهاية؟ شيء تافه تقريباً،

عندما يملك المرء ما يكفي منه. إذاً، لماذا كنتُ أتلعثم هكذا تحت تمحيص بون المبطن والجلي الذي لا سبيل لردعه.

لكن بالله عليك يا ماكس، بالله عليك. لن أنكر ذلك، في حين شعرت بالخجل من أصولي، وحتى الآن فإن نظرة فوقية أو كلمة متعالية صادرة من أمثال بون كافية لتشعرني بالاستياء الداخلي والحقد الشديد. منذ البداية كنتُ عازماً على تطوير ذاتي. ما الذي كنت أريده من كلوي غريس سوى أن أرتقي لأصبح بالمستوى الاجتماعي المرموق لعائلتها، مهما كان الثمن؟ كان تسلق تلك الارتفاعات الشاهقة أمراً شاقاً. أثناء جلوسي هناك مع بون، تذكرت مع قشعريرة خفية عارمة غداء يوم أحد آخر في سيدارز، منذ نصف قرن تقريباً. من دعاني حينها؟ ليست كلوي بالتأكيد. ربما دعتني والدتها، عندما كنتُ معجباً بها وكان يسليها جلوسي بلسان معقود على مائدتها. كم كنتُ متوتراً، وخائفاً حقاً. كانت ثمة أشياء على المائدة لم أر مثلها من قبل، أباريق زجاجية غريبة الشكل، وصحون صينية على شكل قارب، وحامل فضة لسكين التقطيع، وشوكة تقطيع بمقبض عظمي وغطاء أمان يمكن سحبه في الخلف. عندما بدأ الطعام بالوصول كلٌّ بدوره، انتظرت لأرى أي أداة تقطيع سيرفعها الآخرون قبل أن أجرؤ على رفع الأداة خاصتي. أحدهم مرر لي وعاء من صلصة النعناع ولم أعرف ماذا أفعل به- صلصة النعناع! بين الفينة والفينة ومن الطرف الآخر للطاولة كان كارلو غريس، وهو يمضغ بحيوية، يلقي نحوي نظرة مرحة. أراد أن يعرف كيف كانت الحياة في الكوخ الخشبي. على ماذا كنا نطهو الطعام؟ قلتُ له: موقد بريموس. صاح: «بالفعل! موقد البريموس الأول في الصدارة!». وكما ضحك، وضحك ميلز بالمثل، وحتى روز حركت شفتيها، إلا أن لا أحد سواه فهم معنى تلك الكلمات، أنا متيقن من ذلك، وقد تجهمت كلوي، ليس لسخريتهم إنما لبؤسي.

لم تتمكن آنّا من التعاطف مع حساسيتي في هذه الأمور؛ إذ كانت تنتمي لفئة لا طبقية. في اعتقادها كانت والدتي تتمتع بلطف ورهبة؛ أي أنها صارمة وغير متسامحة، لكنها رغم ذلك كله كانت لطيفة في تعاملها. ما من داع لقول أن أمي لم ترد بالمثل على هذه التقدير البالغ. لم تلتقيا سوى مرتين أو ثلاث مرات، وعلى نحو مأساوي. دعوني أعترف- أمي لم تحضر حفلة الزفاف- فأنا لم أقم بدعوتها للحضور- وتوفيت بعد ذلك ليس بكثير، تقريباً في نفس الوقت الذي توفي به تشارلي فايس. قالت آنّا: «كأنهما أطلقا سراحنا، هما الاثنين معاً». لم أشاطرها هذا التفسير المتملق، لكن بلا تعليق. في يوم من الأيام في دار الرعاية، بدأتْ فجأة بالتحدث عن أمي، بلا أي سبب واضح محفز لذلك؛ في النهاية يعود الأشخاص من الماضي البعيد للمطالبة بحقوقهم. كان ذلك في صباح يوم بعد عاصفة، وكل ما هو خارج النافذة الركنية بدا مضطرباً وقلقاً، الحديقة الهائجة المكتظة بالأوراق المتساقطة والأشجار المتراقصة، أشبه بسكارى مصابين بدوار ما بعد الشرب. كان آنّا ترتدي بطاقة بلاستيكية في إحدى معصميها وفي الآخر أداة صغيرة تشبه ساعة اليد مزودة بزر يقوم بإطلاق جرعة ثابتة من المورفين داخل مجرى الدم الملوث مسبقاً. في المرة الأولى التي عدنا فيها إلى الديار في زيارة- الديار: كلمة تمنحني دفعاً، ثم أتعثر- بالكاد تحدثت أمي إليها. كانت أمي تسكن في شقة بجوار الترعة، عبارة عن مكان منخفض ومعتم تفوح منه رائحة قطط صاحبة المنزل. جلبنا لها هدية من السجائر المهربة مع زجاجة نبيذ أحمر، قبلتها بامتعاض. قالت: إنها تأملت منا ألا نتوقع منها استضافتنا. بقينا في فندق رخيص قريب كان ماء الاستحمام بنيّ اللون وقد سُرقت حقيبة آنّا. اصطحبنا أمي إلى حديقة الحيوان. ضحكتْ على قرود البابون، بخباثة، موحيةً لنا بشخص ما ذكروها به، الذي هو أنا بالطبع. كان أحدهم يستمني، بملامح فاترة غريبة، وهو ينظر خلف كتفه.

«شيء مقرف» قالت أمي باستخفاف وانصرفت.

تناولنا الشاي في المقهى الموجود في المنطقة، حيث اختلط صراخ الفيلة بصخب المحتشدين في يوم عطلتهم. كانت أمي تدخن السجائر المهربة، وبتباه تطفئ كل واحدة منها بعد ثلاث أو أربع نفثات، مبديةً ما كانت تفكر به حيال محاولاتي لاسترضائها.

«لماذا تصر على مناداتك ماكس؟» همست لي عندما ذهبت آنّا إلى طاولة البيع لإحضار كعكة من أجلها. «ماكس ليس اسمك».

قلت: «إنه كذلك الآن، ألم تقرأي الأشياء التي أرسلتها لك، الأشياء التي كتبت عليها اسمي؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

هزت إحدى كتفيها الضخمين.

«اعتقدتُ أنها أُرسلت من شخص آخر».

استطاعت إظهار غضبها فحسب من طريقة جلوسها، تنحرف جانباً على الكرسي، مستندة للخلف بصلابة، ويداها مقبوضتان فوق حقيبة يد في حضنها، وقبعتها التي على شكل بريوش مع قطعة صغيرة من شبكة سوداء حول القمة، تميل فوق خصلات شعرها الرمادي الأشعث. كان ثمة زغب رمادي صغير على ذقنها أيضاً. نظرت بازدراء حولها. قالت: «أظنك راغباً في تركي هنا في هذا المكان، ووضعي مع القرود وجعلهم يقومون بإطعامي الموز».

عادت آنّا بالكعكة الصغيرة المدورة. نظرت أمي نحوها باشمئزاز.

قالت: «لا أريدها، أنا لم أطلب ذلك الشيء».

قلتُ: «أمي، لا تقولي هذا أمي».

لكنها بكتْ ونحن نغادر، متقهقرة نحو الخلف لتختبئ خلف الباب المفتوح للشقة، رافعةً ساعدها لتخفي عينيها، أشبه بطفلة، تشتاط

غضباً. ماتت في ذلك الشتاء، وهي جالسة على مقعد بالقرب من الترعة بعد ظهيرة يوم معتدل في منتصف الأسبوع كان على غير عادته في مثل ذلك الوقت من العام. ماتت بالذبحة الصدرية، ولم يعلم أحد بذلك. كانت طيور الحمام لاتزال منشغلة بالقشور التي نثرتْها على الطريق عندما جلس المتشرد بجانبها وعرض عليها جرعة من زجاجته في الكيس الورقي بني اللون، دون أن يلاحظ أنها فارقت الحياة.

قالت آنّا: «إنه لشيء غريب، أن تكون هنا، هكذا، ثم لا تكون».

تنهدتْ، ونظرت خارجاً إلى الأشجار. فتنتْها تلك الأشجار، كم تمنت الخروج والوقوف بينها، لتنصت لهبوب الرياح فوق أغصانها. لكن لن يكون مسموحاً لها بالخروج مجدداً. تابعت: «وغريب أن تبقى هنا».

شخص ما كان يخاطبني. إنها بون. كم مضى من الوقت وأنا سارحٌ، جائلٌ في أرجاء غرفة الرعب في رأسي؟ تناولنا وجبة الغداء ومن ثمَّ ودعتنا بون.عندما تبتسم يصبح وجهها الصغير أصغر، متجعداً ومنكمشاً حول القمة الدقيقة لأنفها. عبر النافذة تمكنتُ من رؤية السحب المتجمعة رغم الشمس الرطبة المنخفضة في الغرب التي تسطع بالفضي الباهت في سماء مخضرة تميل للون الكراث. للحظة استرجعتُ صورتي مرة ثانية، محدودب الظهر فوق الكرسي خاصتي، وقد ارتخت شفتي السفلى وردية اللون ويديّ الضخمتان تتمددان بلا حول ولا قوة أمامي على الطاولة، كائناً ضخماً، مقيداً، ومحقوناً بمخدر، وشبه يقظ. ثمة أوقات تحدث مراراً وتكراراً هذه الأيام، كأني لا أعرف أي شيء، وكأن كل شيء عرفته قد تداعى من ذهني أشبه بشلال مطر، وأنا منغمس بلحظة زمنية من الشعور بالفزع العاجز، بانتظار أن يعود كل ذلك لكن دونما أمل بعودته. كانت بون تستجمع أشياءها استعداداً لبذل الجهد لتحرير ساقيها القويتين من تحت الطاولة وتخليص نفسها لتقف على قدميها.

كانت قد نهضت الآنسة فافسور وحامت بجوار كتف صديقتها- التي كانت ككرة بولينج كبيرة جداً ومستديرة- متلهفةً لمغادرتها لكنها تحاول عدم إظهار ذلك. كان الكولونيل على الجانب الآخر من بون، متكئاً نحو الأمام بزاوية حرجة يؤدي حركات غامضة في الهواء بيديه، أشبه بحمّال ينقل قطعاً من الأثاث الثقيل والخطر تحديداً.

«حسناً» قالت بون، وهي تنقر بمفاصل أصابعها على الطاولة، وتنظر بابتهاج أولاً نحو الآنسة فافسور، ثم نحو الكولونيل، وقد خطا كلاهما ليقتربا منها أكثر، كما لو كانا بالفعل على وشك أن يضع كل منهما يده تحت كوعها لسحبها لتقف على قدميها.

اتجهنا للخارج نحو الضوء النحاسي للمساء في الخريف المتأخر. كانت الرياح القوية تجتاح ستيشن رود، ساحقة قمم الأشجار وناثرة أوراقها اليابسة في أرجاء السماء. نعقت الغربان بقسوة. فالعام على وشك الرحيل. لماذا أخمن أن شيئاً جديداً سيأتي ليحل محله، بخلاف كونه رقماً على التقويم؟ كانت سيارة بون، الحمراء الصغيرة الرشيقة، والبراقة كالدعسوقة، مركونة على الحصى داخل البوابة. كانت تلهث فوق مخمداتها بينما تحشر بون نفسها في مقعد القيادة، بدايةً أقحمت مؤخرتها الضخمة ثم رفعت ساقيها وتراجعت بتثاقل مصحوب بنخير فوق المقعد الذي نُجِدَ بجلد نمر مصنع. فتح الكولونيل البوابة لها ثم وقف في منتصف الطريق ملوحاً بذراعيه تلويحات دراماتيكية واسعة. انتشرت روائح دخان العادم، والبحر، والتعفن الخريفي للحديقة. محض خراب قصير. وبينما أقف هناك، لم أكن أفهم شيئاً، أنا القرد العجوز الذي لا يدرك شيئاً. أطلقت بون بوق السيارة بابتهاج ولوحت، ووجهها المقروص يبتسم لنا من خلال الزجاج، ولوحت الآنسة فافسور لها بالمثل، لكن بلا سرور، وانطلقت السيارة باتجاه الطريق على نحو غير متوازن فوق جسر سكة الحديد واختفت.

«إنها شخص مزعج»، قال الكولونيل، فاركاً بيديه ومتجهاً نحو الداخل.

تنهدت الآنسة فافسور.

لم نرغب بتناول طعام العشاء، بعد أن استمر الغداء طويلاً وكان مشحوناً للغاية.

كانت الآنسة فافسور لاتزال مهتاجة من تقاذف العبارات ذاك مع صديقتها. عندما تبعها الكولونيل إلى المطبخ، سعياً للحصول على شاي المساء على الأقل، كانت بغاية الحدة معه، ثم هرع مسرعًا إلى غرفته للتعقيب على مباراة كرة قدم المذاعة في الراديو. أنا أيضاً انسحبت إلى الردهة ومعي كتابي- جوليان بيل عن بونارد، الممل للغاية- إضافة إلى الماء- غير أني لم أستطع القراءة، ووضعت الكتاب جانباً. أقلقت زيارة بون حالة التوازن الدقيق لسكان المنزل، ساد نوع من الصخب الصامت في الجو، كما لو قُطع سلك الإنذار القوي المشدود ومع ذلك لايزال مصدراً لصوت اهتزاز. جلست في مشربية النافذة وراقبت أفول النهار. كانت الأشجار العارية على الجانب الآخر من الطريق قاتمة اللون قبالة التوهجات الأخيرة لشمس الغروب، والغربان في قطيع صاخب تحلق وتنخفض، تمهد لقدوم الليل على نحوٍ لافت. كنتُ أفكر بآنّا. أجبرت نفسي على التفكير بها، فأنا أفعل ذلك كتمرين. تستقر في داخلي كسكين ومع ذلك بدأت بنسيانها. صورتها التي كنت أحملها في رأسي بدأت تتلاشى، شذرات من الأصباغ، وقصاصات من الأوراق الذهبية الممزقة كلياً. هل ستصبح اللوحة القماشية فارغة تماماً ذات يوم؟ لقد أوشكت على إدراك كم كانت معرفتي لها متواضعة. أعني كم كانت سطحية، وهشة. أنا لا ألوم نفسي على هذا. ربما ينبغي أن أفعل. هل كنت بليداً للغاية، ومغفلًا للغاية، وأنانياً للغاية؟ نعم، كنت كل تلك الأشياء، ومع ذلك لا أظن أنها قضية تستحق اللوم، قضية هذا التغاضي، وهذا التجاهل.

بالأحرى، أظن أني توقعت الكثير، في الطريق للمعرفة. أنا أعرف القليل جدّاً عن نفسي، فكيف ينبغي أن أفكر بمعرفة شخص آخر؟

لكن مهلاً، لا، ليس الأمر على تلك الشاكلة. أنا كائن بارع- في التحول، كما تقولون عني، أجل أجل. الحقيقة، هي أننا لم نرغب بمعرفة بعضنا البعض. علاوة على ذلك، ماكنا نتمناه هو هذا بالضبط، ألا يعرف أحدنا الآخر. قلت في مكان ما سابقاً- لا وقت الآن للعودة والبحث عنه، وأنا مستغرق بمكابدة هذه الفكرة- أن ما وجدته في آنّا منذ البداية كان السبيل لتحقيق نزواتي. لم أعرف تماماً ما عنيته عندما قلت ذلك، وعلى نحو مفاجئ أجد نفسي أفكر به الآن قليلاً. أو أتعمده. اسمحوا لي بإثارة ذلك، فلدي متسع من الوقت، في أمسيات الأحد هذه التي لانهاية لها.

منذ الأيام الأولى أردتُ أن أصبح شخصاً آخر. كان للنصيحة التي تقول (*nosce te ipsum*)[46] (اعرف نفسك) طعم الرماد على لساني منذ المرة الأولى التي زجرني المعلم لأكررها وراءه. كنتُ أعرف نفسي جيداً، ولم يعجبني ما عرفته. مرة أخرى، لابد لي من التوضيح. ليس ماكنت عليه هو الشيء الذي لم يعجبني، أعني بذلك شخصيتي المتأصلة والمتفردة- رغم تسليمي أن فكرة وجود شخصية متأصلة ومتفردة هي فكرة إشكالية- إنما مالم يعجبني هو خليط المشاعر والميول، والأفكار الموروثة، والعادات الطبقية، التي منحتني إياه نشأتي وتربيتي بديلاً عن شخصيتي الحقيقية. أجل. لم أتمتع بشخصية قط، ليست على الهيئة التي يتمتع بها الآخرون، أو اعتقدتُ بأنهم يتمتعون بها. في حين كنتُ شخصاً واضحاً، أكبر أمنياته أن يكون غامضاً. أدركُ ما

46- مقولة من اليونانية القديمة من أقوال دلفي المراد بها (كن على دراية بنقاط قوتك وحدودك).

أعنيه. وآنّا، كما اكتشفت على الفور، كانت الوسيلة لتحولاتي. كانت المرآة الكاشفة التي استقام بها كل اعوجاجي. في أيامنا الأولى معاً، وبدافع من الشفقة بسبب محاولاتي المتلعثمة لفهم العالم الكبير، كانت تقول لي: «لم لا تكن نفسك؟»- فلتعبر عن نفسك، فلتكن بلا دراية- وتعني بكن نفسك، طبعاً، كن أي شخص تحبه. ذلك هو العهد الذي قطعناه، أن نخفف عن بعضنا البعض عبء أن نكون على الحال التي أرادها الآخرون لنا. أو على الأقل هي خففت عني هذا العبء، لكن ماذا فعلتُ بدوري من أجلها؟ ربما لا ينبغي أن أشملها في هذا السعي نحو اللا معرفة، ربما الجهل فقط ما كنتُ راغباً به.

السؤال الذي تبقّى لدي الآن هو بالضبط سؤال المعرفة. من نحن، إن لم نكن نحن أنفسنا؟ حسناً، دع آنّا جانباً. من كنتُ إن لم أكن أنا نفسي؟ يخبرنا الفلاسفة أن وجودنا وكينونتنا حُدِدت بوساطة الآخرين. هل تكون الوردة حمراء في الظلام؟ في غابة على كوكب بعيد حيث لا آذان لتسمع، هل تصدر شجرة صوتاً عند سقوطها؟ أسأل أسئلة سخيفة على غرار: من كان ليعرفني، إن لم تكن آنّا؟ من كان ليعرف آنّا، إن لم أكن أنا؟. كنا سعداء معاً، أو على الأقل لم نكن تعساء، وهذا أكثر ما يمكن لمعظم الناس تحقيقه؛ أليس هذا كافياً؟ كانت هناك معاناة، وضغوطات، كما لم يكن في أي شراكة كشراكتنا، إن كان هناك شراكة من هذا القبيل. الصراخ، والزعيق، الأطباق المرمية، والصفعة الغريبة، واللكمة الأغرب، كل ذلك كان لدينا. فيما بعد جاء سيرج وأمثاله، فضلاً عن الأشياء المتعلقة بعزيزي سيرج، فضلاً عنها. ولكن حتى في معاركنا الأكثر وحشية، كنا نلعب بعنف، مثل كلوي وميلز في مبارياتهما التصارعية. كانت تنتهي مشاجراتنا بالضحك، وبالقهقهة الساخرة، لكنها قهقهة على أية حال، قهقهات خجلى وحتى قليلة الخجل، الخجل ليس

من شراستنا، لكن من عدمها. كنا نتبارز لكي نشعر، وعلى نحو واقعي، كوننا المخلوقين اللذين صنعناهما. والذي أصبحت عليه.

هل كان بإمكاننا، وبإمكاني، أن نفعل شيئاً آخر؟ هل كان بإمكاني العيش على نحو مختلف؟ إنه استجواب بلا جدوى. بالطبع كان بإمكاني، لكني لم أفعل، وهنا تكمن سخافة السؤال. على أية حال، أين هي النماذج المثالية الحقيقية التي قد أقارن بها شخصيتي المفترضة؟ في تلك اللوحات الأخيرة التي رسمها بونارد لمارثا السبعينية، كان لايزال يتصورها كمراهقة التي كانت عندما قابلها أول مرة. لماذا ينبغي أن أطالب بصدق الرؤية لنفسي أكثر مما أطالب به فناناً عظيماً وتراجيدياً؟ لقد بذلنا قصارى جهدنا، أنا وآنّا. لقد سامحنا بعضنا البعض عن كل ما لم نكنه. ما الذي يمكن توقعه أكثر، في هذا الوادي من العذاب والدموع؟ لا تبدو قلقاً للغاية، قالت آنّا، لقد كرهتك أيضاً قليلاً، فنحن بشرٌ في النهاية. ومع ذلك، لا أستطيع التخلص من الاقتناع أنّ شيئاً ما فاتنا، وفاتني، لكن لا أعرف ما قد يكون.

أفكار مشوشة. كل الأشياء مختلطة. لماذا أعذب نفسي بهذه المواربات اللامفسّرة، ألم يكن لدي ما يكفي من المنطق؟ دع نفسك وشأنها يا ماكس، دع نفسك وشأنها.

دخلت الآنسة فافسور، كشبح متحرك في ظلال غرفة الشفق. سألتني إذا كنت أشعر بالدفء بما فيه الكفاية، وإذا كان ينبغي عليها أن تشعل الموقد. سألتها عن بون،

من هي، وكيف التقيتا، فقط من أجل الاستفسار عن شيء ما. استغرق الأمرُ وقتاً قبل أن تجيب، وعندما فعلتْ ذلك كان جواباً على سؤال لم أطرحه.

- «حسناً، كما ترى» قالت: «تملك عائلة فيفيان هذا المنزل».

- «فيفيان؟»

- «بون».

- «نعم».

انحنت على الموقد ورفعت باقة من نبات الكوبية الجافة عن المشبك، وهي تصدر صوت طقطقة.

قالت: «أو ربما هو ملكها الآن، لأن معظم أهلها فارقوا الحياة». قلتُ: إني تفاجأت، لاعتقادي أن المنزل كان ملكاً لها. قالت: «لا»، وهي عابسة في الزهور الهشة بين يديها، ثم نظرت عالياً، بنظرة شيطانية نوعاً ما، مظهرة الطرف الدقيق للسانها. «لكني تماشيت مع الأمر، إذا جاز التعبير».

سمعنا بصدى خافت قادم غرفة الكولونيل هتاف الجمهور وصرخات المعلق الحماسية؛ أحدهم قد صوب هدفاً. لابد وأنهم يلعبون في الظلام تقريباً في ذلك الوقت. الوقت الإضافي بدل الضائع.

قلتُ: «وأنت ألم تتزوجي قط؟».

ابتسمت ابتسامة خجلى عند ذلك، وأخفضت عينيها مرة ثانية.

قالتْ: «لا، أنا لم أتزوج قط». حدّقت نحوي سريعاً وعميقاً.

توهجت البقعتان الملونتان على عظمتي وجنتيها.

قالت: «كانت عائلة فيفيان صديقة لي. أي عائلة بون».

«حسناً». قلتُ مرة ثانية. وماذا عساي أن أقول؟

إنها تعزف على البيانو الآن. معزوفة براءة الطفولة لشومان. كمحاولة لإلهامي.

غريبة، أليست كذلك؟ الطريقة التي تستقر بها في الذهن، الأشياء التي لا تبدو ذات اعتبار؟ خلف سيدارز، حيث تلاقى ركن من المنزل بالمرج المتشابك، تحت أنبوب تصريف أسود مائل، كان هناك برميل ماء

كبير، اختفى بالطبع منذ زمن طويل. كان برميلاً خشبياً، متيناً وبالحجم الكامل، وقد اسودت أضلاعه مع تقدم الزمن وأكل الصدأ أطواقه الحديدية. كان الإطار مشطوفاً جيداً، وأملس للغاية حيث يصعب على المرء الشعور بوصلات الربط بين أضلاع البرميل؛ أي محفوفاً بنعومة، ومسطحاً، لكن في نسيج النهاية الرطبة النابتة بالقمح للخشب كان القليل من الفراء، أو الزغب، بالأحرى، أشبه بجراب من نبات البردي، لكنه أكثر خشونة، وبرودة، ورطوبة. على الرغم من امتلائه بعدد من الجالونات لا أعرف عددها إلا أنه كان ممتلئاً حتى الحافة، وذلك بفضل استمرار هطول الأمطار في هذه المناطق، حتى في الصيف. عندما نظرت في داخله بدا الماء أسود اللون وسميكاً كالزيت. وبسبب ميلان البرميل قليلاً، شكّل سطح الماء طبقة على هيئة قطع ناقص، ارتجفت عند أدنى حركة وتكسرت في تموجات هلع مضطربة عندما مر قطار عابر. كان لذلك الركن المهمل من الحديقة مناخ رطب خاص به، نتيجة لوجود برميل المطر. انتشرت الحشائش بكثرة هناك: نبات القريص، وأوراق الشجر، واللبلاب، وأشياء أخرى لا أعرف اسمها، وكان لضوء النهار صبغة خضراء، ولاسيما في الصباح. وكان الماء في البرميل، كونه ماء مطر، عذباً أو عسراً، ولذلك كان يعدُّ مفيدًا للشعر أو فروة الرأس أو شيء ما، لست أعرفه. وقد حدث أن صادفت في صباح أحد الأيام المشمسة الساطعة السيدة غريس وهي تساعد روز في غسيل شعرها.

الذاكرة تكره الحركة. وتفضل إبقاء الأشياء ساكنة، وكما هو الحال مع العديد من هذه المشاهد التي أتذكرها أرى هذا المشهد كلوحة زيتية على قماش. حيث تقف روز منحنية نحو الأمام من خصرها ويداها على ركبتيها، وشعرها يتدلى من وجهها كأسفين أسود طويل ولامع يقطر برغوة الصابون. إنها حافية القدمين، أرى أصابعها في العشب الطويل، وهي ترتدي إحدى تلك البلوزات البيضاء المصنوعة

من الكتان ذات الأكمام القصيرة التي كانت شائعة في ذلك الوقت، والتي تكون فضفاضة عند الخصر وضيقة عند الكتفين ومطرزة على الصدر بنمط من التطريز باللونين الأحمر والأزرق البروسي. ياقة العنق محفورة بعمق وبوساطتها أخذت لمحة واضحة عن ثدييها المتدليين، الصغيرين والنافرين، أشبه بنهايتين مشغولتين لكرتي غزل. ترتدي السيدة غريس رداء حمام أزرق من الساتان ونعلين من الأزرق الفاتح، لتجلب انطباعا يتنافى مع الجو العام في الخارج. شعرها مرفوع وراء أذنيها بمشبكين على شكل صدفتين، أو دبوسي شعر، كما كان يطلق عليهما باعتقادي. من الواضح أنها لم تغادر السرير لمدة طويلة، وكان لوجهها في ضوء الصباح مظهرًا بريئاً ونقياً ومصقولاً. إنها تقف في نفس وضعية الخادمة فيرمير مع إبريق الحليب، رأسها وكتفها الأيسر مائلان، إحدى يديها مقعرة تحت التدلي الثقيل لشعر روز والأخرى تصب تياراً غزيراً من الماء الفضي من إبريق مطلي بالمينا. الماء الذي يسقط على رأس روز يصنع بقعة عارية تهتز وتنزلق، أشبه ببقعة من ضوء القمر فوق أكمام المهرج بييروت[47]. تطلق روز صرخات احتجاج- «أوه، أوه، أوه»- عندما يصطم الماء البارد بفروة رأسها.

يا لروزي المسكينة. لا أستطيع أبداً ذكر اسمها دون إلحاق هذا اللقب به. كانت في التاسعة عشر أو العشرين على الأكثر. طويلة إلى حد ما، ونحيلة على نحو ملحوظ، ودقيقة عند الخصر وعريضة عند الورك. كانت تتمتع بنعومة متجهمة من جبينها المسطح وحتى قدميها النظيفتين بأصابعهما المتباعدة قليلاً. أفترض أن شخصاً ما لديه الرغبة في أن يكون قاسياً- كلوي، على سبيل المثال- التي قد أصف ملامحها بالحادة. كان

47- المهرج شخصية كوميدية من التمثيل الإيمائي الفرنسي القديم عادة ما يكون لها وجه أبيض وترتدي ملابس بيضاء فضفاضة.

أنفها، يتميز بخياشيم فرعونية، على شكل دمعة، بارزاً عند الجسر، والجلد فوقه مشدوداً وشفافاً فوق العظم. به انحراف نحو اليسار، لذلك عندما ينظر المرء إليها مباشرة سيتشكل لديه انطباع أنه يرى وجهها كاملاً في لقطة جانبية، كما في إحدى تلك اللوحات المعقدة لبيكاسو. هذا العيب، عدا أنه جعلها بملامح غير متناسقة، لكنه زاد من عمق التعبير في ملامح وجهها. في وقت الاسترخاء، عندما لم تكن على دراية أنها تتعرض للترصد- وكم كنتُ جاسوساً وضيعاً!- كانت تميل رأسها على نحوٍ حاد نحو الأسفل، عيناها مظللتان وذقنها المشقوقة مدسوسة بين كتفيها. ثم تبدو وكأنها مادونا دوتشيو حزينة، ومنزوية وفي حالة نكران للذات، تائهة في حلم مظلم بكل ما سيأتي، بكل تلك الأشياء التي لم تأتِ.

هي من الشخصيات الثلاثة المحورية في تلك اللوحة الصيفية الباهتة ثلاثية الأبعاد، والتي تحتفظ على نحو غريب، بمعالم أكثر وضوحاً على جدران ذاكرتي. أعتقد أن سبب ذلك يعود لأول شخصيتين في المشهد، أعني كلوي ووالدتها، اللتين ينصب عليهما اهتمامي، بينما روز كانت مبهمة من ناحية أخرى. أواصل الاقتراب منهما، الفتاة والسيدة من آل غريس، ها هي الأم، وها هي البنت، أطبق لمسات لونية هنا، وأتلاعب في التفاصيل هناك، والنتيجة من كل ذلك العمل الدقيق هو أن تركيزي عليهما يفتقر للوضوح أكثر من الدقة، حتى عندما أقف مجدداً لأقيّم صنيعة يديّ. لكن لروز صورة مكتملة، مطابقة لها. هذا لا يعني أنها أكثر واقعية، أو أكثر أهمية بالنسبة لي من كلوي أو أمها، بالتأكيد لا، فقط بإمكاني تخيلها بأقصى سرعة. ليس لأنها لاتزال هنا، بشخصيتها الموجودة التي تغيرت للغاية حتى أصبح من الصعب التعرف إليها. أراها في حذائها الرياضي وسروالها الأسود الشفاف وقميص بلون قرمزي- رغم أنها تقتني ملابس أخرى بلا شك،

لكن هذا ما ترتديه في كل ذكرى من ذكرياتي عنها- ماثلة بين أشياء لا أهمية لها، الدعامات الاعتباطية لفن الرسام، ستارة باهتة، قبعة قش مغبرة مع زهرة على الإطار، ربما هذا الجزء من الجدار المغطى بالطحالب مصنوع من الورق المقوى، وفي إحدى الزوايا هناك باب ذو لون داكن حيث وعلى نحو غامض، تضفي الظلال القاتمة لضوء الفراغ توهجاً ذهبياً ناصعاً. لم يكن حضورها طاغياً بالنسبة لي قياساً بكلوي أو السيدة غريس، مع ذلك كان هنالك ما يميزها، بشعرها الأسود الفاحم ذاك وتلك البشرة البيضاء الناعمة متوردة الخدين التي عجزت على ما يبدو أشعة الشمس القوية ونسيم البحر القاسي عن تشويهها.

حسب فرضيتي، كان بالإمكان في الزمن القديم، أعني الزمن الذي يسبق تلك الأيام التي أتحدث عنها، أن يطلق عليها لقب المربية. مربية، مع ذلك، تمتعت بضروب من القوة المتواضعة، لكن روزي المسكينة كانت بلا حول ولا قوة أمام التوأم والوالدين المهملين. بالنسبة لكلوي وميلز كانت هي الخصم الجلي، والهدف لنكاتهما الجارح، موضوع استياء وسخرية لانهاية لهما. لقد انتهجا طريقتين للتعامل معها. كانا إما غير مباليين، إلى الحد الذي قد لا تكون مرئية بالنسبة لهما، أو كانا يخضعان كل شيء قالته وفعلته، مهما كانت تافهاً، لتدقيق واستجواب لا هوادة فيهما. عندما كانت تجوب المنزل كانا يلاحقانها، ويتزاحمان عند عقبيها، يراقبان عن كثب كل تصرفاتها- وضع الأطباق، واختيار الكتب، محاولتها عدم النظر لنفسها في المرآة- وكأن ما كانت تفعله هو السلوك الأكثر غرابة وعدم القابلية للتفسير الذي شهداه في حياتهما. كانت تتجاهلهما قدر تحملها ولكنها تثور عليهما في النهاية، تهتاج وترتجف، تتوسل برجاء لتركها وشأنها، محتفظة بصوتها هامساً خشية أن يسمعها الوالدان وهي تفقد أعصابها. كان هذا فحسب رد الفعل الذي أراده التوأم، بالطبع، وسوف

يضغطان عليها أكثر ويحدقان في وجهها باستفزاز مع التظاهر بالتعجب، وكلوي ستمطر عليها وابلاً من الأسئلة- ماذا كانت تحمل في الطبق؟ هل ذلك كتاب جيد؟ لماذا لا ترغب بالنظر لنفسها في المرآة؟- إلى أن تتدفق الدموع في عينيها وتلوي فمها في حزن وغضب عاجز، ثم يهرب كلاهما بابتهاج، ويضحكان كالشياطين.

لقد اكتشفتُ سر روز بعد ظهر يوم السبت عندما جئت إلى سيدارز لاستدعاء كلوي. عندما وصلتْ كانت تستعد للصعود إلى السيارة مع والدها على وشك المغادرة إلى البلدة. توقفتُ عند البوابة. كنا قد اتفقنا على الذهاب لنلعب التنس- هل يمكن أن تكون قد نسيت؟ طبعاً يمكنها. كنتُ محبطاً للغاية؛ أن يُتخلَى عني بهذه الطريقة بعد ظهر يوم السبت هذا الأمر لا يمكن تحمله بسهولة. رأى ميلز، الذي كان يفتح البوابة لوالده للمرور، خيبتي وابتسم ابتسامة عريضة، أشبه بضحكة العفريت الخبيث الذي كانه. حدق السيد غريس نحوي من خلف الزجاج الأمامي ومال برأسه نحو كلوي وقال شيئاً، وكان يبتسم بالمثل. في ذلك الحين، بدا النهار بحد ذاته، بنسيمه وسطوعه، باعثاً لمرح ساخر وبهجة عارمة. داس السيد غريس على دواسة الوقود بقوة، وانطلقت السيارة فوق الحصى بصوت عالٍ من مؤخرتها لذلك ينبغي عليّ الابتعاد سريعاً من طريقها- رغم أن والدي والسيد غريس لا يتشاركان بشيء آخر، إلا أن لديهما حس الفكاهة ذاته- ثم عبر النافذة الجانبية، وبملامحها المبهمة خلف الزجاج، نظرت كلوي نحوي بتعبير عن دهشة متجهمة، كأنها في تلك اللحظة فقط لمحتني أقف هناك، وذلك لأسباب كنت أعرفها. لوحتُ بيدي، مع كثير من لامبالاة أمكنني التظاهر بها، ثم ابتسمتْ ابتسامة مصطنعة بحزن زائف، ورفعت كتفيها حتى مستوى أذنيها على نحوٍ مبالغ به كأنها تعتذر. تباطأت السيارة ليصعد ميلز واقتربت بفمها نحو النافذة وتفوهت بشيء ما، ورفعت ذراعها اليسرى

بحركة غريبة، ربما كان نوعاً من الامتنان، وماذا بوسعي أن أفعل سوى التبسم وهز الكتفين أيضاً، ثم لوحت مجدداً، بينما كانت ترحل للبعيد في دوامة من دخان العادم، مع رأس ميلز المقطوع كما يبدو في النافذة الخلفية، وهو يتأملني بشماتة.

كان للمنزل جانب مهجور. اجتزت الباب الأمامي وتوغلت حيث يشير الصف المائل من الأشجار إلى نهاية الحديقة. في الخلف كان خط السكة الحديدية المبلط بالحصى الأزرق الفاتح المتناثر والذي تنبعث منه رائحة الرماد والغازات السامة. الأشجار التي نمت بالقرب من بعضها البعض، كانت نحيلة ومشوهة، فأغصانها العالية تلوح بارتباك أشبه بأذرع مرفوعة نحو الأعلى في حالة فوضى عارمة. ماهي فصيلتها؟ ليست بلوطاً- نخيلاً ربما. قبل أن أدرك ما كنت أفعله، تسلقت الشجرة الوسطى. هذا ليس من طبعي، لستُ جريئاً أو مغامراً، وليس لدي، ولم يكن لدي رغبة في التسلق. لكنني تسلقت عالياً، أعلى وأعلى، باليد ومشط القدم، بمشط القدم واليد، ومن غصن إلى غصن. كان التسلق سلساً مبهجاً، رغم هسهسة أوراق الشجر في احتجاج صاخب حولي والأغصان تصفع وجهي، وسرعان ما كنت قريباً من القمة بقدر ما كان الوصول إليها ممكناً. هنالك تشبثت، بلا خوف كأي بحار يمتطي الصارية، وكان سطح الأرض يتدحرج رويدا تحتي، بينما في الأعلى، بدت السماء المنخفضة اللؤلؤية الباهتة قريبة بما يكفي للمسها. عند هذا الارتفاع، كان النسيم عبارة عن تدفق متواصل لهواء بارد، لرائحة الأشياء البرية، ورائحة الأرض، والدخان والحيوانات. استطعت رؤية أسطح المدينة في الأفق، وأبعد منها وأعلى، أشبه بسراب، سفينة فضية صغيرة رست بلا حراك على رقعة من البحر الشاحب. حط طائر على غصين وحدق بي بدهشة ثم طار بعيداً مرة ثانية على وجه السرعة بتغريدة مجروحة. كنتُ قد نسيت حينئذ أسلوب كلوي في التناسي،

وكنتُ مبتهجاً للغاية ومترعاً بمرح جنوني على هذا الارتفاع والبعد عن كل شيء حتى أني لم ألاحظ روز في الأسفل حتى سمعتها تبكي.

كانت تقف تحت الشجرة المجاورة لتلك التي كنتُ جاثماً فيها، حنت كتفيها وضغطت مرفقيها على خاصرتيها كأنها تحاول البقاء بوضعية مستقيمة. أمسكت أصابعها المضطربة بمنديل مطوي، لكنها بمظهر رومانسي، كانت تندب هناك وسط أجواء من التشكي من مدة ما بعد الظهيرة، فظننتُ بداية أنها بلا شك رسالة حب مجعدة وليست منديلاً كانت تحمله. كم بدت غريبة، اختزلت بشكل أسطواني غير منتظم بكتفين ورأس- وكان الفاصل في شعرها بنفس اللون العاجي كما لون المنديل المبلل الذي حملته- وعندما التفتت على عجل عند سماعها لصوت خطوات خلفها، اهتزت لمدة وجيزة أشبه بدمية خشبية نجحت الكرة في توجيه ضربة خاطفة لها. كانت السيدة غريس تقترب على طول المسار الممهد في العشب تحت حبل الغسيل، ورأسها منحني وذراعاها مطويتان بشكل صليب فوق ثديين مسطحين وكل يد تعانق كتفاً. كانت حافية القدمين، ترتدي سروالاً قصيراً، وإحدى قمصان زوجها البيضاء الذي كان واسعاً جداً بشكل يبرز جمالها. توقفت قليلاً بعيدًا عن روز وانتصبت صامتة للحظة، تلتفت من جانب إلى جانب في ربع استدارة حول نفسها، ويداها لا تزالان فوق كتفيها، كأنها مثل روز وهي تعانق نفسها، نفسها الطفولية التي كانت تهزها بين ذراعيها.

قالت بنبرة مرحة: «أوه، روز، ما الأمر؟».

روز، التي أدارت وجهها بصرامة نحو الحقول البعيدة مرة أخرى، أطلقت صوت نخير صامت كتعبير عن عدم السرور. «ما الذي يحدث؟» صرخت، وصوتها يرتفع عند العبارة الأخيرة ويكرر نفسه. «ما الذي يحدث؟»

نفخت أنفها بسخط على حافة المنديل المطوي وانتهت بحركة تنفس سريعة.

حتى من هذه الزاوية كان بوسعي رؤية السيدة غريس وهي تبتسم وتعض على شفتيها. خلفي من بعيد جاء صوت صفير مرتفع. كان قطار بعد الظهيرة القادم من البلدة، بمحرك أسود مطفأ ونصف دزينة من العربات الخشبية الخضراء يتقدم نحونا بطريقة طائشة في الحقول أشبه بلعبة كبيرة مجنونة، وهو ينفث حلقات سميكة من الدخان الأبيض الكثيف. تقدمت السيدة غريس للأمام دون صوت ولمست بطرف إصبعها مرفق روز لكن روز انتزعت ذراعها كما لو كانت اللمسة لاذعة للغاية. هبت الرياح فألصقت القميص على جسد السيدة غريس وأظهرت بدقة الخطوط العريضة لنهديها. «حسناً، روزي»، تملقت مرة أخرى، وهذه المرة تمكنت من دس يدها داخل ثنية ذراع الفتاة مع محاولات لجذبها بلطف لجعلها تستدير، رغماً عنها وحالاً انطلقتِ الاثنتان معاً تحت الأشجار. سارت روز بتلكؤ، تتحدث وتتحدث، بينما أبقت السيدة غريس رأسها منخفضاً كما كان وبدت كأنها لم تكن تتحدث تقريباً ؛ من خلال شكل كتفيها وجرها المرتخي لمشيتها توقعت أنها كانت تقمع ضحكة ملحة. من زوبعة العبارات المرتعشة لروز التطقتُ كلمات (حب، حماقة، السيد غريس)، ومن ردود السيدة غريس عليها صراخها فقط بكلمة كارلو؟ متبوعاً بشهقة عدم تصديق. فجأة وصل القطار هناك، جاعلاً جذع الشجرة يهتز بين ركبتي؛ عندما مر القطار نظرت داخل المقصورة ورأيت بوضوح بياض عين ينظر نحوي تحت جبين لامع ملطخ بالدخان. عدما استدرت مجدداً نحوهما كانت الاثنتان قد توقفتا عن السير وانتصبتا وجهاً لوجه في العشب الطويل، السيدة غريس مبتسمة ويدها مرفوعة على كتف روز، وروز بأنفها الوردي تحفر داخل عينيها الدامعتين

ببراجم أصابع يديها الاثنتين، ثم انفجرت سحابة مذهلة من دخان القطار نحو وجهي بعنف وعندما انقشعت وجدت أنهما قد استدارتا وكانتا تقطعان الطريق عائدتين إلى المنزل.

إذاً هكذا الأمر. كانت روز قد هامت في حب والد الأطفال الذين ترعاهم. هذه القصة قديمة، على الرغم من أنني لا أعرف كيف هي قديمة بالنسبة لي، وأنا الذي كنت صغيراً جدًا. بماذا كنت أفكر، وبماذا شعرت؟ أتذكر بوضوح أكبر المنديل المطوي بين يدي روز والعروق الزرقاء من أوردة الدوالي البسيطة على مؤخرة ساقي السيدة غريس العاريتين والقويتين. والمحرك البخاري بالطبع، الذي أتى ليقف مضطرباً في المحطة، وتوقف على الفور وهو يغلي ويلهث ويطلق نفاثات من الماء الساخن من أجزائه السفلية المعقدة بينما كان ينتظر بفارغ الصبر للانطلاق مرة أخرى. ما هي الكائنات الحية، مقارنة بقوة الأشياء المجردة؟

عندما ذهبت روز والسيدة غريس، ترجلتُ عن الشجرة، وهو أمر أكثر صعوبة مما كان عليه التسلق للأعلى، واجتزت بهدوء المنزل الصامت والغامض وقطعتُ ستيشن رود في الضوء الرمادي الحاد من بعد ظهيرة فارغة. غادر القطار المحطة، وفي هذه اللحظة كان قد وصل لمكان آخر، مكان آخر تماماً.

بطبيعة الحال لم أفوت أي وقت لإخبار كلوي باكتشافي. لم تكن ردة فعلها كما توقعت على الإطلاق. حقيقةً، بدت مصدومة أولاً، لكنها سرعان ما تظاهرت بالتشكك، وحتى أبدت انزعاجها، أعني انزعاجها مني؛ لأنني أخبرتها. كان هذا مقلقاً. فقد عولت على تلقيها لروايتي للمشهد تحت الأشجار بهذر مرح، والذي بدوره سيمنحني الضمان للتعامل مع الأمر على أنه مزحة، بدلاً من اضطراري لرؤيته بنظرة أكثر جدية وكآبة. نظرة سوداوية، تخيلها كذلك. لكن لماذا مزحة؟ ألأن

السخرية، بالنسبة لليافعين، قوة محايدة، ومخاوف تم ترويضها؟ روز، رغم عمرها الذي يبلغ ضعفي أعمارنا تقريباً، كانت لاتزال على هذا الجانب من الهوة التي تفصلنا عن عالم البالغين الكبار. كان من السيئ كفاية أن نضطر إلى التفكير بهم، الكبار الحقيقيين، في مرحهم الخفي، لكن احتمالية أن تقوم روز باللهو مع رجل بعمر كارلو غريس- بذلك الكرش، وتلك العانة المنتفخة- وذلك الصدر المكسو بالشعر بخصله الرمادية- كان صعباً جدّاً لنقبله مع إحساس دقيق، وقاس، كما كان إحساسي. لو أنها اعترفت بحبها للسيد غريس؟ هل كان سيرد بالمثل؟ الصورة التي لمعت أمامي لروز الشاحبة مستلقية في حضنه الخشن الشهواني أثارتني وأزعجتني بالمثل. وماذا عن السيدة غريس؟ كيف بهدوء تلقت اعتراف روز الصريح، وبخفة، ومرح أيضاً. لماذا لم تقم بتمزيق عيني الفتاة بمخالبها القرمزية اللامعة؟

وهكذا كان العشاق هناك بشحمهما ولحمهما. كم تعجبت من الاستسهال، والوقاحة المتملقة، اللتين أخفيا بهما كل ما يجري بينهما. حينها بدت اللامبالاة الشديدة لكارلو غريس مؤشراً عن نية إجرامية. من سوى رجل غدّار بلا قلب يضحك على ذلك النحو، ويستهزئ، ويبرز ذقنه ويهرش سريعاً في لحيته المشوبة بالشعر الرمادي أسفلها ليصدر صوتاً خشناً؟ حقيقة أنه في العلن لم يمنح روز اهتماماً أكثر مما منحه لأي شخص عابر كانت مجرد إشارة مسبقة على حيلته ومهارة خداعه. كان يكفي لروز أن تسلمه جريدته، وكان يكفي أن يتسلمها منها، ليبدو في عيني اليقظة بشدة أن لقاء سرياً ومشبوهاً قد حدث بينهما. بالنسبة لي، كانت تصرفاتها اللطيفة والخجولة في حضوره تصرفات راهبة فاسقة، آنذاك بعد أن عرفتُ بسرها المخزي، حيث طافت الصور في أعمق أعماق مخيلتي لشكلها الشاحب وقد اتحدت به في اقتران جنسي جلف وبليد، وسمعت خواره المكتوم وأنينها الصامت في المتعة المظلمة.

ما الذي دفعها للاعتراف، وإلى زوجة حبيبها؟ وبماذا كانت تفكر روزي البائسة، في المرة الأولى التي وقعت عينها فوق الشعار الذي رسمه ميلز بالطباشير على أعمدة البوابة وعلى ممر المشارة خارج البوابة- RV تعشق CG- والرسم البدائي لجذع أنثى، ودائرتين مع نقاط في الوسط، ومنحنين لخاصرة، وتحته، زوج من الأقواس يحتجزان شقّاً عمودياً قصيراً؟ لابد وأنها احمرت خجلاً، أوه، لابد وأنها احترقت خجلاً. اعتقدتْ أنها كلوي، وليس أنا، من اكتشفها بطريقة ما. الشيء الغريب، رغم ذلك، تجرؤ كلوي على روز لم يكن لصالحها، أو هكذا بدا لي. كان لنظرة المربية لمعان جديد وصلابة أكبر، عندما وقعت على الفتاة حينها، والفتاة، لدهشتي وحيرتي ظهرت خائفة تحت تأثير تلك النظرة كما لم تكن من قبل. عندما أفكر بهما هكذا، تألق الأولى، وخزي الثانية، لا يسعني إلا أن أخمن أن ما حدث في يوم المد الغريب كان إلى حد ما نتيجة لفضيحة العشق السري لروز. بعد كل ذلك، لم ينبغي أن أكون أقل تأثرا بالميلودراما القادمة؟ هل تتطلب الحكاية لمسة إغلاق أنيقة؟

اجتاح المد الشاطئ وصولاً لسفح الكثبان الرملية، وكأن البحر قد طغى على حدوده. بصمت كنا نراقب تقدم المياه المتواصل، ونحن الثلاثة جالسون في صف واحد، كلوي وميلز وأنا، ظهورنا مستندة على الألواح المهترئة المتقشرة لكوخ الجنائني المهجور المجاور لنقطة الانطلاق الأولى لملعب الجولف. كنا نسبح لكننا توقفنا، لشعورنا بعدم الارتياح بسبب هذا المد الساكن الذي لا يمكن إيقافه، وطريقته الشريرة الهادئة في التقدم. كانت السماء ضبابية بيضاء في كل مكان، مع قرص شمس مسطح ذهبي شاحب عالق بلا حراك في وسطها. انقضت النوارس، وهي تنعق. كان الهواء ساكناً. مع ذلك أتذكر بوضوح كيف تنمو الأنصال الفردية لعشبة المرام وسط دوامة من الرمال بنصف دائرة أنيقة أمام نفسها، مما يشير إلى أن الرياح

كانت عاصفة، أو نسيماً على الأقل. ربما كان ذلك يوماً آخر، اليوم الذي لاحظت فيه أن العشب قد ترك علامة كتلك على الرمل. كانت كلوي في ملابس سباحتها، مع سترة بيضاء ملقاة على كتفيها. كانت شعرها رطباً داكناً ملتصقاً بجمجمتها. في ذلك الضوء الغائم الخالي من الظل بدا وجهها عديم الملامح، وهي وميلز بجانبها كانا متشابهين كصورتين على زوج من العملات المعدنية. إلى الأدنى منا في حفرة داخل الكثبان الرملية استلقت روز على ظهرها ومنشفة السباحة خلف رأسها وبدت أنها تغط في النوم. حافة البحر المتسخة كانت على بعد ياردة من كعبها. تأملتها كلوي، مبتسمة في قرار نفسها. وقالت: «ربما ستنجرف بعيداً».

إنه ميلز من فتح باب الكوخ، وقام بالتلاعب على القفل حتى كُسر المزلاج من مساميره واستقر بيده. في الداخل، كانت ثمة غرفة وحيدة وصغيرة، فارغة تفوح منها رائحة كريهة من البول القديم. وُضِع مقعد خشبي على طول أحد الجدران، وفوقه كانت ثمة نافذة صغيرة، إطارها سليم لكن زجاجها اختفى منذ مدة طويلة. ركعت كلوي على المقعد ووجهها على النافذة ومرفقيها على حافتها. جلست بدوري بجانبها وميلز جلس على الجانب الآخر. لماذا أفكر أن طابعاً مصرياً كان حاضرًا في الوضعية التي اتخذناها هناك، كلوي راكعة وهي تنظر نحو الخارج، وميلز وأنا فوق المقعد الطويل قبالة الغرفة الصغيرة؟ ألأنني بصدد تأليف كتاب عن الأموات؟ لقد كانت بمنزلة أبي الهول ونحن كهنتها الجالسين. ساد الصمت، ماعدا نعيق النوارس.

«كم أتمنى أن تغرق»، قالت كلوي، متحدثة عبر النافذة، وأطلقت واحدة من ضحكاتها الصغيرة الحادة. «أتمنى أن تموت»- نعم نعم- «أنا أكرهها».

الكلمات الأخيرة. كان ذلك في الصباح الباكر، قبل الفجر مباشرة، عندما استعادت آنّا وعيها. لا يمكنني القول فعلاً إذا كنت مستيقظاً أو مجرد حلم كنت أحلم به. كانت تلك الليالي التي قضيتها ممدداً في الكرسي بجوار سريرها مزدحمة بالهلوسة المضجرة الغريبة، نصف الأحلام عن إعداد وجبات الطعام لها، أو التحدث عنها لأشخاص لم أرهم من قبل، أو مجرد المشي معها، في شوارع معتمة فوق الوصف، أنا أمشي، هكذا، وهي مستلقية في غيبوبة بجانبي ومع ذلك تستطيع التحرك ومواءمتي، بطريقة ما، منسابة في الهواء الطلق، في رحلتها نحو حقول القصب.

استيقظتْ حالاً، واستدارت برأسها على الوسادة الرطبة ونظرت نحوي بعينين واسعتين في الضوء الليلي المستغرق بتعبير عن استغراب كبير وحذر. أعتقد أنها لم تعرفني. تملكني ذلك الإحساس بالشلل، شيء من الرهبة وشيء من الذعر، ذلك الإحساس الذي ينتاب المرء في مواجهة فردية مفاجئة وغير متوقعة مع كائن من البراري. كان بوسعي الشعور بقلبي ينبض نبضاً بطيئاً ومتناغماً، كما لو أنه يقفز فوق سلسلة لانهاية لها من الحواجز المتماثلة. سعلت آنّا، وأصدرتْ صوتاً يشبه قعقعة العظام. أدركتُ أنها النهاية. شعرت أني غير مستعد لهذه اللحظة، وأردت الصراخ طلباً للمساعدة. أيتها الممرضة، تعالي بسرعة، زوجتي تغادرني!. لم أستطع التفكير، بدا ذهني مليئاً بمبنى يتهاوى. مازالت آنّا تحدق بي، مازالت متعجبة، مازالت مرتابة. بعيداً في الممر أوقع شخص غير مرئي شيئاً ما وأحدث صليلاً، لقد سمعتِ الضجيج وبدت مطمئنة. ربما فكرتْ أنه الشيء الذي أشرتُ إليه، وظننتُ أنها استوعبت ذلك، لأنها أومأت برأسها، لكن بشق النفس، كأنها تقول: لا، أنت مخطئ، ليس الأمر كذلك على الإطلاق! مدت يدها وثبتتها كالمخالب على معصمي. تلك القبضة الشقية، مازالت تمسك بي حتى الآن. تقدمتُ متعثراً نحو الأمام من الكرسي بشيء من الذعر وركعت

على ركبتي بجانب السرير، أشبه بمؤمن مذهول راكع أمام معبوده. مازالت آنّا تمسك بمعصمي. وضعتُ يدي الأخرى على جبينها، وبدا كأنني قادر على الإحساس بعقلها خلف سعيه المحموم، لبذل جهده الأخير والكبير للتفكير بفكرته النهائية. هل نظرتُ إليها في حياتي، بمثل هذا الاهتمام الملح، كما نظرت إليها آنذاك؟ كما لو أن مجرد النظرة ستبقيها هنا، كأنها لن تتمكن من الذهاب بعيداً

في حين عيني لم تحجم عن النظر نحوها. كانت تلهث، بهدوء وبطء، كعداء يتوقف مؤقتاً ومازال أمامه أميال ليقطعها. كانت أنفاسها تفوح برائحة كريهة خفيفة وجافة كرائحة زهور ذابلة. نطقتُ اسمها لكنها أغلقت عينيها هنيهة فحسب، باستخفاف، كما لو أنه يجب عليّ الإدراك أنها لم تعد آنّا، ولم تعد أي شخص آخر، ثم فتحتهما وحدقت بوجهي مرة أخرى، بصلابة أكثر من ذي قبل، لم تخالطها الدهشة حينها لكن بصرامة قسرية، على أمل أن أسمع، أسمع وأفهم، ما كان عليها أن تقوله. تركت معصمي وخربشت بأصابعها فوق السرير هنيهة، بحثاً عن شيء ما. تناولتُ يدها. شعرت برفرفة النبض في قاعدة إبهامها. قلتُ شيئاً ما، شيئاً سخيفاً بعض الشيء على غرار لا تذهبي، أو ابقي معي، لكنها للمرة الثانية هزت رأسها تلك الهزة المتبرمة، وسحبت يدي بقوة لتقربني إليها أكثر. «إنهم يوقفون الساعات»، قالت بهمس سري بسيط. «وأنا أوقفتُ الزمن». ثم أومأت برأسها، إيماءة تنم عن معرفة واتزان، وابتسمت، أيضاً، أقسم إنها كانت تبتسم.

كانت الطريقة الماهرة والفظة التي تخلصت بها كلوي من سترتها الصوفية هي التي دفعتني، وسمحت لي، بوضع يدي على مؤخرة فخذها حيث ركعت بجانبي. كان جلدها بارداً ومرقطاً كجلد الإوز لكني شعرت بالدم الحار المحتشد تحت سطحه مباشرة. لم تتجاوب مع لمساتي لكنها واصلت النظر إلى ما كانت تنظر إليه- كل تلك المياه، ربما،

ذلك المد البطيء الكاسح- ثم باحتراس انزلقت يدي نحو الأعلى حتى لامست أصابعي الحافة المشدودة لثوب سباحتها. وشاحها الصوفي، الذي استقر في حضني، انزلق حينها وسقط على الأرض، مما أوحى لي لأفكر بشيء ما، رذاذ عطري يتهاطل، أو ربما، طائر يتهادى. كان يكفيني مجرد البقاء جالساً هناك ويدي تحت مؤخرتها، قلبي يخفق بنبضات متناغمة وعيني ثابتتان على الثقب في الجدار الخشبي المقابل، لو أنها لم تقم بدفع ركبتها في حركة تشنجية صغيرة على نحو جانبي على امتداد المقعد وتفتح حجرها لأصابعي المذهولة. كان قد تشبع الفرج المحشور لثوب سباحتها بماء البحر مما أشعرني بالحرق عند ملامستي له. لم يمض الكثير حتى وجدت أصابعي هناك ثم أغلقت فخذيها مرة أخرى، محاصرة يدي. سرت ارتعاشات أشبه بتيارات كهربائية صغيرة من جميع أنحاء جسدها وصبت في حجرها، وبتلوٍ حررت نفسها مني، وظننت أن كل شيء قد انتهى، لكني كنت مخطئاً. استدارت بسرعة ونزلت بركبتيها ومرفقيها عن المقعد الطويل وجلست بجانبي بارتباك ثم لفّتْ وجهها نحوي وعرضت شفتيها الباردتين وثغرها الحار لأقبلها. كانت أربطة بدلة السباحة مثبتة بعقدة أنشوطية عند مؤخرة عنقها، حينها ودون أن تبعد فمها عن فمي رفعت يدها للخلف وفكت العقدة وسحبت صدرية ثوب السباحة المبلل نزولا حتى خصرها. وأنا أواصل تقبيلها، انحرفتُ برأسي جانباً ونظرتُ بالعين التي كان بوسعها رؤية خلف أذنها نزولاً إلى حواف عمودها الفقري وحتى بدايات وركها النحيل والشق هناك بلون سكين فولاذي نظيف. بإيماءة نافذة الصبر تناولتْ يدي وضغطتها على رابية نامية بالكاد لأحد ثدييها والذي كانت حلمته باردة وقاسية. على جانبها الآخر، جلس ميلز وساقاه متباعدان وطليقان أمامه، مستنداً برأسه إلى الوراء على الجدار وعيناه مغلقتان. مغمضة العينين مدت كلوي يدها جانباً ووجدت يده

موضوعة على المقعد وكفّ يده مفتوحاً نحو الأعلى، وبينما كانت تفعل ذلك كان فمها مشدوداً على فمي وشعرت بالأنين الخافت المحبوس الذي تصاعد في حنجرتها بدلاً من سماعه.

لم أسمع الباب يُفتح، فقط لاحظتُ تبدل الضوء في الغرفة الصغيرة. كلوي تيبست قبالتي ولفّتْ رأسها بسرعة وقالت شيئاً ما، كلمة لم أتمكن من استيعابها. كانت روز واقفة عند الباب. بثوب سباحتها لكنها ترتدي حذاءها الأسود، الأمر الذي جعل ساقيها الطويلتين الشاحبتين والنحيفتين تبدوان أكثر طولاً وشحوباً ونحافةً. ذكرتني بشيء ما، لم أتمكن من تخمين ما يكون، يد على الباب والأخرى على عضادة الباب، لتبدو محتجزة هناك بين عصفتين قويتين، إحداهما من داخل الكوخ متجهة نحوها والأخرى من الخارج تضغط على ظهرها. رفعت كلوي بسرعة صدرية ثوب سباحتها وربطت مرة أخرى الأنشوطة وراء عنقها، هاذرةً بتلك الكلمة مرة ثانية بعنف تحت أنفاسها، الكلمة التي لم أتمكن من فهمها- هل كانت اسم روز، أم مجرد بعض الشتائم والسباب؟ ثم قفزت عن المقعد، سريعة كالثعلب، وانحنت تحت ذراع روز وخرجت من الباب بعيداً. «عودي إلى هنا، يا فتاة» صاحت روز بصوت متصدع. «فقط عودي إلى هنا على الفور» ثم رمقتني بنظرة حينها، نظرة أسف أكثر منها نظرة غضب، وهزت رأسها، واستدارت وهرولت أشبه باللقلق بتلك الأرجل البيضاء الطويلة. أصدر ميلز ضحكة كتومة، وهو مازال مسترخ على المقعد بجانبي. حدقتُ به، بدا لي أنه يتكلم.

كل ما تلا ذلك أراه في منمنمة، في هيئة تميمة، أو في إحدى تلك المناظر المقربة، المرئية من الأعلى، بعيداً عن مركز الحدث الدرامي الذي كان الرسامون القدامى يختزلونه بهذه التفاصيل الدقيقة التي بالكاد يمكن ملاحظتها وسط المساحات الزرقاء والذهبية للبحر والسماء. لقد تلكأتُ هنيهة على المقعد الطويل، أستعيد أنفاسي. كان

ميلز يراقبني، بانتظار أن يرى ما سأفعله. عندما خرجتُ من الكوخ، كانت روز وكلوي في الأسفل عند بقعة الرمل الصغيرة نصف الدائرية الواقعة بين الكثبان وحافة المياه، تتواجهان بشجاعة وتصرخان بوجه بعضهما البعض. لم أتمكن من سماع ما تقولانه. في هذه اللحظة تهرّبت كلوي وحفرت في غضب حلقة محكمة الإغلاق حول نفسها، وهي تقلب الرمال. لقد ركلتْ منشفة روز. هو من وحي خيالي فقط، أعلم ذلك، لكني أرى الأمواج الصغيرة تتلوى من الجوع عند كعبيها. في نهاية المطاف، بصرخة أخيرة وبحركة غريبة متقطعة بيدها وساعدها، استدارتْ وسارتْ حتى حافة الأمواج بمشية المقص، وسقطت على الرمال ثم جلست وركبتاها تضغطان على صدرها وذراعاها تحيطان بهما، ووجهها مرفوع نحو الأفق. وقفت روز غاضبة عند ظهرها ويداها على وركيها، لكن هي تدرك أنها لن تحصل على أي رد التفتت بعيداً وبدأت بتجميع أغراضها بغضب، منشفة مرمية، وكتاب، وقبعة استحمام في ثنية ذراعها أشبه بصيادة سمك تقذف السمك في سلة خوص. سمعتُ ميلز خلفي، وبعد ثانية تجاوزني في عدو سريع متهور، كأنه تعلّق بعجلة عوضاً عن الركض. عندما وصل إلى المكان الذي كانت تجلس فيه كلوي جلس بجانبها ووضع ذراعه على امتداد كتفيها وألقى رأسه عليها. توقفتْ روز للحظة ورمقتهما بنظرة غامضة، وهما ملتفان معاً هناك، وقد أدارا ظهريهما للعالم. بعد ذلك وقفا بهدوء وخاضا في البحر، في الماء السلس كالزيت الذي بالكاد تكسر حولهما، ثم انحنيا نحو الأمام في تآلفٍ تام وسبحا عميقاً ببطء، تمايل رأساهما فوق التموج الأبيض، عميقاً، عميقاً.

قمنا بمراقبتهما، روز وأنا، حيث كانت روز تحتضن أشياءها التي جمعتها، وأنا حيث كنتُ واقفاً فحسب. لا أعرف بماذا كنت أفكر، لا أتذكر أني كنت أفكر بأي شيء. هنالك أوقات لا تتكرر كثيراً كتلك

الأوقات، عندما يفرغ الذهن تماماً. في ذلك الحين صارا بعيدين، بعيدين جدّاً حتى استحالا لنقطتين باهتتين بين سماء باهتة وبحر باهت أكثر، ومن ثم اختفت إحدى تلك النقطتين. بعد ذلك انتهى الأمر برمته في غاية السرعة، أعني ما كان بالإمكان رؤيته من كل ما حدث. قطعة صغيرة من البحر، المياه الواضحة قليلاً، والأكثر وضوحاً من كل ما حولها، ثم لا شيء، نهاية لامبالية للعالم.

هنالك علا صراخ، فالتفتنا روز وأنا لنرى رجلاً كبير الحجم بوجه أحمر وشعر رمادي مقصوص يترجل عن الكثبان الرملية نحونا، مهرولاً عبر الرمال المنزلقة بتهور هزلي. كان يرتدي قميصاً أصفر وسروالاً كاكي اللون وحذاء بلونين وكان يلوح بمضرب الجولف. لعل الأحذية من تخيلي. مع ذلك أنا على يقين أن القفاز الذي ارتداه بيده اليمنى، التي أمسك بها عصا الجولف؛ كان من البني الفاتح، بلا أصابع، بسطح علوي مفتوح بالثقوب، لا أعرف لماذا لفت انتباهي على نحو خاص. واصل الصراخ لاستدعاء أحدهم للذهاب إلى الحرس. بدا غاضباً للغاية، ملوحاً في الهواء بالهراوة كمحارب الزولو وهو يهز مقبض هراوته. ماذا عن محاربي الزولو، ومقابض الهراوات؟ لعلي أعني الرمح. إبان ذلك، وقف مساعده على الضفة، قزم قصير هزيل ويافع يرتدي سترة تويد بأزرار علوية وقبعة تويد، يتأمل المشهد أمامه بتعبير تهكمي، متكئاً جانباً على حقيبة الجولف بكاحليه المتصالبين. ثم ظهر شاب مفتول العضلات في سروال سباحة ضيق أزرق اللون، لا أعرف من أين جاء، بدا وكأنه خلق من الهواء ذاته، وبلا تمهيد غاص في البحر وسبح بعيداً بضربات قوية ومتقنة. عندئذ كانت روز تسير ذهاباً وإياباً عند حافة المياه، ثلاث خطوات في هذا الاتجاه، وتقف، ثم ثلاث خطوات في الاتجاه الآخر، وتقف، أشبه بأريادن المجنونة البائسة على شاطئ ناكوس، وهي لاتزال تعانق المنشفة والكتاب وقبعة الاستحمام. بعد

زمن عاد المنقذ وتوجه نحونا خارج المياه الساكنة بغطرسة السباح تلك، يهز رأسه ويشخر. كرر لا جدوى من الاستمرار. بكت روز عالياً، بنوع من النحيب، وهزت رأسها من جانب إلى آخر، فحدق بها لاعب الجولف. ثم بات الجميع خلفي يتناقصون؛ لأني كنت مسرعاً، محاولاً الهرولة، على طول الشاطئ في اتجاه ستيشن رود وسيدارز. لماذا لم أجتز مباشرة أرض ملعب الجولف، نحو الطريق، حيث سيكون التقدم أكثر سهولة؟ لكني لم أود أن يكون الوصول يسيراً. معظم الأحيان أعود في أحلامي إلى هناك مرة أخرى، أخوض في تلك الرمال التي تزداد مقاومة أكثر من ذي قبل، لذلك السبب تبدو قدميّ ذاتهما مصنوعتين من بعض الأشياء المسحوقة والمتهالكة.

بماذا شعرت؟ بقوة أكبر، على ما أعتقد، شعور بالرهبة، رهبة في داخلي، حيث صار معروفاً أن اثنين من الأحياء قد أصبحا الآن وفجأة في عداد الأموات. لكني هل صدقت أنهما فارقا الحياة؟ في ذهني كانا محتجزين في مساحة مشرقة واسعة، بشكل حقيقي، معقودي الذراعين وعينا كل منهما مفتوحتان على مصراعيها، تحدقان بجدية للأمام داخل أعماق لامتناهية من الضوء.

هنا أخيراً كانت البوابة الحديدية خضراء اللون، والسيارة الواقفة على الحصى، والباب الأمامي مفتوح على مصراعيه كعادته. في المنزل كل شيء كان هادئاً وساكناً. تنقلتُ بين الغرف كما لو أني أصبحتُ شيئاً من الهواء. روحاً منجرفة. وجدت السيدة غريس في غرفة المعيشة. التفتت نحوي، واضعةً يداً على فمها، والضوء اللبني للمساء خلف ظهرها. كل شيء ساده الصمت، ماعدا الغمغمة الصيفية الثقيلة في الخارج. حينئذ جاء كارلو غريس، قائلاً، «يا لها من كارثة، يبدو الأمر كأنه..» ثم قطع كلامه أيضاً، وهكذا وقفنا في صمت، نحن الثلاثة، في النهاية.

هل سارت الأمور على ما يرام؟

يسود هدوء تام على الليل، وكل الأشياء، كأن لا أحد هناك، ولا حتى أنا نفسي. لم أستطع سماع البحر، الذي كان يرعد ويزبد في ليال أخرى، تارة قريب ومزعج، وتارة بعيد وخافت. لا أود أن أصبح وحيداً هكذا. لِمَ لمْ تعاودي مطاردتي مرةً ثانية؟ هذا أقل ما قد أتوقعه منكِ. لم لانهاية لهذا الصمت يوماً بعد يوم، ليلة بعد ليلة؟ إنه كالضباب، صمتكِ هذا. في البدايةً كانت غشاوة في الأفق، توغلنا به فيما بعد، متلبدي الذهن متعثرين، نتشبث ببعضنا البعض. لقد بدأ في ذلك اليوم بعد زيارتنا للسيد تود عندما خرجنا من العيادة إلى موقف السيارات المهجور، حيث اصطفت كل تلك السيارات بعناية هناك، أنيقة كخنازير البحر دون أن تصدر صوتاً، ولا حتى إيماءة للمرأة الشابة وطقطقة لحذائها العالي. ثم اصطدم منزلنا بنوع خاص به من الصمت، وحالاً بعد ذلك الممرات الصامتة للمشافي، والأجنحة الساكنة، وغرف الانتظار، ثم الغرفة التي انتهى بها كل شيء. أعيدي شبحك. عاقبيني، إذا أحببتِ. هزي قيودكِ، جري كفنك على الأرض، اركعي كالنائحة، سيكون لدي شبح.

أين زجاجتي. أحتاج رضاعة طفلي الكبيرة. ومصاصتي.

ترمقني الآنسة فافسور بنظرة شفقة. ارتبكتُ تحت بريقها. هي تعرفُ الأسئلة التي أود طرحها، الأسئلة التي أتحرّقُ لطرحها عليها منذ جئتُ هنا أول مرة لكني لم أتجرأ أبداً. هذا الصباح عندما رأتني استحضر تلك الأسئلة بصمت مرة أخرى، هزت برأسها ليس بقسوة. قالت، مبتسمة: «لا يمكنني مساعدتك، لابد أنك تعرف ذلك». ماذا تعني بـ(لابد)؟ فأنا أعرف قليلاً جداً من أي شيء. نحن في الردهة، كنا جالسين عند النافذة الخلفية، كما في معظم الأوقات. النهار في الخارج كان مشرقاً وبارداً، أول يوم حقيقي من الشتاء الذي شهدناه. كل هذا

في الحاضر المؤرخ. ترتق الآنسة فافسور ما يبدو شبيهاً بواحد من جوارب الكولونيل. لديها أداة خشبية، اتخذت شكل فطر كبير، تمدُّ عليها كعب الجورب لترتق الثقب فيه. أجد مراقبتها منعشة وهي تؤدي هذه المهمة النبيلة. أنا بحاجة للراحة. قد يكون رأسي محشواً بالصوف القطني الرطب وفي فمي طعم حامضي لقيء لا يمكن التخلص منه بكل ما تقدمه الآنسة فافسور من شاي محلى وشرائح خبز رقيقة. هنالك أيضاً كدمة في جبهتي تنبض. أجلس قبالة الآنسة فافسور خجولاً ومكسور القلب. أشعر أكثر من أي وقت مضى أنني الفتى المذنب.

لكن يا له من يوم كان بالأمس، بليله، وسمائه! والصباح الذي تلاه. بدأ كل شيء بوعد لطيف كفايةً. من المفارقة، كما تبين، فإن ابنة الكولونيل هي من كان من المتوقع مجيئها، برفقة زوجها وأولادها. حاول الكولونيل أن يكون غير مبال، متملقاً بأسلوبه الفظ- «سنغزى بحق»- لكن طوال وجبة الإفطار كانت يداه ترتعشان حماساً حتى اهتزت الطاولة وقعقعت أكواب الشاي في صحونها. أصرت الآنسة فافسور على بقاء ابنته وعائلتها لتناول طعام الغداء، وستطهو دجاجاً، مستفسرةً عن نوع الآيس كريم الذي يفضله الأطفال. «أوه، حسناً»، ازداد الكولونيل ضجراً: «حقّاً، ليس هناك حاجة!» كان من الواضح رؤية تأثره الشديد، ودموعه تلمع في عينيه للحظة. تطلعتُ مع بعض الترقب لإلقاء نظرة في نهاية الأمر على هذه الابنة والرجل زوجها. استكشاف الأطفال كان مرعباً قليلاً، برغم ذلك؛ فأنا أخاف من الأطفال عامة، وأخشى أن يستنهضوا جيل دي رايس[48] غير المستتر تماماً في داخلي.

48- جيل دي رايس (1404- 1440) بارون ومارشال فرنسي، انتهت مسيرته المتميزة في محاكمة مشهورة بتهمة القتل واختطاف الأطفال.

كان من المقرر أن تحصل الزيارة في منتصف النهار، لكن جرس الظهير قرع، وحانت وانقضت ساعة الغداء، ولم تقف أية سيارة عند البوابة ولم تُسمع صيحاتُ ابتهاج للصغار. مشى الكولونيل ريحة وجيئة، قابضاً بيده على معصمه خلف ظهره، أو مرابطاً أمام النافذة، متجهاً نحو الأمام، ودافعاً طرف كمه ثم رافعاً ذراعه إلى مستوى نظره ومحدقاً بتأنيب في ساعته. الآنسة فافسور وأنا تجولنا في توتر شديد، دون أن نجرؤ على الكلام. بدت رائحة الدجاج المشوي ساخرة بلا شفقة. كان الوقت متأخراً بعد الظهر عندما رن الهاتف في الصالة، مما أشعرنا بالدهشة جميعاً. أدار الكولونيل أذنه إلى المتكلم أشبه بكاهن يائس في كرسي الاعتراف. كانت المحاورة قصيرة. حاولنا تجنب الإنصات لما يقوله. دخل المطبخ متنحنحاً. «السيارة» قال، دونما النظر لأحد. «لقد تعطلت السيارة». من الواضح أنه كان قد كذب علينا، أو أنه كان يكذب علينا حينها. التفتَ نحو الآنسة فافسور بابتسامة أسف. قال: «آسف بشأن الدجاجة»

لقد شجعتُه على الخروج لاحتساء مشروب معي لكنه رفض. قال: إنه يشعر بالقليل من التعب، ويعاني من صداع طفيف مفاجئ. صعد إلى غرفته. كم كان وقع خطواته ثقيلاً على الدرج، وكيف بهدوء أغلق باب غرفة النوم. قالت الآنسة فافسور: «لابأس، عزيزي».

ذهبتُ إلى حانة بيير هيد بمفردي وشربتُ كثيراً. لم أتعمد ذلك لكني فعلته. كانت إحدى تلك الأمسيات الخريفية متلاطمة الأمواج مصطبغة بأشعة الشمس المتأخرة التي بدت بحد ذاتها تذكرني بوهج ظهيرة يوم مضى عليه زمن طويل. خلّفتِ الأمطار السابقة بركاً صغيرةً على الطريق، كانت داكنةً أكثر من السماء، كما لو كان النهار الراحل يتلاشى فيها. اشتدت الرياح وتطايرت أطراف معطفي حول ساقي كأنهم صغاري، يتوسلون والدهم ألا يذهب إلى الحانة. لكني ذهبت.

حانة بيير هيد مكانٌ يفتقر للبهجة تصدّره جهاز تلفاز ضخم، مشابهٌ تماماً لجهاز الآنسة فافسور، مفتوح دائماً لكن بصوت منخفض. مدير الحانة رجل ضخم ورخو يتلكؤ ببعض كلمات. اسمه غريبٌ، ليس بوسعي تذكره في الوقت الحالي. احتسيتُ زجاجتي براندي. تتجسد لحظاتٌ غريبةٌ من المساء في ذاكرتي، واضحة على نحوٍ مشوش، أشبه بأعمدة الإنارة في الضباب. أتذكر المشاكسة أو تعرضي للمشاكسة في جدال مع شخص كبير في السن في الحانة، عندما اعترضني شخص أصغر سناً منه بكثير، ربما ابنه، أو حفيده، والذي دفعته وهددني باستدعاء الشرطة. عندما تدخل مدير الحانة- بارجراي، ذلك هو اسمه- حاولتُ دفعه أيضاً، مهاجماً إياه فوق عدادة النقود بصراخ مبحوح. حقّاً، هذا التصرف لا يشبهني على الإطلاق، لا أعرف ما الذي حدث، أعني غير ما يحدث لي عادة. أخيراً تمكنوا من تهدئتي ثم تراجعت محتدّا نحو طاولة في الركن، تحت جهاز التلفاز الصامت، حيث جلست أتمتم مع نفسي وأتنهد. كم هي شبيهة بالنحيب، تلك التنهيدات الثملة، الفياضة والمرتجفة. يمثل الضوء الأخير من المساء، الذي رأيته في الربع العلوي غير المطلي من نافذة الحانة، بلونه البني الأرجواني المهتاج ذاك والمؤثر والمثير للشجن أيضاً، اللون الخاص بالشتاء. لا يعني ذلك أني أتوجس أي شيء في قدوم الشتاء، الذي هو بالفعل فصلي المفضل، فضلاً على ذلك الخريف، ولكن هذا العام بدا توهج نوفمبر منذراً بشيء ما غير قدوم الشتاء، وأقحمني في مزاج من الكآبة المريرة. في محاولة للتخفيف من ثقل قلبي طلبت المزيد من البراندي لكن باراجري رفض ذلك، متعمداً، كما أعرف، وخرجت في حالة من السخط الغاضب، أو حاولت أن أثور لكني ترنحت حقاً، وعدت أدراجي إلى سيدارز مع زجاجتي، التي منحتُها باعتزاز رتبة العريف الصغير. على السلم التقيت بالكولونيل بلوندن وتحدثت معه قليلاً، لا أعرف حول ماذا بالضبط.

كان الليل قد حلّ حينها، ولكن بدلاً من البقاء في غرفتي والتوجه إلى السرير وضعت الزجاجة تحت معطفي وخرجت مرة أخرى. لم يبقَ مما حدث بعد ذلك سوى ومضات متفرقة وخافتة. أتذكر وقوفي في مهب الريح تحت السطوع المرتجف لضوء الشارع أترقب نزول وحيّ كوني وهائل بعض الشيء والذي فقدت الاهتمام به قبل أن يصل. ثم كنتُ على الشاطئ في الظلام، جالساً في الرمال مع ساقاي البارزتين أمامي وزجاجة البراندي مستلقية في حضني والتي فرغت حينها أو على وشك، وهي مستلقية. ها هي أضواء في عرض البحر، على مسافة بعيدة عن الشاطئ، تتمايل وتترنح، أشبه بأضواء لأسطول صيد سمك، لكنها بلا شك من مخيلتي، حيث لا قوارب للصيد في هذه المياه. كنت أشعر بالبرد رغم سماكة معطفي، التي لم تكفِ لحماية مؤخرتي من الرطوبة الباردة للرمال التي كنت جالساً فيها. مع ذلك، ليست الرطوبة والبرد، ما جعلني أكافح لأقف على قدمي في نهاية المطاف، إنما العزم على الاقتراب من تلك الأضواء والتحقق منها؛ ربما خطرت لي فكرة الخوض في البحر والسباحة بعيداً للوصول إليها. كان ذلك عند حافة الماء، حيث فقدت توازني ووقعت وارتطم صدغي بحجر. تمددتُ هناك مدة لا أعرف كم كانت، مرتعشاً وفاقداً للوعي، لا أقدر أو لا أرغب بالحركة. الشيء الجيد أن المد كان في حالة انحسار. لم أشعر بالألم، ولا حتى بالكثير من الاستياء. في الواقع، بدا وجودي منبطحاً هناك أمراً طبيعياً، في الظلام وتحت السماء الهائجة، أراقب الضوء الفوسفوري الخافت للأمواج وهي تنطلق نحو الأمام بفارغ الصبر لتتراجع مجدداً، كقطيع من الفئران الفضولية والجبانة، والعريف الصغير كان في حالة سكر مثلي، يتراجع للخلف والأمام على الحصى بصوت مزعج، مع هبوب مسموع للريح فوقي في دوامات وزوابع هوائية هائلة غير مرئية.

كنتُ بلا شك مستسلماً للنوم حينها، أو ربما فاقداً للوعي حتى؛ لأني لا أتذكر الكولونيل عندما عثر عليّ، رغم تأكيده أنه بادلني الحديث بعقلانية تامة، وسمحت له بمساعدتي وإرجاعي إلى سيدارز. حتماً هذا ما كان عليه الحال، أعني لابد أني كنتُ واعياً بصورة ما؛ لأنه لم يكن يتمتع بالقوة، بالتأكيد، لجعلي أقف على قدمي بلا مساعدة، فضلاً عن نقلي من الشاطئ إلى غرفة نومي، متدل على ظهره، ربما، أو سحبي من عقبيّ خلفه. لكن كيف اطلّع على مكان وجودي؟ يبدو أننا تحاورنا على السلالم، رغم أن الحوار ليست الكلمة المناسبة، بما أنني في نظره أخذتُ الجانب الأكبر من الحديث، فلقد توقفت مطولاً عند الحقيقة المعروفة تماماً، معروفة وحقيقية كما هي من وجهة نظري، وهي أن الغرق هو الموت الألطف، وعندما لم يسمع صوت عودتي حتى ساعة متأخرة من الليل، وخشية استرسالي حقّاً مع نفسي وأنا في حالة السكر، قرر العودة والبحث عني. لقد اضطر إلى استطلاع الشاطئ لمدة طويلة، وكان على وشك التراجع عن البحث عني، عندما انعكس بعض بريق من القمر أو من النجوم الأشد توهجاً فوقي، مستلقٍ هناك على هيئة سحلية ليتورال. وبعد كثير من التمعج ومرات من التوقف لإسهابي في العديد من الموضوعات، وصلنا سيدارز أخيراً، وساعدني على صعود السلالم حتى أوصلني ورآني في غرفتي. كما قلت، كلُّ هذه الأقاويل التي قلتها، عن ذلك الصعود المترنح، لا أتذكر أي شيء. لاحقاً سمعني في غرفتي، وأنا أتقيأ بضجيج عال- ليس على السجادة وإنما من نافذة تطل على الفناء الخلفي- وهذا ما يريحني- ثم وكما يبدو تهاويتُ متثاقلاً، ولذلك قرر بنفسه الدخول إلى غرفتي، وهناك اكتشفني للمرة الثانية في تلك الليلة، متهالكاً عند سفح السرير، فاقداً الوعي، وبحسب تقديره، كنتُ في حاجة ماسة للعناية الطبية.

استيقظتُ في ساعة مبكرة بعض الشيء من صباح مظلم هادئ على مشهد غريب ومربك تعاملتُ معه في البداية على أنه هلوسة. كان الكولونيل هناك، بزيه المعتاد من الصوف والقطن، لم يكن قد ذهب إلى سريره أبداً- يتجول في الغرفة بملامح حازمة، وكذلك، أكثر منه بكثير، كانت الآنسة فافسور، التي كما اتضح، قد سمعت، أو شعرت على الأرجح، استناداً إلى قعقعة أركان البيت القديم، بالضجيج الذي أحدثته وأنا أنهار بعد نوبة التقيؤ عند النافذة. كانت ترتدي زيها الياباني، وكان شعرها مجموعاً تحت مشبك الشعر كذلك الذي لم أره منذ كنت طفلاً. جلستْ على كرسي بعيد عني قليلاً، مستندة إلى الحائط ومائلةً قليلاً، بوضعية تشبه وضعية الأم ويسلر[49]، يداها مطويتان فوق حجرها ووجهها محنيّ، بحيث بدت تجاويف عينيها حفرتين من الاسوداد الغائر. كان المصباح، الذي ظننته شمعةً في البداية، متقداً على الطاولة أمامها، ينثر هالة باهتة من الضوء على المشهد، الذي يشتمل- دائرة مشعة على نحو خافت مع امرأة جالسة ورجل متجول- قد يكون لوحةً ليلية لجيريكولت[50] أو لدي لا تور[51]. وأنا مندهشٌ ويائسٌ من كل المحاولات لفهم ما حدث أو كيف جاء كلاهما إلى هنا، غلبني النوم مرة أخرى، أو فقدت الوعي مرة أخرى.

عندما استيقظت فيما بعد كانت الستائر مفتوحة وقد حلّ النهار. كان للغرفة مظهراً بسيطاً ومتواضعاً، وقد بدت الأشياء كلها شاحبةً وخاليةً من الملامح كوجه امرأة لم تتبرج في الصباح. في الخارج، امتدت سماء بيضاء موحشة بلا حراك، وبدت بارتفاع لم يتجاوز الياردة أو الاثنتين فوق سقف المنزل. على نحو مشوش عادت أحداث الليل

49- لوحة والدة ويسلر من أشهر أمال الفنان جيمس مكنيل (1834-1903).

50- تيودور جيريكولت رسام فرنسي (1791-1824).

51- جورج دي لاتور رسام ومصور فرنسي (1593- 1648).

لتتسلل بخجل إلى وعي المرتبك. حولي كانت أغطية السرير متناثرة ومكومة كالحال بعد ليلة مجون، وكانت هناك رائحة قوية للقيء. رفعتُ يدي فعبرتْ رأسي التماعةٌ من الألم عندما لمست أصابعي الانتفاخ المتورم على صدغي حيث ارتطم على الحجر.

فقط في تلك اللحظة، باندفاع جعل السرير يهتز، لاحظتُ الشاب الجالس على الكرسي خاصتي، مائلاً نحو الأمام وذراعاه مطويان على مكتبي، يقرأ كتاباً مفتوحاً أمامه على الوسادة الجلدية الخاصة بكتابتي. كان يرتدي نظارات بإطارات معدنية وله جبين مرتفع قليلاً وشعر خفيف بلا لون محدد. كانت ملابسه غير مميزة أيضاً، رغم أني كونت انطباعاً عاماً عن ملابسه السميكة. عندما سمع حركتي، رفع عينيه ببطء من الصفحة وأدار رأسه نحوي وحدق بي بهدوء تام، وابتسم أيضاً، رغم عدم وجود بهجة في ابتسامته، وسأل عما كنت أشعر به. أشعر بالحيرة- هذا هو التعبير المناسب- صارعتُ في السرير الذي بدا وكأنه يهتز تحتي كما لو كان الفراش مليئاً بسائل لزج وكثيف بعض الشيء، ورمقته بما نويتُ أن يكون نظرةً استفهاميةً ملحةً. ومع ذلك، استمر في مراقبتي بهدوء، دون ردة فعل. قال، «الطبيب»، بنبرة جعلته يبدو كأنه الطبيب الوحيد في العالم، قد زارني مؤخراً، بينما كنتُ في الخارج، في الخارج هذا ما قاله، فتساءلت بإلحاح للحظة إذا كنتُ قد نزلتُ إلى الشاطئ مرة أخرى، دون معرفة ذلك- وقد قال الطبيب: إنني على ما يبدو كنتُ أعاني من صدمات مضاعفة نتيجة لتسمم حاد ومؤقت بالكحول. على ما يبدو؟ على ما يبدو؟

قال: «كلير قادتنا إلى هنا، إنها نائمة الآن».

إنه جيروم، العاشق الذي لا ذقن له، الآن عرفته. كيف عاد أدراجه ثانية لمحاباة ابنتي؟ هل كان الشخص الوحيد الذي فكرت بالالتجاء

إليه في منتصف الليل، عندما كلمها الكولونيل أو الآنسة فافسور، أو أي منهما، لإخبارها بالورطات الأخيرة التي أقحم والدها نفسه بها؟ إذا كان الأمر كذلك، كما ظننت، ينبغي أن أكون مُلاماً، رغم عدم إدراكي للسبب تماماً. كم لعنت نفسي، وأنا ممدد هناك فوق ذلك السرير النهاري للكلب، منهكاً من السكر ودائخاً ومفتقراً للقوة لأقفز وأصرخ على رفيقها الوقح وأرميه خارجاً للمرة الثانية. لكن ما حدث هو الأسوأ. عندما خرج للتحقق إذا كانت كلير قد استيقظت أم لا، وعادت برفقته، شاحبة وبعينين بحواف حمراء وترتدي معطفاً واقٍ من المطر على فستانها الداخلي، أخبرتني على الفور، بملامح شخص يطلق النار على عجل ليكون قادراً على صدها على نحو أفضل، أنهما مخطوبان. للحظة، وأنا مرتبك كما كنت، لم أدرك ما كانت تعنيه- مخطوبة لمن، ومن هو؟- لحظة كانت كافية لهزيمتي. لم أتمكن من إثارة الموضوع مرة أخرى، وكل لحظة تمر تعزز تفوقها عليّ. هكذا، وفي طرفة عين، نفوز بتلك الأشياء ونفقدها. اقرأ أفكار مايستر[52] حول الحرب الإلهية.

ولم تتوقف عند ذلك الحد، بل، بعد أن غمرتها نشوة الانتصار الأولي، واستغلت الفرصة التي أتاحها لها عجزي المؤقت، واستمرت في التركيز، وهي تضع يدها بشكل رمزي على وركها؛ إذ ينبغي أن أحزم أمتعتي وأغادر سيدارز حالاً وأن أدعها ترافقني إلى المنزل- المنزل، كما تقول!- حيث ستعتني بي، العناية التي ستشتمل، على ما يبدو، منع جميع المنبهات الكحولية، والمهدئات، حتى يحدد الطبيب، نفسه مرة أخرى، أنني مؤهل لشيء ما، ألا وهي العودة إلى الحياة، كما أفترض. ما الذي عليّ فعله؟ كيف يمكنني المقاومة؟ تقول: إنه حان الوقت لأنكبّ

52- جوزيف دي مايستر محامي وفيلسوف فرنسي (1753-1821) كانت له أفكار حول الحرب والسلام.

على العمل على نحو جدّي. أخبرت خطيبها، على نحو لا يخلو من لمحة من فخر الأبناء: «إنه ينهي كتاباً كبيراً عن بونارد». لم تكن لدي شجاعة القلب لأخبرها بأن كتابي الكبير عن بونارد- يبدو هذا أشبه بشيء ما قد يدعو للخجل- لم ينجز فيه إلا نصف الفصل الأول ودفتر ملاحظات مملوءاً بالأفكار المشتقة والمفككة. لكن، ليس هذا مهماً. هناك أشياء أخرى بوسعي القيام بها. بوسعي الذهاب إلى باريس والرسم. أو لعلي انكفئ داخل دير، أقضي أيامي في التأمل الهادئ في اللانهائي، أو أكتب مؤلفاً عظيماً هناك، مجلداً عن الأموات، بوسعي رؤية نفسي في صومعتي، بلحية طويلة، مع قلم بريشة وقبعة ووحش مروض، وبوساطة النافذة التي بجانبي يمكنني رؤية القرويين الصغار في الرقعة الممتدة يجمعون القش، وتحوم فوق جبيني حمامة متألقة. نعم، فالحياة حافلة بالاحتمالات.

أتصورُ لن يسمحَ لي ببيع المنزل، أيضاً.

تقول الآنسة فافسور: ستفتقدني، لكنها تعتقد أنني أفعل الشيء الصحيح. أخبرتها، أن مغادرة سيدارز أمرٌ يشق علي فعله، فأنا مجبر على ذلك. تبتسم عند ذلك وتقول: «حسناً، يا ماكس، لا أعتقد أنك رجل يجبر على فعل أي شيء». ذلك ما استوقفني، ليس لثنائها على قوة إرادتي، ولكن الحقيقة، التي ألاحظها بصدمة خفيفة، أن هذه هي المرة الأولى التي نادتني بها باسمي. مع ذلك، لا أعتقد أن ذلك يتيح لي أن أناديها باسمها «روز». هناك مسافة رسمية محددة مطلوبة للحفاظ على العلاقة الطيبة التي تشكلت، وأعدنا تشكيلها، فيما بيننا طوال تلك الأسابيع المنصرمة. ومع هذه التلميحات للحميمية بيننا، تعود الأسئلة القديمة التي لم أطرحها مرة أخرى. فأنا أود أن أسألها إذا كانت تلوم نفسها عن وفاة كلوي- باعتقادي، ينبغي القول، لا دليل

على أن كلوي هي من نزلت أولاً، وأن ميلز لحقها ليحاول إنقاذها- أو إذا كانت على قناعة أن غرقهما معاً بهذه الطريقة كان حادثاً تماماً، أو شيئاً آخر. ربما كانت ستخبرني، إذا قمت بسؤالها. فهي ليست متحفظة. وقد تحدثت مراراً عن أفراد عائلة غريس، كارلو وكوني- «تدمرت حياتهما بالطبع»- وكيف توفيا، أيضاً، ليس بعد وقت طويل من فقدان التوأم. قضى كارلو أولاً، نتيجة لنزيف في الدماغ، ثم قضت كوني في حادث سيارة. سألت عن طبيعة الحادث، ورمقتني بنظرة. «لم تكن كوني من الصنف الذي يقتل نفسه»، تقول، مع التواء بسيط بشفتيها.

كانا طيبين معها فيما بعد، كما تقول، لم يكن هناك توبيخ أو تلميحات اتهام بخيانة الواجب. قاما بترتيب إقامتها في سيدارز، كانا يعرفان عائلة بون، وأقنعوهم باصطحابها لرعاية المنزل. «وها أنا هنا لاأزال»، تقول، مع ابتسامة بسيطة مريرة، «بعد كل هذه السنوات الطويلة».

يتجول الكولونيل في الطابق العلوي، يصدر بعض الضوضاء؛ أدرك أنه سعيد برحيلي. شكرته لتقديم العون لي الليلة الفائتة. قلتُ، وفجأة أدركتُ صحة ذلك على الأرجح: «لقد أنقذت حياتي بكل تأكيد». تبعها العديد من التنهيدات والتنظيرات بصوت عال- «لم أفعل شيئاً يا سيدي، لم أقم إلا بواجبي- وقام بضغط خفيف على ذراعي العلوي. حتى قدم لي هدية وداع، قلم حبر، ومحبرة من نوع البجعة، تبدو أنها أكبر منه، ولاتزال في صندوقها، في حشوة من المناديل الورقية الصفراء. وها أنا أكتب هذه الكلمات به، لديه حركة أنيقة، سلسة وسريعة مع بعض البقع البسيطة. أتساءل من أين حصل عليه؟ لم أعرف ماذا عليّ أن أقول. «لا داع لأي شيء» قال: «لم استخدمه مطلقاً، ينبغي أن تأخذه من أجل كتاباتك، وما إلى ذلك». ثم انصرف بسرعة، وهو يفرك كفيه الهرمين الجافين المتشحين بالبياض. ألاحظ أنه على الرغم من أنها

ليست عطلة نهاية الأسبوع إلا أنه يرتدي صدريته الصفراء. لن أعرف أبداً، ما إذا كان حقاً ضابط جيش مسن، أو رجلاً محتالاً. إنه سؤال آخر من تلك الأسئلة التي لا أستطيع طرحها على الآنسة فافسور.

تقول: «إنها هي من أفتقدها، كوني- السيدة غريس- هي من أفتقدها». أعتقد أنني حدقت بدهشة، عندما رمقني بنظرة أخرى من تلك النظرات المشفقة. تقول: «لم يكن هو معي أبداً»

«أنت لم تعتقد ذلك، أليس كذلك؟» فكرتُ بها وهي تقف إلى الأسفل مني في ذلك اليوم تحت الأشجار، وهي تنتحب، رأسها مستقر فوق كتفيها الضيقين، والمنديل المحشو في يدها. «أوه، أبداً» قالت: «لم يكن هو أبداً». وفكرتُ أيضاً، بيوم النزهة وفي جلوسها خلفي على العشب وكانت تنظر حيث كنت أنظر بشغف ورؤية ما لم يكن يعنيني على الإطلاق.

توفيت آنّا قبل الفجر. في الحقيقة، لم أكن هناك عندما حدث ذلك. كنت قد خرجتُ إلى ممشى دار الرعاية لأتنفس عميقاً أنفاس الصباح التهكمية اللاذعة. وفي تلك اللحظة، الهادئة والكئيبة للغاية، تذكرت لحظة أخرى، منذ زمن بعيد، في البحر ذلك الصيف في باليليس. كنتُ قد ذهبت للسباحة وحدي، لا أعرفُ لماذا، أو أين كانت كلوي وميلز؛ ربما كانا قد ذهبا مع والديهما إلى مكان ما، ربما كانت إحدى الرحلات الأخيرة التي قاموا بها معاً، وربما كانت الأخيرة فعلاً. كانت السماء ضبابية، ولم تكن هناك نسائم تشاكس سطح البحر، عند حافته كانت الأمواج الصغيرة تتلاشى في خط متثاقل، مراراً وتكراراً، كحاشية ثوب لانهاية لها تُخاط بكل بلادة. لم يكن هناك الكثير من الأشخاص على الشاطئ، وكان القلة على مسافة مني، وشيء ما في الأجواء الثقيلة والبليدة جعل أصواتهم تبدو كأنها قادمة من مسافة أبعد. كنتُ

منتصباً حتى خصري في المياه التي كانت شفافة تماماً، حتى تمكنت من رؤية الرمال الصخرية لقاع البحر أسفل مني، والقواقع صغيرة الحجم وفتات مخلب السلطعون المهشم، وقدماي شاحبتان وغريبتان أشبه بعينات معروضة تحت الزجاج. عندما كنتُ واقفاً هناك، فجأة، لا، ليس فجأة، إنما بنوع من الجيشان المنقاد، هاج البحر بأكمله، لم تكن موجة، بل اندفاع متموج وسلس بدا قادماً من الأعماق، كما لو أن شيئاً ضخماً في الأسفل قد اضطرب من تلقاء ذاته، ورفعني نحو الأعلى لمدة وجيزة وحملني قليلاً نحو الشاطئ ثم انتصبتُ على قدميّ كما كنت، وكأن شيئاً لم يحدث. وفي الواقع لم يحدث شيء، لا شيء جدير بالذكر، فقط إحدى إيماءات العالم العظيم التي تشي باللامبالاة.

حينها جاءتْ ممرضةٌ لاستدعائي، فانعطفتُ وتبعتُها للداخل، فكان ذلك كما لو أنني أسيرُ نحو البحر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جون بانفيل

بحر

وصفَه الناقد بيتر جي كونرادي بـ (كاتب الكتّاب)، فيما يعتبره آخرون: خليطٌ من فلاديمير نابكوف وصموئيل بكت وجيمس جويس.

هو الكاتب الايرلندي المثير للجدل «جون بانفيل» الذي توّج في الاحتفال الذي أقيم في لندن في ١٠ أكتوبر من العام ٢٠٠٥ بجائزة البوكر البريطانية لذلك العام، حيث حسم رئيس لجنة الجائزة آنذاك البروفيسور جون سثرلاند الموقف لصالح دار بيكاردو لتفوز مرة ثانية في عامين متتالين، ممّا جعل فوز جون بانفيل بجائزة البوكر ٢٠٠٥ عن روايته (البحر) الصادرة عن دار بيكاردو فوزاً استثنائياً، قال سثرلاند:«إنها رواية متقنة للحزن والذاكرة والحب المستعاد». أما بانفيل نفسه فقد اعتبر فوزه انتصاراً للأسلوب على المضمون.

من المقدمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-9933-38-575-0
9 789933 385750
نينوى للدراسات والنشر والتوزيع